

قلب صديق

تأليف : ايمانويل كازاكفتش

ترجمة: عبد الحميد السحري

قلب صديق

تأليف

ايمانويل كازاكفتش

ترجمة

عبد الحميد السحرتي

دار الطباعة الحديثة
٥ شارع فرط النوبي - ت ٩٣١٨ ل

الفصل الأول

بحّار في الجيش

كانت المعركة حامية الوطيس . وقد علم الآلاى الذى أنهكته المحاولات المتكررة للتغلب على دفاع الألمان فى سبيل الوصول لاورشا ، أن آلايا آخر سوف يحل محله ، وسيتبدل الرجال الذين توغلوا أميالا فى الأودية الموحلة ذات المنخفضات بوحدات جديدة ثم يلجأون لأماكن جافة هادئة للراحة والعلاج من نزلات البرد والاحتقانات التى جلبها الخريف .

ودعا الماجور جولوفين، قائد الآلاى ، إلى عقد مؤتمر من معاونيه ، وهم أركان حربه وقواد الكتائب الثلاث، وقد برقت أسارير وجهه عندما أذاع عليهم الأخبار .

ووصل أثناء الاجتماع ممثلان للفرقة التى كان عليها أن تتسلم العمل - كولونيل عجوز وماجور صغير . وعند دخولها الخندق الرطب الذى كان يضيئه مصباح بدائى . عرضوا أوراقهم وجلسوا على السرير الخشبى الموضوع على حوامل بجوار الموقد الحديدى الصغير ليجففوا أنفسهم ويصيبوا بعض الدفء .

وكان الرجال يتبادلون النظرات بانتباه فى فترة الصمت القصيرة التى لم يقطعها سوى الصفير المرعب للريح وصرير باب الخندق .

وكان مظهر القادمين الجدد يمثل نقيضا لمظهر ضباط الآلاى ، فهم حليقو اللحى لاتزال تفوح منهم روائح طيبة بعد الحلاقة ، ووجوههم ناضرة بعد فترة طويلة من الراحة والغذاء الجيد . ولم تزل أحذيتهم ، رغم ما عليها من الوحل القليل ، تلمع ذلك اللمعان الذى يصحب حياة الجيش والراحة .

وشعر جولوفين بعدم الارتياح لمظهره ومظهر مرءوسيه الفظ الشائن . وقال لنفسه عابسا فى الوجوه المكتنزة لقواد الكتائب « نعم ، لقد تركنا أنفسنا تتدهور ، إننا نشبه فئة من الروبنسنكروزات الملعونين » . ولكن لم يبد على رجال القائد شىء من الخجل لقد كانوا ينظرون القادمين الجدد بشىء من التحدى وكأنهم يقولون ، « لقد كنا دائما مثلكم الآن . وسنرى كيف ستصبحون بعد أسبوعين . »

وربما خطرت نفس الفكرة للبكباشى الصغير . فقد كانت نظرته إلى ضباط الآلاى تنم عن الرثاء والقلق على المصير المخبأ لهم فى هذا القطاع المحفوف بالمخاطر من الجبهة . ولكن الكولونيل ذو الرأس الأشيب والذى تنطق ملامحه بوضوح أنه من قدامى المحاربين . كانت عيناه تومضان عندما زجر قائلا :

« لماذا لاتحلقون ، إنكم تشبهون المتصوفين تماما . »

فأومأ قائد الآلاى إيماءة حزينة وقال :

« نعم ، إنك على حق يا كولونيل ، ولكن بكل صراحة ، الظروف هنا قاسية . فالمكان كله مقفر ، ويشعل الأعداء النار فى كل شىء عند انسحابهم . فلا أشجار ولا أخشاب للحريق نستدفىء بها ونسخن بها الماء للاستحمام . والمطر يتساقط منذ شهر والخنادق تنهار ولا يوجد ما نسندها به . لاشىء غير الماء والوحل فى كل مكان . ولا يوجد مكان لتنظيف الأسلحة . وكانت مدافعنا معطلة ، وكانت — ما الذى لم يكن معطلا ، وقد ظهر عليه السرور من تكرار كلمة « كانت » التى كانت تعنى أن متاعبه قد انتهت وأن أشياء جديدة وحسنة لاتقارن بما سبقها كانت تنتظره . وتجهم الأميرالاى بغيظ ، وقال باقتضاب : « فلندخل فى الموضوع » .

فأخبروه عن الموقف فى القطاع ، وعرضوا عليه خرائط العمليات والاستكشافات وقدموا التقرير الذى كانوا قد أعدوه قبلا عن إجراء عملية التبادل . وقد أصاب جولوفين خيبة أمل عند ماظهر أن الكولونيل شخص مدقق ، لاتخدعه المظاهر .

فقال « سألقى نظرة على الموقع الأمامى بنفسى وأرى الموقع بالضبط على الطبيعة » . ثم استطرد بعد وقفة قصيرة « أما الآن فيمكننى أن أقول

أننا غير مكتفين بأية حال بمعلوماتكم عن العدو ، عن قوة سلاحه ، ونظام دفاعه ، وقواته وعددها ، وقد قررت الفرقة أن تقوموا بمعركة استطلاعية قبل أن تسلموا جبهة القتال ، وسيصلكم الأمر بهذا المعنى خلال ساعات قليلة .

وقال جولوفين مكررا ، « معركة استطلاعية » ، واختلج وجهه لحظة كأنه يتألم . ان معركة استطلاعية تعنى أن الآلاى الذى تحمل خسائر جسيمة سيقاسى أهوالها من جديد ، وفوق ذلك فإن المنقذ الوحيد لنا هو الوادى الذى أغرقته المياه وذلك بعد أن تحصن العدو فى مراكز ممتازة ، تسيطر على سهل عار يمتد أميالا فى اتجاهنا . ان الكولونيل الذى حضر من الفرقة كان محقا تماما فى إصراره على الاستطلاع قبل أن يتسلم مقاليد الأمور . وله كل الحق بل وعليه كل الواجب فى أن يعمل ذلك . ولكن جولوفين الذى يعتبر الأميرالاى رجلا عجوزا قاسيا كريها سيء النية ، أصر أن يطلب استطلاعا نكاية به ورفاقه لتوليه أمر هذا القطاع الخطير ، وحقدا على أولئك الذين كانوا سيذهبون للراحة .

وقال بجناف ، « حسنا ، سنقوم بالاستطلاع » . وجالت عيناه فى ضباطه . وكان عليه أن يقرر من سيكلف بهذه المهمة الصعبة من قواد كتائبه . إنه يمكنه بالطبع أن يختار اليوزباشى لابزين قائد الكتيبة

الثانية . الذى لا يعجبه كثيرا — إذ كان حريصا جدا ، بل جبانا — ولم يكن يشعر نحوه شعوره نحو الآخرين . ولكن لم تكد الفكرة تطرأ حتى استبعدها . فعلى الرغم مما يفكر فيه الأميرالاى الضامر ومهما كانت دوافعه فإن الواجب هو الواجب : فالفرقة التى سترحل ، عليها أن تقوم باستطلاع قبل التبادل إذا لم يكن العدو قد استكشف تماما — فهذا من أصول الحرب . ويجب أن تعطى المهمة للأشد عزما ، المفضل عنده وهو قائد الكتيبة الأولى .

وقال جولوفين وهو ينظر إليه نظرة تنم عن العنف : « استعد يا كابتن اكيموف » .

وأجاب اكيموف ، « حسن جدا » . واعتدل جسمه الطويل بينما حركت الابتسامة لحيته السوداء المجعدة اللامعة — التى طالت وطالت . وقد اجتذب صوته الذى فيه عمق ورنة طروبة ، انتباه الكولونيل الذى انصرف عن الخرائط والأوراق . والتفت للمتكلم فرأى رأسا ضخما على جسم كبير ، ولم تخف قوته الحلة المبطنة . وكنت تحس فى الكيموف قوة غامرة ولو كان سلوكه أكثر جدية وصلابة لبعث فى النفوس كل فخر وإعجاب . وربما كان هذا هو السبب الذى يجعله يحنى أكتافه قليلا ، وأن حركاته كانت متباطئة كالدب ، وكان متكاسلا إلى حد ما عن قصد ورقبته — وهى الجزء الأملس الوحيد فيه — كانت بيضاء رقيقة جدا

مع أنها ليست نحيلة بأى حال . لا تحجب العضلات القوية المستورة تحت ملابسه .

وكان وجهه باستثناء حواجبه المرتفعة الواضحة ، مغطى بآثار بثور صغيرة ، وكانت عيناه الضيقتان الخضراوان الرماديتان هادئتين تنمان عن الثقة بالنفس .

وقد ترك مظهر قائد الكتيبة أثرا حسنا فى نفوس الكولونيل ، ولكن لعادته فى الحكم على الناس بأعمالهم انغمس فى أوراقه من جديد محاولا مقاومة تأثير شخصية الشاب عليه، وقد طرأت له فكرة « سنرى كيف سيكون فى العمل » .

وقال جولوفين فى نفس الوقت لايكيموف ، « ستساعدك كل مدفعية آلاينا ، وبطارية من آلاى المدفعية ، وسأطلب من قائد الفرقة بعض الزيادة فى المدفعية . وسأعطيك كل ما عندنا ، وسأرسل لك سرية من سلاح المهندسين ، وتردد برهة ثم أضاف فى محاولة أخيرة لتلطيف الأمر « وكذلك فصيلة الاستطلاع » .

وكانت إجابة ايكيموف : « حسنا » .

وظلت ابتسامة خفيفة باقية على محياه .

وقد تعجب الكولونيل العجوز عند ما رفع نظره إليه ثانية وقال

« ما سبب ابتسامته ؟ وكان سبب ابتسامة اكيموف هو أنه بمجرد أن سمع عن المعركة الاستطلاعية ، تأكد فى الحال أن جولوفين سيختاره للمهمة . وعند ما تم ذلك أضاءت ابتسامة غريبة محياه . ابتسامة زهو عميق ، وسرور لصدق الابتسامة ، وقلق فى نفس الوقت .

وأخذ أكيموف بندقيته التومى من على الجدار، واستأذن الكولونيل فى الذهاب ، بصفته الرئيس الأعلى .

وأومأ له الكولونيل وقال : « سأحضر لرؤيتك قريبا » .

وأجاب إيموف « مرحباً بك ،لقد وجدنا خروفاضالا ونحن نقوم بشوائه اليوم . فلتشاركنا فيه . ولكن أفضل الا تخبر ضباطى أنكم ستحلون محلنا غدا » .

وسأل الكولونيل ببرود ، « ولم لا ؟ » .

ولم يجب أكيموف فى البداية ، ولكنه قال أخيراً بصراحة « حتى لا يوفر الرجال جهدهم كثيرا » ثم انتظر أى إعتراض يمكن أن يوجد . ولكن عندما لم يتفوه أحد بشيء واصل دون أن يوجه حديثه لشخص معين . « سأكون مسرورا لو نسيت أنا نفس الموضوع ، رغم أنه لا يمكن تفادى ذلك » .

وهز بندقيته التومى قليلا فوق كتفه ، ومضى .

ورغم الصباح الباكر ، كان الظلام تاما .

ويقود سرداب ضيق من خندق قائد الآلاى ، المحفور مثل الكهف فى المنحدر الايسر للوادى ، إلى الوادى نفسه . وقد التصق أكيموف بالجدار المبتل للسرداب ليتفادى الا زلاق فى الوحل ، وتقدم ببطء للأمام محاولا التعود على الظلام ، وأخيرا وصل إلى فوهة السرداب وكان الوادى ينبسط أمامه ، أسود لاحدود له ، ولم يكن يهز الهدوء المخيم سوى الريح التى كانت لاتزال هائجة ، تبعث الصفير عندما تمس برك الماء ، وتحمل أحيانا الأصوات الخافتة للجنود .

ونادى صوت جاويشه المرافق ما يوردا « الرفيق اليوزباشى »

وأجاب أكيموف « نعم هو أنا ، تقدم » .

وسار بسرعة ، فقد تعود على الظلام . واستطاع أن يرى الخط غير الواضح الذى يفصل الأرض السوداء عن السماء المظلمة . والحافة العلوية للوادى ، التى لاتعلو عنه كثيرا .

وسأل الجاويش الذى كان يسير خلفه قائلا : « هل الجو بارد ؟ »

فأجاب : « نعم ، إنه لكذلك » .

وبعد لحظات من الصمت نادى الجاويش أكيموف ثانية « رفيق الكابتن »

« نعم ؟ » .

وسأل ما يبوردا بحذر ، « هل تلقفتهم القرية من قائد الفرقة ؟ .

واستدار اكيموف ، بابتسامة مقتضبة وقال ، « لماذا ؟ هل تلاحظ حتى فى الظلام ؟ ».

وضحك الجاويش بهدوء ، ولكنه سأل من جديد ، لأن الإجابة المراوغة لم تشف فضوله . أخبار مهمة أو مجرد الأخبار العادية ؟ »

وقال اكيموف ، « أن الطريق يتجه إلى أعلى هنا ، يجب ألا ننحرف عنه يا مايبوردا فلتبق منخفضا واحترس حتى لا تسقط بندقيتك فى الوحل . حسنا ، لقد وصلنا إننا الآن فى الخارج » .

وعلى القمة أبصرا فجأة ضوءا أبيض يتحرك فى الهواء ورأيا وهما يمران فى هذا المكان دبابة محطمة سوداء . ثم واصلا السير فى السهل .

وقال اكيموف بعد صمت طويل ، « سنحارب ، سنأخذ أورشا ونتجه نحو وارسو . ثم — وهذا سر عسكرى لك — سنسير إلى برلين . وهذه هى الأخبار يا جاويش . كل ما هو موجود وكل ما يمكن أن يوجد » .

واوقف هذا الكلام ثرثرة الجاويش ما يبوردا .

واستمرا صامتين وهما يسيران إلى الوادى حيث تعسكر كتيبتهم - التى تطوق قرية محددة على الخريطة أما على الطبيعة فإنه لم يبق من هذه القرية سوى كومة من المداخن المحطمة . وتقف المداخن الداكنة

للمنازل المحترقة فى صفوف منتظمة كأنها تماثيل آلهة الوثنيين . وتفوح منها الرائحة النفاذة المؤلمة للنار والتخريب التى يستحيل نسيانها .

وقد سار اكيموف والجاويش فى الوادى بخطوات أسرع لأنهما يعرفان هنا كل شىء من الأرض . وإلى جانب ذلك فقد غزر المطر . ثم مرا بجوار المواقع المبنية للكتيبة . ومن بعيد كان فى المقدور رؤية إشعاعات من الضوء تنبعث من الخنادق التى لم تغلق جيدا أما عمود الدخان فإنه يؤدى حيث مطبخ الكتيبة .

وقال أكيموف عند مدخل خنـــدقه ، « إذهب واستدع كل الضباط » .

وكان اكيموف يطلق على خندقه « الجزيرة المنخفضة ». وهو تعبير يطلقه البحارة على أى مكان تأخذهم إليه ظروف الحرب والعمل . لقد كان بحارا ودخل الجيش بالصدفة بعد أن جرح فى نوفوروسيسك فى اشتباك على الساحل مع فصيلة من البحارة . ومع ذلك فقد كان مسرورا لوجوده على البحر لأن برلين ، كما يقول أحيانا ليطمئن نفسه ، كانت بعيدة جدا عن البحر بحيث يستحيل عليه الوصول إليها بالسفينة ، ومن المسلم به على أية حال ، أن كبرياءه قد جرحت عند ما لم يتلق إجابة على طلباته العديدة التى أرسلها لتحويله إلى البحرية ، إما لأنها أهملت فى أحد المكاتب أو لأن البحرية لاتحتاج لضباط جدد .

ولقد كان ملاحا فى البحر الأسود فى رتبة الملازم يقود مطاردة غواصات ، وكانت قطعة بحرية من الدرجة الرابعة . وقد غرقت السفينة الضئيلة أثناء إحدى العمليات .

ومن الصعب أن تعرف بالضبط السبب الذى يجعل البحارة محبوبين دائما ، هل لمهنتهم المملوءة بالخطر والفروسية ، ولنسيم البحر المالح الذى أثر فى كل ساذج على البر أو ديسة هوميروس ، أو لأن الحيــــاة فى البحر تعلمهم روح الجماعة وعدم الخوف من أكثر الأشياء غدرا ، أو ربما لأنك نادرا ما تقابل البحارة فى معسكرات روسيا الممتدة ، ومهما كان السبب فإن البحار السابق كان محبوبا من رجاله فى الجيش غالبا لأنه أحد رجال البحر . وقد اعتاد الجنود فى الكتيبة الاولى أن يتباهوا أمام رفاقهم فى الوحدات الأخرى قائلين : « إن قائدنا بحار . إنه فتى لطيف . وإنك لتحس بالأمن فى أى مكان تكون فيه معه »

وقد وصل اكيموف إلى رتبة يوزباشى فى مدة وجيزة وعين قائد كتيبة . الأمر الذى جعله يخشى ويقلق على مركزه لو أعيد إلى البحرية ، لأنه كان ملازماً فقط فى البحر ، وسوف لا تسمح له معلوماته وخبرته بأن يشغل مركزاً معادلا لرتبته الحالية . فالجانب الفنى فى البحرية معقد وصعب للغاية ، ولا يكفى فيه أن تكون شجاعا وممتازاً فى التنظيم

ومع ذلك فإن اكيموف كان يتشوق أحيانا للبحر ، وخاصة للبحر

الأسود بحواتيه المليئة الزاهية المزدحمة الصاخبة ، وسمائه الزرقاء التى تبهر الأبصار، وشواطئه الزمردية . لقد كان يحن شوقا إلى سفينة — هذا الجهاز المتناسق فى روعة ، هذا العالم الصغير الحكيم الفريد — كل شىء فيه نافع ويتحد فيه البحارة فى الحياة والموت ، ويحس كل منهم أنه على جزء صغير ضئيل من أرض الآباء السوفيتية يتمايل تحتهم بانتظام .

وكل شىء فى اكيموف كان بحريا ، حتى عيناه ، اللتان كانتا تبدوان خضراوين كاخضرار البحر وحتى العلامات التى كانت على وجهه ، تبدو كأنها لم تكن من الجدرى بل من تأثير الماء المالح .

لقد ولد بافل اكيموف فى مدينة كوفورف ، البعيدة تماما عن البحر بحيث لايستطيع كل طائر أن يطير هناك . وكان قوامه الطويل هو السبب فى التحاقه بالبحرية — لقد كان يزيد على ستة أقدام — وذلك بالإضافة لقوته البدنية ولأن حفنة الشباب الشيوعى كانت ترعى البحرية محاولة مدها بأحسن الشباب . وكانت حرفة اكيموف كخراط وصانع آلات وشهرته كعامل اشتراكى صالح ، تطابق مثل البحرية ، هذه المثل التى يحلم بها قادة الجماعات المذكورة فى أنحاء بلادنا الشاسعة .

وكان قد قضى فى مدرسته سبع سنوات فقط عندما ذهب ليعمل كخراط تحت التمرين ، ولكنه أصبح بسرعة أدق صانع للآلات ، بسبب مقدرته الفذة الواضحة وعمله المتواصل ، وقد عرض معظم عمله فى

معارض نظمت فى فترات انعقاد المؤتمرات الصغيرة لعصبـــة الشباب الشيوعى فى المدن والأقاليم .

وقد نظم كذلك ، على عكس الفتيان فى سنه ، عددا ملحوظاً من فروع عصبة الشباب الشيوعى . وليتوج ذلك أخذ يدرس برنامجا بالمراسلة ، وربط الخبرة بالدراسة فى كل أعماله الإنتاجية والاجتماعية وحصل على الدرجات النهائية فى كل المواد . وكانت هذه الدراسة صعبة جدا حيث يعتمد برنامج المراسلة أساسا على قوة العزيمة . والباعث الوحيد للعمل عند طالب المراحلة هو ضميره . وليست الدراسة بدون أى ضغط حتى ، ولو كان خفيفاً ، أمرا سهلا . وإلى جانب ذلك ، فإن أكيموف كان يكسب أكثر من أى مهندس آخر فى المصانع . وبهذا لم يكن يدرس ليرفع دخله ، ولكنه كان يريد أن يزيد من علمه ليصبح أكثر نفعاً لمواطنيه . وفضلا عن ذلك فقد كان الأكثر برا من بين أفراد عائلة عديدة الأفراد ربها نساج عجوز . وكان من الطبيعى تماما أن يكون محبوباً من كل من هم فى المدينة التى ولد وشب فيها .

وتقع مدينة كوفروف على الشاطىء المنحدر لنهر كليازما وقد أسسها إيفان الصياد فى القرن الثانى عشر — على الأقل كما تحكى الأساطير — وقد ملكها أمراء كوفروف وهم فرع من عائلة ستارودوب الأمراء ، وذلك بعد مضى أربعة قرون كما يقول تاريخ نستور . كانت كأى مدينة عادية فى روسيا الوسطى ، بها كنائس ومحال لتجارة الخردوات بنيت بالحجارة

وشوارعها مستقيمة تماما اصطفت على جانبيها منازل من طابقين ، الطابق الأول من الحجارة والعلوى من الخشب . وكان بها قبل الثورة مباشرة ثلاثة وثلاثون مؤسسة ، وملعبا ، ومدرسة عالية ، ومستشفى ، وبعض مصانع الغزل ، ومعملا للشمع ، وطاحونة ، وورش سكة حديد موسكو نزهنى نوفوجورد .

وقد اتسعت المدينة الصغيرة بعد ثورة أكتوبر وأصبحت كبيرة وصاخبة ، وامتلأت بالشباب الطوال الفضوليين الذين يحملون دم وأجسام سلالة الصيادين والفلاحين الذين كانوا يفلحون أرض الأقاليم. وقد تحولت من مدينة للغزالين والنساجين إلى مدينة لعمال المعادن ، وتطورت ورش السكك الحديدية إلى مصانع كبيرة تصنع آلات حفر قوية يمكن رؤيتها فى كل مواقع البناء ، كبيرة وصغيرة ، من موسكو إلى كوموليسك على الأمور . وفى هذا المكان عمل أكيموف .

وكانت عائلة أكيموف تعيش فى منزل صغير فى زار يشـــنايا سلوبودكا التى تتصل بالمدينة بواسطة معدية قديمة ، ولم يبن الجسر على الكليازما إلا أخيرا . وقد تدرب أكيموف على الخدمة فى البحر ، رغم عدم علمه بهذه الحقيقة فى ذلك الوقت ، وذلك فى الكليازما وروافده اليوفود والنيريختا — وهى جداول باردة مغطاة بالحشائش البرية ومليئة بالدوامات . فقد تعلم هناك كطفل كيف يعوم ويغطس وكان يصطاد

سمك القشر في الشتاء بشص مطعم . وفي الصيف يصطاد الابرميس، وسمك الكراكي ذي القشر وأحيانا السارليت بسنارة وشبكة كبيرة من صنع المنزل تستعمل في الشاطىء . وهناك سحرته الحياة في البحر . في هذه البلاد البهيجة التي يتخلل أراضيها الأنهار الجميلة بينها عناقيد من النعناع وغابات كثيرة من شجر البندق وأحراش من شجر الفيولا وأشجار الصنوبر القليلة والمروج والممرات التي يتناثر فيها نبات الشقيق الأصفر ونبات آخر ذو أزهار زرقاء تدخل على النفس السرور ولقد تجاوب أكيموف مع الطبيعة وطرب لها وتلك أحدى الصفات الجليلة التي يمتاز بها الشعب الروسي .

وقد كان أكيموف قاريا تماما بالوراثة ، كما عبر هو بنفسه ، وقد أخذت عيناه اخضرارهما ـ إذا كان صحيحاً أن العيون يمكن أن تأخذ اللون من الطبيعة المحيطة ـ من التلال الخضراء الفاتحة ومن الجداول المتعرجة في المنطقة التي كانت تسمى فلاديمير جوميرينا .

ولولا توقع الخطر الدائم بالاعتداء المسلح على بلادنا لوهب كل قوته وعزيمته ومهارته لإنتاج أشياء يمكن أن ترى وتحس مثل آلات الحفر وعربات السكك الحديدية والثلاجات والسيارات ، ولأمكنه أيضا أن يدرس في أي مؤسسة وأن يقيم إما في كوفروف أو يذهب إلى مكان آخر ، كأحد مدن سيبيريا الجديدة مثلا . ولأمكنه أن يقوم بدوره بإقدام وعزيمة لصالح شعبنا بفضل صفاته الممتازة وعقليته ،

ولكن الأمور لم تسر في هذا الاتجاه لأن الجيش والبحرية كانتا في حاجة إلى رجال . وقد طلب في البحرية في تعبئة فورشيلوف سنة ١٩٣٦ . وبعد أن خدم كبحار ماهر وكصف ضابط ذهب إلى مدرسة تمرين بحرية وأخيرا عين قائدا لقطعة بحرية من الدرجة الرابعة . ورغم قدراته بدا أن ليس له أي فائدة ظاهرة لأي إنسان ، سوى مجرد وجوده . لكن مجرد وجوده قد منع عن شواطئنا كل الأعداء الذين ظلوا يهددوننا سنين . وعندما بدأت الحرب أصبحت خبرته ومهارته ضرورة لنا كالهواء الذي نتنفسه والدم الذي يغذي قلبنا .

وقد اكتسب اليوزباشي أكيموف لجيشه من البحرية تقديرا أكبر حتى في أعين الجاويش مايبورودا مرافقه الخاص ، الذي استعمل التعابير البحرية وأصبح يفضلها الآن . ولكن مايبورودا كان رجلا جافا شحيحا ، وكانت وظيفته قبل الحرب مديرا لعربة مرطبات في السكك الحديدية لا تتطلب تفكيرا .

ولم يكن مايبورودا يعتقد ، بوجه عام أن الناس خالون من العيوب وكان ميالا لتكبير نقائصهم قائلا إنه لو كان هناك أناس بلا عيوب فإن ذلك فقط لأنهم مهرة بالقدر الذي يمكنهم أن يخفوا به جوانبهم السيئة وإذا عاشرتهم أي فترة من الزمن ستجد أن لهم نواحي ضعفهم .

ولكنه لم ير عيبا في اليوزباشي اكيموف مع أنه كان مرافقه لثلاثة

شهور ، وهى فترة كافية تماما فى زمن الحرب ، وليس يعنى ذلك أنه قد وجده معصوما تماما ، ولكنه كان يعتبر أن هفواته بسيطة لا يلتفت إليها فكان اكيموف حاد الطباع . وكان مايبورودا يقول « حاول ألا تثور عندما تكون فى مثل هذه الحالة » وإذا كان الكابتن فظا قاسيا على مرءوسيه فإن مايبورودا كان يقول للجنود الآخرين : « إذا كنتم رقيق القلوب مع فتية كفتيتنا لخدموكم » .

ولقـــد كانت رأس مايبورودا الكبيرة بأنفها الملتوى وعينيها المنتفختين مليئا دائما بالأفكار التعسة ، لأن عائلته كانت فى كونوتوب التى يحتلها الألمان . وقد كان مثاليا فى تأدية واجباته الدقيقة ولكنه كان يبدو دائما مكتئبا ومتذمرا وكأنه يضيق بشىء ما . وكان يحب الدمدمة وغالبا ما يتدخل فى المناقشات بتهكم قائلا : « ما هذا ؟ » وكان ذلك يثير الكثيرين من رفاقه . وفى الجملة لم يكن من السهل أن تعامله .

وقد أحدث وجود اكيموف فيه تغييراً ، كما تؤثر فتاة فى رجل يحبها ، وكان مظهر الكابتن الطبيعى ، كما يعرف مايبورودا تماما يحجب عقلا راجحا ومعلومات وافرة عن الحياة . وكان يتحدث فى الصميم دائما ، وابتساماته وضحكته الصاخبة كان لها تأثير فى مرافقه كتأثير المهماز على الحصان الجيد . وكان هذا يمنعه من التفكير فى نفسه وفى أولاده وزوجته وحاضره ومستقبله لأنه اعتاد العمل طوال حياته .

وكان أحب شيء إلى مايبورودا هو الوقت الذى يخيم فيه الهدوء على الجبهة ، حيث كان اكيموف يحكى له أثنـــاء راحته كل أنواع الحكايات عن المعارك البحرية وعن حياة البحار عامة . وكثيراً ما كان مايبورودا يسأله عن الحياة فى البحرية وعن البحر ، الذى لم يكن قد رآه فى حياته .

وكان اكيموف يجيب بابتسامته المفكرة التى يعكسها مباشرة وجه مايبورودا ، مع قليل من التشويه : « ليس من السهل وصفه ، وفى الحقيقة أنه كمية من الماء ، ولكن ليس ماء كما يفهمه مقيم على البر مثلك . إنه عالم فريد من نوعه ولا يمكنك أن تصـــنع بحراً من مجموعة من الأنهار كما يستحيل عليك أن تصنع ثعباناً من مجموعة ديدان . فالبحر شيء خاص . له رائحته الخاصة ، وسماؤه الخاصة وضوؤه وظلامه الخاص ويظهر أسود من البر ، وكلما نظرت قريباً من الأفق ازداد سواده وتتواثب أشياء بيضاء كالمصابيح على الكتلة السوداء ولكن عندما تنظر إلى البحر من فوق سفينة بعيدة عن البر فإنه يبدو أزرق » . ثم ينهى اكيموف كلامه بشكل لا يتغير ، متضايقاً من عـــدم إمكانه إعطاء شرح مطول فيقول : « يجب أن ترى البحر بنفسك ، وإذا خرجنا من هنا أحياء ، فسآخذك إلى سفاستوبول أو أوديسا . »

كان خندق اكيموف شهيراً بين كل أودية الكتائب والسرايا فى القطاع لجوه البهيج . ويرجع ذلك لجهود الجاويش مايبورودا ، وكان

كل الضباط يحسدون اكيموف على مثل هذا المرافق .

وكانت الأرض مرصوفة بالأحجار التى كانت سليمة مغطاة بالقش رغم اسوداد أطرافها من النار . وكان الموقد الحديدى ساخناً إلى درجة الإحمرار وتقف بجانبه دائماً كومة من الخشب لا بأس بها لتجف . ليس من خشب شجـــر البتولا أو الصنوبر اللطيف الذى كان يتمناه مايبورودا بل كان فقط من أغصان الصفصاف . ومع ذلك ، فلم يكن عند بعض الخنادق الأخرى حتى هذا النوع من الخشب . وكان مايبورودا يجمع هذه الأغصان فى ظل نيران الألمان ، من على شاطىء جدول يتعرج على طول المواقع الأمامية . وكان يحضر جزءاً منها معه كل مرة زاحفاً أحياناً على بطنه مثل كشافى الكوبان فى الماضى. وكان إلى جانب الحوائط الرطبة أغصان مماثلة .

ويحتوى الخندق على منضدة ومقعدين ، ويوجد حوض مطلى معلق على مسمار فى هدوء على الحائط وهو أزرق داكن من الخارج وأبيض لامع من الداخل ويعلم الله وحده من أين جىء به . وكانت الأسرة هنا حقيقية فهى مصنوعة من ألواح الخشب — وليست مصنوعة من الطين كما فى خنادق أخرى .

بل وكان يوجد حاك . ولم يكن لهم فى البداية إبر له ، وقد صنع مايبورودا واحدة له من إبرة خياطة عادية ، وقد أدت المهمة كالإبرة

الحقيقية وكان عندهم أربع أسطوانات فقط ، وكلها موسيقى آلية وليست أغان . وكان هذا يضايق كثيراً نزلاء الخندق لأنهم كانوا يجدون الموسيقى مملة وغير جيدة بالمرة . ثم تعودوا عليها وتذوقوا الألحان المعبرة الرقيقة التى نفذت إلى قلوبهم ببطء ولكن بثبات . وكان الرجال يرقدون فى الخنادق الرطبة فى أثناء فترات هدوء الجبهة ، ويغنون وتتعاقب الأغانى المحببـــة مع الموسيقى « الكلاسيكية » وكان يسر لذلك كثيرا الكابتن « ريميزوف » مدرس التاريخ السابق ، الذى كان مساعدا سياسياً لاكيموف.

ولم يلبث الخندق أن امتلأ . فقد جاءوا واحدا بعد الآخر : مساعد الكتيبة ، الملازم أورسكين وقواد سرايا حملة البنادق بوجوزيان وبيلسكى وملازم المدفعية وملازم قائد فصيلة — وكل هؤلاء هم ضباط الكتيبة على قيد الحيـــاة . وقد غفا عامل الإشارات النوبتجى فى ركنه بجوار المسرة .

وبينما كان أكيموف يخلع سترته المحشوة وصل الكابتن ريميزوف أيضا . وبعد أن رمى لباسه البالى من أثر الجو نظف نظارته التى أصابها رذاذ من الوحل سأل : ما الأخبار ؟

وقال أكيموف بينما كان يضع الخريطة على المنضدة : « اجلسوا يارفاق ، ودون أن يرفع عينيه أضاف ببساطة « سنحارب » .

وقد أحس بصلابة الضباط وسمع الصرير الطويل عندما كانت الخرائط تخرج ببطء من محافظهم .

وفى تلك اللحظة رجع مايبورودا وتقدم بجوار الجدار دون أن يحـــدث صوتا إلى أن وصل إلى مكانه بجوار المدفأة . وبدأ يراقب الشـاه ولـكنه كان يصغى إلى شرح الـكيموف للخطة الأولية للمعركة، كما اتضح من تنهداته الملتهبة أحيانا . وبدأت رائحة اللحم المشوى المغرية التى تـكاد تسكر ، تملأ الخندق بالتدريج . وكان مايبورودا يحسب عدد الذين سيأكلون ، مهتما ليعطى كلا نصيبه بقدر ليمكنه إبقـاء بعضه لليوم التالى . وقد فـكر وهو يهز رأسه بأسف : « لن يبقى كثيرا للغد »

وقد حدد للهجوم الساعة الثامنة من صباح اليوم التالى عند تناول الألمان لإفطارهم حيث سيكون هناك عدد أقل من الرجال فى الخنادق. وسيطلق ستار من نيران المدفعية لمدة عشرين دقيقة لتفـكيـكهم . وكانت الخطة هى الاستيلاء على أول خندق ألمانى والثبات فيه وسيلحق عمال بناء الآلاى بالـكتيبة لهذه العملية وستقرر التفصيلات الأخرى عندما تصل الأوامر من الآلاى .

وسأل أكيموف بعد فترة صمت : هل هناك أسئلة ؟

ولم يتلق إجابة .

وسأل مرة ثانية ، متجهما : هل الهدف واضح ؟

وقال أحد الضباط بصوت منخفض : « تماما »

ومضى أكيموف : « سيكون لنـا حماية فعلية من المدفعية ستساعدنا

كل مدفعية الآلاى والفرقة وصمت ثانية . ثم احمر وجهه فجأة ونفس عن مشاعره فى صياح عاطفى : « إن هذا لشىء تفخر له الكتيبة ، بدل أن تجلس مكتئبة ، ستقولون ليس عندكم كفاية من الرجال . وأنكم متعبون أنا أعلم كل هذا . ويعلمه قائد الفرقة وربما قائد الجبهة أيضا ، هل تفهمون ؟

ورفع رأسه ونظر إليهم للمرة الأولى ، وقد أصبح أكثر انفعالا وزاد وجهه شدة وصرامة .

وانفجر أخيرا : « إنه لما يخجلنى أن أرى ضباطا مثلكم فعلى الأقل يجب أن تخلعوا لباس الفرسان عنكم . » وكان يبحث عن سبب لغضبه وللأسف الذى يشعر به رفاقه المنهمكين وقد تحتم عليه أن يحفزهم ويشدهم للقتال المنتظر . وكان مما يضايقه عدم علمهم بأنها كانت آخر عملية لهم هناك فى ذلك الخريف المزعج . ولا يظن أن من حقه أن يخبرهم وعندما خلعوا بصمت لباس أقدامهم كنتيجة للإهانة المهينة، هدأ مباشرة وكان على وشك أن يخبرهم بالحقيقة من باب الشفقة . ولكنه أومأ بإيماءة متخاذلة وتنهد بملل ثم صاح فى ما يبورودا ، أيها المرافق ، احضر لحم الضأن والفودكا »

(٤)

وكان ريميزوف هو الوحيد الذى رفض أن يشارك فى الوجبة فلم يكن يشرب الفودكا أبدا وكان يأكل قليلا جدا ، معطياً نصف جرايته

لبوجوزيان ، الذى كان رفيعاً كعود الخيزران وجوعان دائماً ، رغم أنه يأكل أكثر من الآخرين . ولم تشف الحرب نفسها من كره ريميزوف للفودكا ، مع أن الحرب قد غرست فيه مميزات لم يكن هو نفسه يعرفها ، وكانت تدهشه تماما أحيانا ، كالاحتمال الجثمانى والنشاط الذى لايكل هذه الصفات التى لم يكن هو نفسه ليتصور أنه يملكها مع مرضه وانحراف صحته الدائم .

وكان أكيموف يتعجب بصراحة من قوة احتمال ريميزوف ، وكان أحياناً يعتقد أنه يصمد طوال فترة المعركة ، ويهبط فجـــأة فى اليوم والساعة التى تنتهى فيها المعركة مثل حزمة من القمح ، وتبقى عيناه الواسعتان العميقتان القصيرتا النظر محملقتان الى أعلى نحو السماء ، كما هى مثبتة الآن على نقطة ما فى الفضاء وكأنه يفكر أو لمجرد الاسترخاء .

وفجأة وقف ريميزوف وقال بصوته المنخفض العادى : « حسناً يافتيان ، استمروا فى طعامكم ، وسأذهب أنا ، يجب أن أدعو لاجتماعات فى السرايا وأعد الرجال للمعركة . وغدا هو الرابع والعشرون من سبتمبر وهو يعنى مضى ١٥٤ عاما بالضبط منذ معركة ريمنيك التى قضى فيها إسكندر فاسيليفتش سوفوروف على الجيش التركى . فلنحاول أن نعطى الألمـــان ضربة مثلها ، حتى ولو كانت فى ربع قوتها . وأرجو ألا أكون قد أسأت إليك ياإفل لأننى لم أعتبر لك إلا ربع مقدرة سوفوروف .

وقد قال أكيموف متفكها بالكتاب : « حتى هذا كثير ، ولكن لم يكن عنده مساعد سياسى كالذى عندى » وقال ريميزوف : « حسناً يا أصدقائى » وذكرت لهجته الجميع بأنه كان مدرساً .

وعندما انصرف صاح خلفه أكيموف : « تأكد من أن الرجال سيتناولون عشاءهم فى ميعاده وأنهم سيذهبون إلى فراشهم مبكرين اليوم » .

وقبيل الفراغ من الطعام بقليل وصل ضابط من قيادة الفرقة بأوامر كتابية مفصلة عن الحالة الاستطلاعية وتبعه فيرسوف المهندس فى الفرقة وجوزاروف قائد المدفعية والكابتن رورورزد ضابط الاستطلاع . وبعد ذلك بقليل عاد كولونيل الفرقة العجوز .

ولم يكن أحد سوى أكيموف يعرف من هو الكولونيل . وقد نظر الجميع إلى وصوله نظرتهم إلى شىء عادى ظانين أنه رئيس جديد من الفرقة أو من القيادة العامة . ولكن أكيموف اضطرب ونظر باهتمام للكولونيل كأنما يحاول أن يقرأ فى عينيه هل يتذكر إتفاقهم وأومأ الكولونيل واغتصب أكيموف إبتسامة ليخفى غضبه واضطرابه ، عندما تساءل : « حسنا ، كيف وجدت الحالة هنا فى مؤخرة المكان ، أيها الرفيق الكولونيل ؟ »

وسأل الكولونيل بلهجة غامضة : « هل تشير إلى مركز قيادة الكتيبة ؟ » .

بالضبط .

« لا بأس بها »

واستمر أكيموف يتظاهر أنه لم يلاحظ توبيخ الكولنيل في التعبير المائع الذي استعمله « إن هذا كله من عمل مرافقي ، إنه فتى عظيم في عمله ، لقد جعل المكان مريحا »

وأعلن الكابتن دروزود أن رجال الإستطلاع قد أحضروا معهم مترجمة ، وقد أمرها قائد الآلاي أن تقيم مع أكيموف ليمكنه أن يستجوب الاسرى بمجرد وصولهم .

وقد اكتأب أكيموف ، فلم يكن يقر فكرة وجود فتاة في الخندق لأنه يعرف تماما عادته في استعمال ألفاظ خارجة أثناء المعركة .

وواصل دروزد حديثه : « لقد أمر قائد الآلاي بأنها يجب ألا يسمح لها بالخروج من هنا ، وإلا فهي تحب دائما أن تذهب إلى الأمام مع جماعة الاستطلاع » .

وأجاب أكيموف في شيء من الفظاظة : « فلتذهب إذا كانت تريد . إن علي أعمالا أخرى غير مراقبة فتاة »

وكان أكيموف قد سمع كثيرا من قبل عن المترجمة الجديدة ..

ففى الأيام العشرة التى عملت فيها مع الآلاى نجحت فى أن تخلق لها اسما . وقد جعلت جنود الاستطلاع الذين يصعب التأثير عليهم ، يتكلمون عن شجاعتها . ففى خلال الأيام القليلة الماضية ، مثلا ، كان يدور الحديث عن كيف أنها زحفت إلى الأرض الحرام أمام موضع الكتيبة الثانية ، وجرت واختبأت فى الغابات ثلاث ليال لتستمع لما يدور فى خطوط الألمان . وقيل أنها قد تمكنت من أن تخرج ، مما قاله الجنود الألمان ومن الأصوات المختلفة التى سمعتها ، أن كتيبة جديدة قد أحضرت فى مواقع دفاعية فى جناح الآلاى الأيسر .

ولنقول الصراحة ، فإن اكيموف قد نفر منها مباشرة حتى قبل أن يراها . فقد كان هو فريدا فى شجاعته وبارعا فى خداع العدو وقد كان يغار أن يسمع قصصا عن شجاعة أى شخص آخر . وكانت كرامته تجعله حساسا حتى أن حديثاً كهذا كان يعتبره لوما له على عدم تمكنه من أن يفعل نفس الشىء . وكان مما يجرحه أكثر أن الكلام هذه المرة كان عن فتاة .

وعلى كل فلم يكن لديه الوقت الذى يضيعه معها الآن . وكل دقيقة كانت تزيد التوتر ، ولم يبق باب الخندق مغلقا لدقيقة واحدة ، وكانت السجادة التى تغطيه تنفرج بلا انقطاع كلما دخل أو خرج ممثل جديد فى دراما الغد . وكان اكيموف مشغولا يعطى كل أنواع الأوامر ، يحدد الأهداف للمدفعيين ، ويخبر المهندسين بمواقع مناطق الغامنا

ومناطق ألغام العدو . ومتاريس الأسلاك الشائكة ، ويضع الخطط مع ضباطه لكل الطوارىء التى يمكن تصورها ، بحيث كان ينسى أحيانا ماذا كان سيعقب المعركة ، ألا وهو انسحابهم إلى المؤخرة . وكان يصمت برهة عند ما يتذكر ، ويسرع الدم فى أوردته ، ويلتفت للكولونيل التفاتة جانبية طويلة كان يبدو فيها بعض الشك الخرافى عن مجرد وجوده أصلا هناك . وبغض النظر عن كرهه له ، فإن وجوده كان يعنى بغير شك أنهم سيسرحون فى اليوم التالى . ولكن تصور أنه استدار فلم يجد أى كولونيل ؟! .

ولنفرض أنها مجرد أوهامه ، أو أحلام عقله المحموم ؟ ولكن الكولونيل كان جالسا حقيقة هناك ، كولونيل حقيقى بلحمه ودمه ومليء بحماس مرير للتنظيم .

ومن خلال طنين المناقشات الخافتة ، وصفير الريح الذى يرتفع ويتضاءل وصرير قفل وفتح الباب ، سمع فجأة صوتا فى الخندق مثل أزيز البخار ، ثم ظهرت نغمة عالية محبوبة: لقد أدار مايبورودا الحاكى .

وسأل الكولونيل بدهشة « ما معنى هذا ؟ أوقفه . ليس هذا وقت مثل هذه الأشياء » .

وقد جعل الكلام اكيموف ، الذى كان يعين لضباط المدفعية أهدافهم فى المعركة ، قلبه ثابتا على الخريطة التى كان يشرح عليها بعض الأشياء ، ونظر إلى الكولونيل فى عينيه مباشرة ورد الإهانة بهدوء .

« لقد أمرته بذلك ، اتركه . لقد تعود الألمان على ذلك وإذا لم تعزف موسيقى هذا المساء ربما شكوا فى الأمر . إنها ضرورة حربية ، يا رفيق كولونيل » .

وفكر الكولونيل بنظرة احترام لرأس اكيموف التى كانت محنية فى ذلك الوقت على المنضدة : « فلنحاول أن نجد هفوة لهذا الشيطان » . ولم يتمالك الكولونيل إلا أن يلاحظ ، أثناء مراقبته إعداد العملية ، موقف القائد الصغير الطبيعى الهادىء يسوس الناس بثقته التى تنبع من تعوده على السلطة وعدم المبالاة .

واستأذن اكيموف موجها قلمه إلى بقعة على الخريطة : « إن بطارية الألمان الميكانيكية موجودة هنا . اسحقوها لى وسأكون فى قمة العالم » .

ورن التليفون ورفع العامل السماعة ثم أعطاها مباشرة لاكيموف وهو يقول : « قائد الآلاى » وتكلم اكيموف مع جولوفين أو بالأحرى استمع لما كان الماجور يريد أن يخبره به متمتما أحيانا « هذا واضح » ، « نعم » ، « حسن جدا » . « مضبوط » . وفى النهاية احمر وجهه فجأة وقال متعجبا : « أى إزعاج هذا يا رفيق ماجور هذه المترجمة من جديد خذ الفتاة عنى ، لوجه الله ، نعم حسنا ، حسناً جدا » .

ولفظ بعض الشتائم وهو يضع السماعة واستدار للكابتن دوروزد بإيماءة ضيق . وقال :

« كلهم قلقون على مترجمتك » ثم طرأت له فكرة جارحة وأضاف :
« ربما كان هناك رئيس أعلى مهتم بها . لماذا لم يبقها معه إذن » .

وكانت إجابة دروزود المتحفظة : « لا يمكننى أن أعرف . ولا علاقة لى بذلك » .

ودخل صف ضابط صغير ضخم الجثة وأعلن أن إمدادات الذخيرة قد وصلت . وكانت المياه تتساقط عن معطفه وجاء كثيرون غيره بكل أنواع التقارير والاستفسارات .

وفكر الكولونيل العجوز : « كل شيء على مايرام » ونهض قائلا : يجب أن أذهب . سألقى نظرة على الجبهة الأمامية .

وسأل أكيموف وهو ينهض أيضا : « هل تريد أن أذهب معك »؟
« إستمر فى عملك . أرسل معى شخصا آخر » .

وقد فهم الملازم أوريشكين ، وهو ضابط ذو وجه سليم وردى ، وقوام أهيف ، إيماءة أكيموف والتقط بندقيته التـــوى وتبع الكولونيل .

وقد عصفت بهم مباشرة فى السهل ريح قوية كأنها طربت لحصولها على ضحايا جدد ولطمت وجوههم بمطر بارد » .

وقال الكولونيل : « سنبدأ من اليمين » .

وساروا فى الوادى ، الذى كان يحس فيه بحركة دائمة على الرغم من الظلام الدامس وكانت أشباح سوداء تنسل فى مختلف الاتجاهات . وعربات النقل تصل عندما تهتز على الأرض المرصعة بالمحار . وتبرق هنا وهناك أضواء السجاير الحمراء فى عناقيد كالنجوم والوادى يلتف آنا إلى اليسار وآنا إلى اليمين ويضعف ويتضـــاعف هيجان الريح تبعا لذلك .

وبعد أن ترك الكولونيل والملازم الوادى سارا فى خندق ضحل يربط بين منطقتين . وكانت أضواء الألمان ترتفع إلى السماء وتنحدر إلى الأرض ، ملقية ضوءا أخضرا خافتا على الظلام المحير ، والممرات التى غمرها الماء ، والدروب والخنادق التى تملأ المكان ، والجدول الذى يشبه شريط الصلب بنجيله الكثيف المحطم من البرد . ولا زالت أنغام الموسيقى الحزينة تسمع من خندق قائد الكتيبة .

تساءل الكولونيل . « هل عملت طويلا مع أكيموف ؟ » .

وجاء الجواب السريع من الملازم الصغير الواقف أمامه : « ستة شهور : وقد كنت قبلا قائد فصيلة ثم نقلنى أكيموف لمركز قيادة الكتيبة » .

« هل هو قائد ماهر » ؟

وكانت الإجابة المتحمسة : « إنه بالتأكيد كذلك . أحسن من فى الفرقة . وبالمناسبة فهو بحار »

وطنت رصاصات فوق رؤوسهم مقتفية أثرهما .

وقال الملازم : « هذا مكان خطر . لم يكمل الخندق بعد . وعلينا أن نتقدم حوالى خمسين ياردة على أرض مكشوفة .

وتمتم الكولونيل : « إن التقرير المقدم يشير إلى خندق متصل » .

وزحفا على أيديهما وأرجلهما تقريبا، الجزء الخطر ثم قفزا فى الخندق مرسلين خلفهم نافورة من الماء . وهنا رأيا بعض الجنود فقد كان يقف إثنان من المدفعيين بجوار مدفع مغطى للتمويه . وعلى مسافة منهم مجموعة كبيرة من الجنود ينبعث من بينهم صوت رقيق صديق .

« وهذا هو موقفكم يافتيان . وهذا هو ما يقوله لنا التاريخ عن الحرب العادلة وغير العادلة . وهذا هو موقف حزبنا من الحرب عموما ومن الحرب الوطنية العظمى الحالية على الخصوص . نعم ، إنها لمهمة صعبة . لقد تركنا عائلاتنا خلفنا ، والعمل الذى وهبنا له حياتنا . إننا شعب مسالم ولكننا قساة فى المعركة ونحارب إلى النهاية لأننا نحارب من أجل حرية واستقلال أرض آبائنا ، وفى النهاية إننا نحاربه من أجل مستقبل الإنسانية ، وسعادة الشعوب المستعبدة فى بولندا وتشيكوسلوفاكيا وبلغاريا والدانيمرك والنرويج » .

وكانت هذه الكلمات التى ألقيت فى الظلام هذه الليلة المطرة ، عادية تماما فى حد ذاتها وكان يمكن أن تسمع من فم أى مشتغل

بالسياسة فى الجيش . ولكن النغمة التى ألقيت بها والوضوح الهادىء الذى كان يتدفق مع هذا الصوت المنخفض ، كان ينفذ إلى أعماق الروح .

واختفى الصوت تدريجيا مع المسافة .

وسأل الكولونيل : « من هذا » .

وأجاب الملازم : « أنه الكابتن ريميزوف مساعدنا السياسى · وهو أحسن من فى الآلاى . وبالمناسبة فهو مدرس »

وقال الكابتن بابتسامة فى الظلام : « كل زملائك هم الأحسن » وكان يود أن يقول للملازم الصغير شيئا مشجعاً ، يقول له أن كتيبته وكتائب أخرى ستترك هذا القطاع المتعب المبلل بالمطر إلى الوراء كثيرا . ولكنه تذكر وعده لأكيموف فلم يقل شيئا .

@@@@@@@@@@@@@

الفصل الثانى

انيشكا بيلوزيوروفا

(١)

وعندما خرج الكولونيل تحادث أكيموف مع رجال أسرته .
واقترح أن يكون أول عمل يقومون به فى الصباح هو إقامة شبكة لاسلكية فربما قطع الألمان الاتصال التليفونى . ثم جاء ملاحظو المدفعية وأرسلهم للسرايا ليتمكنوا من ضبط أسلحة بطارياتها فى الجبهة الأمامية .

وكان الشاى يغلى على الموقد الحديدى . وقد أراح بعض الضباط أنفسهم بقدر الأمكان على القش وأخذهم النعاس . ووضع ما يبورودا أسطوانة جديدة . ودق التليفون أحيانا . وكان أكيموف يناقش مهندس الآلاى أين تشق الطريق وسط حقول الألغام . وفجأة سمع من الخارج الجلجلة العالية الفضية لضحكة فتاه . ونظر الجميع إلى أعلى وجاءت جلجلة أخرى ، ولكنها قريبة هذه المرة وفتح الباب ، ورفعت السجادة ، وظهرت فتاة تضحك على العتبة .

وصاحت متعجبة : « أوه ، ان هذا لمضحك تماما ، ومسحت المطر من على وجهها الضاحك بكم معطفها ، ووقفت صامته للحظة متفرسة بلا خجل فى الرجال الموجودين فى الخندق ثم قالت : « لم أكن أتوقع موسيقى كهذه هنا » وذهبت إلى الحاكى وفجأة ظهرت عليها أمارات الجد وسمات التفكير ، وعندما انتهت الأسطوانة تمتمت : « رقصة أنيترا لجريج » إذن فهنا المتحمسون للموسيقى الكلاسيكية » .

وهنا فقط قالت كلمة تحية .

« كيف حالكم ؟ : من القائد هنا ؟ »

وأجاب أكيموف . إنه أنا » مديرا رأسه الضخم نحوها ببرود مصطنع .

وقد أحست الفتاة بلهجة عدائية فى إجابته لأن عينيها أبرقتا ، ولكنها قدمت نفسها بالطريقة العادية : « الملازمة بيلوزيوروفا مترجمة بالجيش » .

واستدار أكيموف للمهندس دون أن يرد عليها . وذهبت الفتاة إلى دروزود وقالت :

« لقد حضر رجال الاستطلاع » ثم جلست القرفصاء بجوار النار .

وزال الارتباك البسيط الذى صاحب دخولها . واستمر أكيموف

يرتب مع المهندس أى الأمكنة يجب أن تنظف من الألغام ، وذلك بصوت أعلى قليلا عن ذى قبل . ولم ينهض الضباط الذين كانوا قبلا نصف نائمين على العشب ، ولكن يبدو أن النوم قد فارقهم . وعندما أدفات الفتاة يديها . قالت بصوت منخفض فى أذن ما يبوروودا : « ضع هذه الاسطوانة ثانية ، هل يمكنك ، إنها قطعة جيده » .

وأوما ما يبوروودا وعالج صندوقه الموسيقى . وملأت النغمة اللطيفة للموسيقى النرويجى الشهير الخندق بسحرها .

وكان الكل يرقبون الفتاة رغم أنهم مشغولون بواجباتهم كما يبدو عليهم جميعا . وقد كانت الاستطالة الدقيقة لوجهها الصغير ، وعينيها البنيتين الكبيرتين تحت ظل رموشها الطويلة الفاتنه التى لولاها لظهرت عيناها عديمتى الحياء فى نضارة الشباب الذى لايدرك كنهه ويظهر فيهما الحب للحياة ، وذقنها البارز كان يضيف شيئا من الجرأة لوجهها الشامخ ، وحذاؤها الطويل الدقيق إذا قورن بأحذية الآخرين فى الخندق — ويظهر أن كل شىء فيها كان يأسر الرجال ، على الأقل بسبب حرمانهم من رؤية امرأة منذ وقت طويل .

أما الكابتن اكيموف ، فكان عدم اهتمامه مجرد تظاهر . نسى الحقيقة مباشرة أنه منذ دقائق قليلة قد اشتكى من عدم سماعه شيئا سوى المترجمة هنا وهناك من كل شخص بل وقد عجب كيف لم يسمع

عنها المزيد . وقد تصدع شيء بداخله عند ما رأى الفتاة ويظهر أنه قد شعر مباشرة بأنها مهما كانت ومهما كان إسم هـذه الفتاه التى اندفعت مقهقهة من خلال الفضاء الخريفى المترامى المظلم ، فهى الفتاة التى طالما حلم بهـا . وقد ظهر له الآن العالم كله . بمـا فيه الخندق والأخاديد التى لا تحصى والقوى المحطمة ، والسهول المبللة التى حرثتها معازل سلاح المهندسين ، فى ضوء جديد ، وبألوان جديدة فى صورة غير معروفة تماماً كما فى القصص الخرافية . وربمـا قد غير هو حالة عقله الأولى وطبيعتة أيضاً . إلى بديل غير معروف حتى ذلك الوقت ملىء بالنور ، كمتسلق الجبال الذى تسلق إلى أعلى قمة ودخل فى جو مخلخل أسهل من الأول ولـكنه رغم ذلك أضعف فى التنفس .

وقد أثر فيه الانقلاب الذى تم فى دقيقة واحدة — وهو الرجل الذى لم يعد بعد فى الثامنة عشرة بل يبلغ حوالى الثلاثين وله معلوماته فى الحيـاة وخبرته مع النساء — ولم يشعر قط أن موقفه غير مناسب ويدل على الغباء ، بل مملوء أيضا بخطر مميت . لقـد كان معتاداً على السيطرة على تعبيرات وجهه ومشاعر قلبه . وقد قرر أن يكبح نفسه بلا رحمة فلقد شعر الآن أنه ربما وقع تحت تأثير قوة خارجة عنه ، تفشل أمامها قوته . وكان أول شيء عليه أن يقوم به هو أن يقوى نفسه ، مهما كان الثمن .

وبعد أن عقد النية ، رجع إلى فرضه الأول فى أن الفتاة ربما كان

لهـا حام من الجهات العليا ، أو ببساطة عاشق ذو رتبة ونفوذ كاف بحيث يجبر حتى قائد الآلاى أن يعتنى بها . وقد فـكر ، «من ياترى يكون هذا الرجل ؟» ، محاولا أن يستجلب الاحتقار له ، ولـكنه وجد نفسه لا يزدرى الرجل بل ولا يرغب فى معرفة إسمه .

وانتهى بأنها جذابة وساحرة فقط لأنها كانت وحيدة بين هذه الـكثرة من الرجال وأن جاذبيتها لم تـكن غير جاذبية المرأة عادة ، الإغراء الغريزى لجسم المرأة . وفـكر فى أنه إذا كان قد قابلها فى أوديسا أو سيفاستوبول ، فقد كان من الممكن ألا يعيد النظر إليها ، لأنها فى هـذه الحالة ما كانت لتـكون وحدها ، بل مجرد واحدة بين كثيرات ، وقد لا تـكون أحسن من غيرها ، بل وربما أقل حسنا .

وفضلا عن ذلك ، فقد انحنت على ما يبورودا وهمست فى أذنه . فهى متعودة غالبا على مجتمع الرجال وأنهـا على اسـتعداد أن تجامل أى شخص .

ثم ، عند ما دخلت قالت : « ان هذا لمضحك تماماً » ولم تـكن هذه الملاحظة على أية حال دليلا على التهذيب ، بل على العكس ، ذكرتنا بنساء الهوى فى الموانى . ومن الغريب جدا أن ذلك قد أدهشه تماما ، أو ربما على العكس كان مريحا له تماماً ، لأنه ، رغم كونه رجلا من الشعب ، فقد قرأ الـكثير من الـكتب ودرس وتعلم كثيراً وكان يبدو له أن التأخر الثقافى فى الشباب

فى ظل الحكم السوفيتى الذى كان يشجع الدراسة بسخاء ، دليل على الفوضى والبلادة والتفاهة المتناهية .

وفوق ذلك ، فقد كانت فى مظهرها العام ليست بالفتاة الماهرة . ما الذى كان يضحكها ؟ لماذا تثير فيها الموسيقى مثل هذا التأثير الغريب المبتذل ؟

وقد ألقى أكيموف بهذه الحواجز وغيرها حول قلبه .

وفى نفس الوقت كانت الحياة تسير بكل توتراتها وتعقيداتها . وكانت ساعة المعركة تقترب بلا رجعة . ولا زالت أسئلة عديدة تبرز . وكان اكيموف يلاحظ نفسه وينصت إلى صوته كالغريب بينما كان يصدر الأوامر ويطلب الاستشارات بهدوء كعادته دائماً ، وقد وجد نفسه يفكر فى مسألة هامة لفترة ثم وصل إلى قرار واضح كالمعتاد وبعد أن أبلغه للآخرين بنفس الهدوء التام ، لاحظ نفسه ينهض ويذهب إلى التليفون ويتكلم إلى قائد الآلاى ، ومساعده ، أو قائد مدفعية الفرقة، فى كل أنواع التفصيلات الهامة الحيوية .

وقد قام اكيموف بكل شيء ، كعادته تماماً ، ومع ذلك كان يراقب كل ما كان يدور حول الفتاة . وقد لاحظ أن ضباط المدفعية الذين أكملوا معهم الترتيبات لازالوا هناك يتحادثون معها ، وكانت وجوههم يعلوها ذلك التعبير الغريب الذى يظهر على الرجال دائماً فى حضرة إمرأة

جميلة ، وهذا الكابتن دورزود الذى كان دائما صاخبا ولا يستحى . قد بدأ خجولا تماماً عند ما كان بجوار المترجمة . وحتى المهندس فيرسوف الذى كان يتقدم فى السن كان يحدثها بكلام عذب ، وما يبوروودا الذى كان يشتهر بالبخل كان يستضيفها على لحم ضأن مشوى .

والشيء الذى ضايق أكيموف أكثر من أى شيء آخر هو سلوك الكابتن ريميزوف الذى عاد من السرايا . والذى يحمل وحده صورة لزوجته ، ماريا اليكسيفنا ، فى جيب صديره الأيسر مع كارت عضويته فى الحزب ؛ والذى يسميه الضباط اختصارا « المتعبد » ، كان يجب أن يتحفظ فى سلوكه ولكنه مع ذلك قد سحرته المترجمة الجديدة ولم يحاول إخفاء هذه الحقيقة . وقد راقب اكيموف ريميزوف من خلال ركن عينه وهو يضحك بغباء مطلعا الفتاة على صـــورة زوجته ثم أعطاها ثلاث قطع من السكر بينما كانت ترشف شايها الساخن الخفيف ، وهو يضحك طوال الوقت . وكانت النتيجة أنه لم يبق لريميزوف أى قدر من السكر وقد أثار هذا اكيموف جدا .

وأخيرا جاشت نفسه من الثرثرة حول « السيدة الصغيرة » فنهض وصاح تقريبا : « كفى . هبوا لوحداتكم » .

ونهض ضباط المدفعيـة وانصرفوا على مضض . وتردد رجال الإشارة فى البداية وتكلموا مع اكيموف بضع دقائق أخرى عن الاتصال ثم انصرفوا كذلك .

وقال أكيموف للباقين بينما كان يرتدى سترته المحشوة : « يمكن لكل منكم أن يختار المكان الذى يريحه » ثم قال لما يوروودا : « إنى ذاهب إلى السرايا » .

وفى تلك اللحظة بدأ الألمان ضربا روتينيا بالقنابل لم يستمر طويلا وانتهى فجأة ، كما ابتدأ على الرغم من أن هذا النوع من الضرب كان شيئا مألوفا ومعتادا إلا أن أكيموف خشى إصابة الخندق .

ولم يكد الضرب بالقنابل يتوقف حتى اندفع الباب مفتوحا ودخل الكولونيل وأورشكين أو بالأحرى كبوا .

وقال الكولونيل : « لقد اخطأتنا قنبلة هاون بمسافة قليلة » وكان يبدو عليه الانفعال وبدأ أصغر سنا وقد ذهبت أناقته الأولى : وكان مغطى بالوحل والتراب من قمة رأسه إلى أخمص قدميه .

وعندما نظر إلى أعلى رأى الفتاة ، وصاح متعجبا : « انيشكا كيف وصلت إلى هنا ؟» وتأملته الفتاة وقد أشرقت بالسعادة ، وألقت ذراعيها حول عنقه وصاحت : « سيمون فوميش !! ياعزيزى !! ماذا تعمل هنا »؟

وتمتم الكولونيل وقد خجل كثيرا عندما نظر جانبا نحو الضابط : « سأخبرك فيما بعد ، أصبرى قليلا . هل تعملين فى الجبهة ؟ هنا ؟ وأين أبوك ؟ » .

ودوت هذه الكلمة «أبوك» فى الخندق قبل المعركة، من الكولونيل المتجهم العابس الوجه ، جعله يبدو مغاليا فى عاطفته . وقد جعل كل هؤلاء الرجال الذين تربطهم الخدمة والواجب المشترك ينظرون إلى بعضهم البعض فى ضوء جديد . كآدميين لهم آباء وأمهات وجدات وأقارب آخرون فى أماكن بعيدة جدا .

وعندما خرج اكيموف ، نظر إلى الكولونيل بعطف للمرة الأولى وفكر أنه ربما كان مخطئا فى رأيه عنه — وأن الرجل العجوز كان متواضعا رقيق القلب . وكون الفتاة لها أب ـ وهذا شىء طبيعى تماما ـ بعث فى نفسه فجأة السرور والاهتمام ، وكأنه قد طهرها من الظنون التى ألصقها بها ظنه من قبل ، وبدل أن يغتاظ اكيموف من هذه الظروف وجد نفسه مضطرا أن يشعر بالارتياح نحوها .

(٢)

وكان سبب ضحك انيشكا بيلوزيورفا عندما دخلت إلى الخندق هو أنها عندما سمعت الموسيقى فى الوادى مع رجال الاستطلاع ، أولا من بعد ثم من قرب، ظهر أن النغمة مألوفة لها وذكرتها بأيام ما قبل الحرب فى موسكو ، وبدروسها الموسيقية وكل ما هو مرتبط بزمن السلم . وكلما زاد اقترابها من الموسيقى كلما زاد سرورها . فوقفت واستمعت ولم تملك نفسها من أن تتساءل بصوت مرتفع : « ما هذه الموسيقى ؟ »

وفجأة خرج من الظلام الدامس صوت جندى هادىء وحازم : إنهم يعزفون رقصة انيوتا . فى خندق قائد كتيبتنا » .

وعند ذلك عرفت أنيشكا أنها رقصة انيترا لجريج ، ثم ضحكت من قلبها على الإسم الذى نطقه لها الجندى بلهجة روسية . وفى طريقها إلى الخندق هزتها ضحكات متتابعة كانت تبدو لا محل لها فى هذا الخلاء الحربى المتجهم والهدوء الذى يسبق المعركة .

وقد حرك عواطفها إلى القمة لقاؤها بالكلونيل فيروستوفسكى الصديق القديم لوالدها الذى تزوج بفتاة من أطراف عائلتهم . وقد أثار هذا مع موسيقى جريج ذكرى حية للعالم الذى كان يظهر لها حتى وقت قريب ، حقيراً جداً ومحدودا ومبتذلا تافهاً ، ولكنه الآن لوجودها فى الجبهة ، لا يظهر سيئا على أية حال .

وقد أدت العجالة التى سردتها انيشكا عن الحوادث الأخيرة وبالذات عن خلافها مع والدها إلى تنهدات الضيق من سيمون ولومه لها .

وكان والد انيشكا الكسندر موديستوفتش بيلوزيوروفا ، دكتورا مشهورا ، ليفتنانت جنرال فى السلاح الطبى . ومنذ سنة ١٩٤١ كان رئيس جراحين فى أحد جيوش الجنوب . وقد كانت انيشكا وحدها فى موسكو ، إذ توفيت والدتها منذ زمن طويل .

وكانت طالبة فى السنة الثانية فى قسم اللغة الألمانية فى معهد اللغات الأجنبية وقد حفر كل شخص فى المعهد بما فى ذلك المدرسون والأساتذة الخنادق والأخاديد المعرقلة للمصفحات حول موسكو ، ثم جلوا بعد ذلك إلى للشرق فى أكتوبر ، وقد أرسلت انيشكا إلى مدينة كبيرة على الفولجا . وقد شعرت هناك بالكآبة التامة ، لأنها كانت تظن أنه من العبث أوقل من العار عليها أن تبقى فى المؤسسة . وكانت تعرف الألمانية أحسن من كل من زملائها الطلبة ، بسبب والدتها التى تعلمت الطب فى جامعة زيورخ والتى علمتها فى طفولتها منشئة إياها بشدة وعزيمة الأم الصالحة . ولذا كانت انيشكا تتكلم الألمانية بطلاقة وأدهشت حتى المختصين بطريقة نطقها .

وأصبحت أنيشكا عمليا تكره المؤسسة بشدة . وفى ذلك الوقت ، علمت تمام العلم أنها لم تدخل المدرسة إلا لأنها تعرف الألمانية قبلا ، وسيطر عليها الكسل وعدم النظام بدرجة منعتها من استذكار دروسها بجد . وقد رأت الآن كيف كان أبوها على حق فى معارضته لدخولها المؤسسة التى كان يسميها باحتقار « ملجأ للنساء الناميات قبل الأوان اللائى يبحثن عن أزواج » . وكان يريد لابنته الوحيدة أن تصبح دكتورة ولكنها تمسكت على أى حال بفكرتها ، وأصبح ينقصها الآن التأنيب النفسى .

وعندما بدأت الحرب أحست بكراهية للغة الغزاة وأظهرت لها

المصائب الكبرى التى أصابت بلايين من الشباب بوضوح للمرة الأولى أين يكون واجبها . وقررت أن يكون مكانها حيث تكثر الشدائد ، وجعلت هذه الاعتبارات حياة الطالبات المملة تبدو تافهة، واشمأزت من زميلاتها اللاتى لازلن - ولو بصورة أقل من الماضى - يعنين بالملابس وبالشباب من الرجال ويطربن لأشعار رينر ماريا بيلك وأنا أخماتوفا . وكانت رغبتها الحادة فى أن تقوم بدورها من أجل الهدف المشترك تجعلها طبيعيا تبالغ فى نقائصها ونقائص الآخرين ، وهو أمر متوقع فى مثل هذه الحالة ، وقد أنتج ثماره .

وكانت تقشعر لمنظر جماعات المهاجرين الحائرين الذين طردهم الألمان من مدن وقرى بلادهم وكانت أنيشكا تغتاظ من عجزها عن مساعدة الجنود الجرحى التى تحضرهم القطارات الطبية للمدينة الهادئة وهى تراهم يتألمون .

وذهبت للمدير وطلبت إجازة لمدة سنة دون أن تخفى رغبتها فى الذهاب إلى موسكو ومنها إلى الجبهة وكان غرضها هو الذهاب خلف خطوط الألمان كبعض الفتيات التى قرأت عنهن فى الصحف وأن تقوم بأعمال التخريب وإرسال المعلومات عن العدو باللاسلكى أو بوسائل أخرى مناسبة .

ورفض المدير بحزم ، ربما لاعتبارات رسمية تماما أو لأنه كان

لايريد أن يترك فتاة صغيرة عديمة الخبرة ، والإبنة الوحيدة لجراح مشهور ، لتذهب للحرب . وقد اعتبرته أنيشكا مباشرة شخصا غبيا وقاسيا وقررت أن تذهب بغير إذن .

وكان الإنسان الوحيد الذى أخبرته بخطتها هى صديقة لها ، تانيا نوفيكوفا . وقد تحمست تانيا تماما للموضوع وقررت أن تذهب معها وتجولتا فى المدينة يوما بأكمله ووقفتا على الجسر المكشوف للفولجا المحاط بالثلج ، وقالتا كثيرا من الأقوال المحبة والمخلصة ، وأقسمتا بخشوع أن تكونا دائما مخلصتين ومنصفتين .

ولكنهما وجدا أن العودة إلى موسكو ليس أمر سهلا بغير إذن . فالعاصمة كانت لاتزال فى منطقة القتال وتحتاج الرحلة إلى ترتيب ، وكانت تتخللها مصاعب ضخمة وشكليات كثيرة .

وارتعبت تانيا من أن تنزل من القطار مثل المجرمين وتعاد إلى المؤسسة بشكل مخز ولذلك قررت أنيشكا أن تذهب وحدها .

وكانت التذاكر إلى موسكو تباع فقط لمن معهم تصريحات ولذلك استقلت القطار بدون تذكرة وقد وجدت لنفسها مكانا على صندوق كبير للملابس فى عربة امتلأت قبلا بالمسافرين والأمتعة . وقد شعرت بعدم ارتياح كبير فى البداية . وسبب الناس حولها الضوضاء ، وقد كانوا شرسين ولم يفكر أحد منهم فى شىء إلا فى الحصول على مقعد

مريح ، وقد صدمت انيشكا لذلك . ولكن عندما تحرك القطار من المحطة ظهر أن زملاءها فى السفر أناس ظرفاء تماما . وقد كان يستفسر بعضهم الآخر ويتعارفون وقد ظهروا بمظهر الرحمة والود . وخفت الجلبة والعراك . وحاول كل فرد أن يريح نفسه بقدر الإمكان ، وظهرت الروح الرفاقية الطيبة .

وكانت انيشكا خائفة فى البداية من أن يكون هناك فحص للأوراق ، ولكنها طمأنت نفسها بفكرة أن والدها جنرال وأن عندها شهادة بهذا المعنى . ولكن الذى طمأنها أكثر من أى شىء آخر هو ظنها أن إخبارهم بسبب ذهابها إلى موسكو سيجعلهم يمتنعون عن وضع أى عقبات أمامها وبهذا الاعتقاد أكملت رحلتها بهدوء . وقد تجولت عيناها الواسعتان من مسافر لآخر ، وأثار شبابها فيهم شعورا بالارتياح والعطف الذى بدأت تشك فيه منذ قليل .

وقد أمضت اليوم الأول من رحلتها بشعور مبهم ولكنه قوى . شعور بفتنتها وبراءتها ، وهى تحس أنه لا توجد قوة أكبر من الإيمان الداخلى . ولكن شيئا حدث وكان لا بد أن يحدث إن عاجلا أو آجلا فقد فتح باب العربة وصاح الكمسارى : « أظهروا أوراقكم » .

ورفعت عينيها الهادئتين البريئتين للجنود الذين قاموا بفحص الأوراق . ومن الغريب أنهم قد طلبوا رؤية أوراق كل شخص عداها ،

ولم يحدث ذلك لأنهم لم يروها فقد لاحظوها تماما ولكن ربما ظنوا أن فتاة فى مثل سنها لا يمكن تسافر بدون والدها أو والدتها وحتى لقد ابتسم أحدهم لها ، وبينما كان يبتسم غطت وجهه الكبير ذا اللون الداكن مجموعة من التجاعيد العميقة الرحيمة . وقد ردت ابتسامته ، ولكنها اغتاظت بعد ذلك لعملها هذا ، ولأنها كانت تحصى على نفسها كل حركة وسكنة، فقد ظنت أنها لم تقم بذلك إلا لتستميله إلى جانبها ، ولتبعد سؤاله عن أوراقها الذى كان على طرف لسانه .

ولقد اعتبرت تصرفها خاطئا ، وجرت خلف الجنود ، الذين كانوا فى ذلك الوقت يتركون العربة ، وأخبرتهم أنها ليس عندها تصريح بالذهاب إلى موسكو ، ولكنها تريد الذهاب هناك لأمر ضرورى. وقد منعتهم دمدمة العجلات من أن يسمعوا ما قالته ، وأعادت كلامها ، ونظر إليها الرجل ذو الوجه الداكن اللون ، باستغراب ، وعند ما رأى الفتاة بالقبعة ذات الشريط الأحمر والوشاح المشابه ، بدا أنه قد تذكرها وقال بحيرة وبغضب أيضا كما بدا ذلك : « لقد راجعنا العربة وفحصناها قبلا » . ثم اختفوا فى العربة التالية ، وذهبت إنيشكا من جديد إلى مكانها ، وهى مرتبكة ولكنها مسرورة ، ولم تفهم لماذا حدث ذلك . وقد استنتجت ولم يكن ذلك على غير أساس ، أن نظراتها وحدها توحى بالثقة وشعرت بامتنانها للناس . لقد كانت خائفة بسذاجتها أن يشتبه فيها بدون تصريح كجاسوسة ، ولو كان فى إمكانها أن ترى نفسها كما يراها الآخرون لضحكت من مخاوفها .

وكانت أنيشكا تحملق حولها شاردة الفكر منهمكة فى خواطرها وجادة كما يفعل كل شخص على وشك أن يتخذ قرارا هاما . وكان كل ما تراه حولها يبدو لها بعيدا جدا ولكنه مع ذلك يثير فيها شعورا محببا. كانت الأصوات الغليظة للأكورديون ذى المفتاح الواحد والرائحة القوية للماخوركا ، وكذلك الكلمات التافهة لبسطاء الناس فى العربة ، تبدو لها مليئة ببعض المعانى العنيفة .وكان زملاؤها فى السفر، ربما لأنهم أحسوا بالنار الداخلية التى تحرقها ، يعاملونها بلطف ، وقد سرهم أن يتحادثوا معها ويحكوا لها عن حياتهم ، وعملهم ، والضرر الكبير الذى سببته الحرب بشكل مباشر وغير مباشر لكل منهم .

وكان أشد المهتمين بها ملازم طويل نحيف كان يسميه الجميع فى العربة فغيا وقد كان فى الجبهة وجرح . وهو الآن فى طريقه للعودة إلى هناك من المستشفى . وكان يتحلى بميدالية الإقدام ، ولما كانت الجوائز قليلة فى تلك الأيام الأولى من الحرب ، فقد شعرت أنيشكا باحترام كبير لهذا الشاب الطروب كثير الكلام . وكان من الصعب أن يتجاهل الطريقه التى خفت بها إليه ، ونسبها لسبب مختلف تماما ، وبدأ يوجه إليها كلماته اللطيفة ، وتقاسم معها طعامه ، وأحضر لها ماء ساخنا ، وكان مجاملا تماما .

وقد حصل لها على مكان بجواره فى القمرة العليا ، حيث كانت أكثر دفئا وأقل إزعاجا .. وعندما نزل الظلام أحست

بالملازم يقترب منها واضعا ذراعيه حولها ويديه على جسمها . وظلت بلا حركة كالموت . فإذا بالملازم يزداد وقاحة . وانعقد لسان انيشكا . ولم تستطع أن تفهم كيف يمكن أن يتصرف بهذه الطريقة بينما الحرب مشتعلة ، ويقاسي الكثيرون فى كل مكان ، وهناك الكثير من المشاكل التى علينا أن نفكر فيها . ونزلت وجلست فى مكانها الأول ، على صندوق ملابس لشخص ما فى الممشى . وقد استاء الملازم وظل وحده لفترة طويلة صامتا ، ولكنه لم يتمالك نفسه ونزل هو الآخر وحصل لنفسه على مقعد بجوار انيشكا وسألها بغضب لماذا تركت القمرة . ثم بدأ فى الكلام عن وجود الحرب وعن المتاعب فى كل مكان ، وأنه ربما قتل فى خلال أيام قليلة — وهل من الممكن أن يكون لها حقا هذا القلب المتحجر ؟ ولم تجب — وكانت أفكارها بعيدة جدا . ولم تشعر أنها فى قطار بل كأنها وحدها فى صحراء . وفى نفس الوقت كانت ترتفع سحائب الدخان المحمرة قليلا . وكانت هذه السحائب من الدخان ، كما ظنت ، بمثابة الشكوى العامة الذى يحاول بها الملازم أن يحركها .

واستمر فى الكلام بنفس النغمة إلى أن قالت له فى النهاية أنها لا تحبه . وكان ما قالته شيئا مضحكا فى اعتقادها . ولابد أنه قد عرف ذلك من تلقاء نفسه .

وقد تركها هو بدوره فى سلام وصعد إلى قمرته ثانية بينما ظلت انيشكا جالسة فى الممشى . ثم سمعت عدة أصوات تعرض عليها فى وقت

واحد أماكن أحسن ، بل عرض عليها شخص ما أن يتركها تنام فى القمرة الثانية . وقد رفضت كل هذه العروض ثم نزل الملازم وعرض عليها أن ترجع مكانها حيث يمكنها أن تجد الدفء والراحة ، وعندما رفضت انيشكا قال أنه يمكنه أن يبقى حيث هو ، ولذلك فلا داعى لقلقها . وكان الصدق باديا فى قوله وكان يبدو بوضوح أنه يريد أن يقدم ترضية لها . وصعدت إلى القمرة وظل هو جالسا فى أسفل . ووصل القطار إحدى المحطات ونزل ليتمشى قليلا وعندما عاد سألها أن تسمح له بالجلوس بجوارها . وقالت « حسنا » وقد أثر فيها إذعانه وكان فى الحقيقة مخلصا تماما ، وقد أسف بحق على تصرفه الأحمق ، ولكنه ، بعد أن أصبح بجانبها لم يتمكن من أن يسيطر على نفسه وبدأ يضع يده حولها من جديد بحذر أكثر ، كأنها جاءت عفوا . فقالت له بغضب : « أليست عندك إرادة أكثر من ذلك » ورغم أن الكلمات لم تكن مهينة فى حد ذاتها ، إلا أنها كانت واضحة وعميقة فى عنفها بحيث كان لها التأثير المرغوب ، وهدأت حرارة الملازم الصغير أكثر من أى حديث طويل أو معركة صاخبة . وتجهم بشكل يبعث على السخرية ولم يلمسها ثانية . وربتت برقة على كتفه ، لتظهر له شكرها ، ولكنه اعتبره نوعا من التشجيع وبدأ من جديد . وعند ذلك نزلت انيشكا نهائيا ، ورفضت أن تجلس بجواره ثانية .

وذهبت إلى النافذة ونظرت إلى الليل القاتم البارد وأحست بالبرد

من خلال النافذة . وكان هناك طفل يبكى فى مكان ما فى العربة. وفجأة خطر لأنيشكا أن الحياة ربما قست عليها ، وأن الحياة قاسية عموما . وأن الحياة أسهل كثيرا للرجال منها للنساء . وهذا هو السبب فى أن النساء كن غالبا ما يتخفين على هيئة رجال فى الروايات والقصص القديمة ومع أن حادثة السفر التى جربتها أنيشكا الآن كانت تافهة ، إلا أنه قد راعها الشعور بأن عليها أن تمر بمثل هذه التجربة أكثر من مرة مستقبلا .

وانتظرت طلوع الصباح بلهفة وأخيرا أشرقت الشمس . واكتست الاودية المغطاة بالثلوج تألقا بديعا . ومع الأشعة الأولى أصبحت الأشجار مغطاة بصقيع ، وكان الثلج الأبيض يلمع ويبرق بحيث كان لا يمكن للعين أن تتحمل تألقه . وكان ضوء الضحى يجعل الاكواخ الفردية لعمال الإشارة تطير كأنها أكواخ الجن ، وكانت كل الدقائق الصغيرة — الاسوار الحديدية عند التقاطعات ، وكلب أسود ينبح عند ما يمر القطار ، وصغار يلوحون بأيديهم ، وحصان يجر مركبة قصيرة متسعة على الطريق المبلل المصفر — كل هذا كان مغلفا فى جمال وبهجة . وكانت انيشكا وهى تعجب بكل هذا البهاء قد هدأت وارتفعت معنوياتها وأصبحت تشعر الآن بقوة أجد وأقوى . ان الناس الذين يجلسون خلفها فى العربة قد أخذوا من بين أهليهم وانغمسوا فى الهم . ولكنهم كانوا جميعا طيبين رغم ضعفهم ، كانت حربا ترابطت فيها بشكل غريب

خيوط آلاف من الاقدار المختلفة ونسجت فى كرة ضخمة ، ولم تكن انيشكا مجرد إنسان بسيط ، ولكن حياتها كانت جزءا من هذه الحرب ومستقبلها كاللغز فى داخلها .

وزخر قلبها الشاب وامتلأ بحب حاد لكل ما حولها . وكانت فى شوق للوصول إلى الجبهة حيث يمكنها أن تعبر عن هذا الحب بالأعمال .

(٣)

ووصل القطار الى موسكو فى المساء . وعندما وجدت نفسها فى ميدان كومسوليسكايا ، شعرت انيشكا برغبة عارمة فى تقبيل الأرض المتجمدة لموطنها ولم تكن تظن أنها تحب موسكو بهذه القوة ، على العكس كانت تظن أنها لا تهتم بها أبدا ، بل كانت تتضايق من الحذلقة التى يغدقها الشعراء والناثرون على العاصمة ، ولكنها تشعر الآن بضعف وعجز الكلمات عن أن تجسد وتبلور ما تعنيه حقيقة المدينة التى تمتد أميالا حولها .

ويبدو أن كل شيء كان يصل لروحها : كل بناء عادى ، وجرائد الصباح الملصقة على اللوحات ، وإعلانات المسارح ، ولغط الشوارع ، وبهجة الأغانى من بائعة اللبن القادمة من الضواحى. ولكن الشيء الأساسى كان شعورها بالخيوط التى تربط العاصمة مع كل مدينة وقرية وكل جيش فى كل جبهة . وأحست بعيون ملايين الناس موجهة اليها وهى ممتلئة بالثقة والأمل .

وبدا أن قلبها قد توقف عندما دخلت شقتها ، كانت خالية ، وباردة ومهجورة . وكانت الأشياء فى أماكنها ولكن ذهبت عنها روحها . والمنزل جميعه بطبقاته المتعددة كان يذكرنا بترام محطم تركه ركابه وظل وحده فى وسط الطريق باردا عديم الحياة . وكان نصف الجيران قد رحلوا أو ذهبوا إلى الجبهة . ورحب الذين بقوا بانيشكا بفرح وكانوا شغوفين لدعوتها لمساكنهم — لقد عرفوها منذ أن كانت طفلة ، وهم يعرفون أباها ويذكرون أمها . والكثير منهم يذكر حتى المرة الأولى التى خرجت فيها للنزهة فى عربة الأطفال . وقد أفزعهم جميعا أن ليس لديها كوبونات خبز وقد تبرع كل منهم بالقليل ليجمعوا لها نصيبا ضئيلا كانوا يحضرونه لها بلا توقف فى الأيام التالية .

ثم بدأت مشاكل الدخول فى الجيش . وكان يجب تقديم الطلب لقومسيير المدينة العسكرى وإلى لجنة موسكو لعصبة الشباب الشيوعى . وتجولت انيشكا فى موسكو — وقد تعبت من المقابلات وملء الإستمارات ، لقد شرع الجوع يغتال حيويتها اغتيالا بطيئا ، وبدأ رأسها يدور ، ومع ذلك فهى سريعة الخطى سليمة العقل ، ولكنها فى تجوالها لم يكن فى مقدورها أن تملأ عينيها بمناظر الشوارع والميادين وطوابير الجنود ذوى الخوذات الحديدية الذين يمرون عليها أحيانا . والبالونات التى ترقد فى وسط الشوارع المتسعة وهى تتمايل برفق نحو مراسيها فى الريح العاصفة .

ولم تذهب أنيشكا لرؤية أقاربها ، وكانت أحيانا على وشك أن تذهب إلى عمتها ناديا بأمل أن تأكل أكلة مشبعة ، ولكنها لم تذهب لأنها لم تكن مستعدة أن تخبر عمتها عن سبب مجيئها لموسكو وكانت تأبى أيضا أن تكذب عليها . ولكن لم تلبث عمتها أن جاءت بنفسها لترى أنيشكا بعد أن رأى أحدهم الفتاة فى الطريق ولم يتوان عن إخبار عمتها .

وأخذت نادين هدا موديستوفنا ، وهى طويلة ممتلئة الجسم وتشبه كثيرا والد أنيشكا ، وقتا طويلا لتستعيد أنفاسها بعد أن صعدت إلى الدور الثالث لأن المصعد كان معطلا . وبعد أن هدأت أخيرا أمطرت ابنة أخيها بالأسئلة والاستفسارات . وعندما أخبرتها أنيشكا عن سبب مجيئها لموسكو حدقت فيها بارتباك وارتمت فى كرسى ذى مساند ، وفجأة ظهرت فى شكل جدة أو أم جدة لها من سلالة إحدى عائلات رعاة البقر فى موسكو ، ونسيت كل ثقافتها وتهذيبها وصرخت : « ماهذا الهراء الذى فى رأسك ، هل فقدت عقلك ؟ وأنت إبنة الكسندر الوحيدة !! ستكونين سبب وفاته ، ستكونين . »

وبالرغم من أن أنيشكا كانت تحب عمتها ناديا فقد كرهتها حقيقة فى هذه اللحظة — وعندما سمعت أن فاليريك ابن عمتها الكبير ، قد انضم لمتطوعى الحرس الوطنى وفقد ، ألقت بذراعيها حول رقبة عمتها وبكيا معا فترة طويلة . وقد زال كل توتر الأسابيع الماضية فى هذه

الدموع ، كما كانت هذه الدموع بمثابة طلب العفو لكرهها العابر لعمتها .

ولم تلبث نفس ناديزهدا مويستوفينا أن هدأت ظنا منها أنها قد أقنعت أنيشكا بالتخلى عن خطتها . وكان أول طلب لها أن تأتى ابنة أخيها لتعيش معها . وكان زوجها ألبا إيفانوفتش يعمل فى مركز قيادة منطقة موسكو للدفاع الجوى . وكانت لهم جراية طيبة . وكان عليها بالصدفة أن تذهب لتحصل على جرايتهم وأصرت على ان تذهب معها أنيشكا . ولأول مرة منذ شهور رأت الفتاة السجق والسمك المشوى والزبدة . وقد أسال لعابها منظر الطعام — ومع ذلك خجلت من أن تخبر عمتها كيف كانت تتلهف على أكلة طيبة . وقد خطرت لعمتها فكرة مدهشة : يمكن لزوجها أن يعين أنيشكا فى وظيفة مدنية فى قيادة الدفاع الجوى حيث تحصل على جراية طيبة ، وكأنها فى الجبهة ، لأن الدفاع عن موسكو ضد نسور الجو كان أمرا مهما وخطيرا .

وقد ضحكت أنيشكا وهى تسمع شاردة الفكر لثرثرة عمتها ، واختبرت نفسها وكأنها تسألها . أليس من الأفضل أن تدافع عن موسكو وتعيش فى منزل عمتها ناديا ويكون غذاؤها فلتو من سمك التيرجيون ؟ وكان مسكن العمة ناديا كبيرا ، ولكنها أصرت أن تنام معها أنيشكا فى غرفتها لأن زوجها يعمل خارج المدينة وقلما يأتى ليلا إلى المنزل .

وجهزت العمة ناديا حماما . وأنغمست المرأة ذات الخمسة والأربعين

عاما وبنت أخيها الصغيرة فيه بسعاده ناسين كل العالم . وراقبت العمة ناديا الفتاة بتأمل ، وربتت على كتفها وثديها بيدها الممتلئة وقالت معلقة : «لقد أصبحت فتاة جميلة يا أنيشكا . حسنا ، ستلتقين بالحب يوما »

ثم انخرطت فى البكاء على ذكرى ابنها . ولكنها انتقلت فورا برأسها المرن من الحزن إلى الأمل ، وقالت إنه من المرجح أن يكون مع المكافحين . ولا يمكن أن يموت شاب ماهر لطيف مثله ويجيد الانزلاق والرياضة ، بمثل هذه الطريقة ، دون أية نتيجة ، وقد أعادت هذه الأفكار هدوء فكرها . بل بدأت تقول أن ابنها حى بالتأكيد كأن لديها الدليل الذى لا يدحض .

وفى شبه الظلام ارتدت أنيشكا قميص نوم عمتها الواسع البمبى الحريرى المحلى بشريط . ونظرت العمة ناديا إلى ذراعيها ورجليها الجميلتين وعندئذ أصاب العمة دور عاطفى جديد وتدفقت الدموع فى مآقيها وظلت تكرر ، « صورة جميلة ، لم أكن أتصور أنك ستصبحين فى مثل هذا الجمال »

وعندما كانتا فى السرير، سمعتا النواح المقبض لصفارات الإنذار فى كل المدينة ودوى جهــــاز الراديو بالإنذار . وأطفأت أنيشكا النور وأسدلت الستائر القاتمة . وكانت الأنوار الكشافة تبرق فى السماء ، ومن وقت لآخر ينتزع الهدوء من الظلام ، ظل بالون مستتر .

وقالت العمة ناديا ، وهى تحتضن انيشكا إليها « لن أذهب إلى المخبأ، إنه ممل جدا » .

وثرثرت العمة ناديا لنفسها لتنام وظلت انيشكا مستيقظة فترة طويلة تنظر لذقن العمة ناديا البشوش ورقبتها البيضاء ، رغم الرياش الوثير وسعادتها للتخلص أخيرا على الجوع . وجاش داخلها من جديد شعور مفاجىء من البغض لهذه المرأة التى تستطيع أن تنام بينما ابنها مفقود والمدافع المضادة للطائرات تطلق النيران. وأحست أنها مخطئة لأنه مهما حدث لا يمكن أن يظل الإنسان بغير نوم . ولكنها لم تستطع التخلص من هذا الشعور ، فابتعدت أيضا حتى لا تشم الرائحة الطيبة والمنشطة لجسم العمة نادية وصابون الحمام ، والعطر بعد الاستحمام .

وتمتمت العمة فى منامها : « يرحمك الله » واستنتجت انيشكا أنها تكلم ابنها فى أحلامها . ولكن هذا التعبير القديم كذلك ، لم يحرك انيشكا . وترجمته إلى الألمانية كعادتها فى المعهد ، وخطر لها مباشرة أن أمهات الألمان يستعملن نفس الكلمات عندما يصلهن نعى أبنائهن الذين يضربون الآن ضواحى موسكو .

(٤)

وبعد ثلاثة أيام، وفى الصباح، وصل الأستاذ بيلوز يوروفا من الجبهة بالطائرة . ودخل ، وهو طويل ممتلىء ، ذهبت عنه رقته وقد ابيض

رأسه وشاربه ، وكانت تصاحبه رائحة غير عادية من البترول والجلد والدخان . وكان محروقا من الشمس وذابلا من تأثير الجو وتبدو عيناه الكبيرتان الزرقاوان اللتان كانتا مثل عينى العمة ناديا تماما — أكثر زرقة ورقة من ذى قبل .

وصاح برنة من الفخر بصوته المرتفع الضاحك : « عجوز من الخطوط الأمامية يطلب الضيافة » .

وجلب وجوده ، كما هى العادة ، الهدوء والرقة والفهم المتبادل ، ولم يكن ذلك لأنه يوزع الابتسامات والكلمات الرقيقة — فقد كان يتكلم قليلا ونادرا ما يبتسم . وربما فاق تعبير عينيه كل شيء ، لقد كانت له عينان مليئتان بالثقة والحب حتى لتجعلك تثق فيه وتحبه . وكان عطوفا إلى درجة الضعف — عطوفا بحيث لا يمكن لأحد أن ينتهك مثل هذا العطف الشاذ .

وكان الأستاذ بيلوز يورفا جراحا شهيرا وقد فضل مهنته على كل مهنة أخرى فى العالم وقد احتفظ لها حتى فى سن الخامسة والسبعين بمثل مهابتها كما كان فى شبابه . ولم يمنعه عن هذا قلقه على التقدم البطىء الذى تم فى الطب ، ولكنه كان يتوقع فى تفاؤله أن الطب سيصل إلى درجات لم يسبق لها مثيل فى السنوات العشرين القادمة ، كنتيجة لتقدم العلوم الأخرى المرتبطة به ، والتى لها أثر لا ينكره أحد على الطب .

وكان أول شيء قام به الأستاذ عند وصوله عند العمة ناديا هو اغتساله . وبينما كان يجفف يديه بعناية ، كأنه على وشك القيام بعملية جراحية ، ألقى بنظرات خفية إلى انيشكا . ومن حين لآخر كان يقول « حسنا ، يابنيتي ، كيف حالك ؟ » .

ومن المؤكد أن زوج العمة ناديا قد أرسل إليه فى الجبهة يبلغه وصول انيشكا فى موسكو وأهدافها . وعلى كل حال ، لم يذكر الأستاذ فى البداية الموضوع لابنته . وجلس فقط بجوارها ،وبدل أن يسألها ، تكلم معها عن عمله فى الجبهة . وعن العمليات المعقدة والأمصال ونقل الدم .

وكانت انيشكا لنشأتها فى عائلة دكتور قد تعودت على التعبيرات الطبية. وكان مما يبهج الأستاذ أن فى إمكانه أن يتكلم معها كزميل ، مستعملا اللاتينية ومدللا بحالات من تجاربه قبل الحرب .

وقد أعطاها فكرة عن الجبهة ، كذلك ، مبالغا فيها إلى حد ما ، حتى جعل الحياة هناك تبدو قذرة ، كئيبة مملة .

ومع أن الأستاذ بيلوزيورفا كان مغرما بابنته إلى حد الغيرة ، إلا أن موقفه منها — كموقف الكثير من الآباء الأذكياء — كان متسما بالحرج . فكان يظنها هوائية وكسولة وأنيقة فى أذواقها وعاداتها . وكان يعطيها حقها من المديح لميزاتها الطيبة — وذكائها ، ولطفها

الفطرى ، وحماسها الذى يلطفه قدرة نامية على الفكاهة وقوة فى الأخلاق. ولكنه لم يكن يرى فى عزمها سوى إسراف سيدة شابة . وكان تعبير « سيدة شابة » على لسانه إهانة فظيعة ، لقد كان التعبير يعنى : كسولة رقيقة ، متأنقة — وهذا ما كان يسميه بتهكم « علامة الرأسمالية » .

وكان الأستاذ بيلوزيورفا يعتقد فى تربية الأطفال بصلابة وتمرينهم على الحرمان والجهد الجسمانى وكانت هذه هى نظريته على الأقل ، ولكنه فى الواقع كان يجد فى نفسه ضعفا تجاه ابنته وكثيرا ما كان هذا الضعف يضايقه ويثيره . لقد كان يتسامح مع نفسه جزئيا على أساس أن انيشكا قد فقدت أمها فى سن الثالثة عشرة وأن وقته مشغول كلية بعمله .

وكانت عنده بالتأكيد ، فكرة سيئة عن التعليم الذى حصلت عليه انيشكا فى المنزل والمدرسة وفى بيئتها العامة . ويبدو أنه كان يتمسك بالفكرة البدائية تماما ، فى أن التعليم يحتوى أساسا على المبادىء والإرشاد والنصائح . وكان ينسى أن الأشياء المحيطة بالفتاة والأمثلة اليومية على العمل النزيه والتحمس للواجب الذى يظهره كثير من معارفها ، وخاصة والدها ؛ تركت أثرا عميقا فيها . وكان يغفل أنها تنظر للحياة نظرة نقد كما تسمح لها سنها ، وأنها تستبعد وهى شبه واعية كل ما لا يلائم المثل التى عودتها عليها عائلتها ومعارفها. وبالاختصار ، فإن الأستاذ رغم ذكائه ونفاذ بصيرته كان يعرف القليل عن ابنته وعن مسلكها فى الحياة .

وهذا هو سبب دهشته وانزعاجه من فكرتها فى ترك المعهد والذهاب للجبهة ، وكان هذا كما ظن بعيدالاحتمال ولا يلائمها .

وعند ما كان يكلمها عن حياته فى الجبهة ، كان يركز عينيه عليها متوقعاً أن تخبره عن نفسها . ولكنها لم تكلمه ، لقد كبحت جماح عاطفتها وراقبته من تحت أهداب مرتخية ولم يكن عنده أو عندها الشجاعة لبدء مثل هذا الحديث الخطير بعد هذا الفراق الطويل لأن كلاهما كان يعتقد أنه سينتهى حتما بعدم الاتفاق والسخط المتبادل .

وأخيرا قرر الأب أن يفتح الموضوع وسألها كيف أخذت مثل هذه الخطوة الطائشة دون استشارته أولا . وحاولت أن تشرح له سلسلة أفكارها ودوافعها ، وبينما هو ينصت إليها فكر فى أنها لو لم تكن ابنته لقدر قوة وشرعية دوافعها فى هذه الظروف . ولكنها كانت ابنته ، وعندما نظر إلى وجهها الصغير المتورد وفكر فى أنها ربما تقتل — جمد الخوف قلبه . نعم ، إنها الغريزة الأزلية ، ومهما حاول أن يكون موضوعيا ، فلن يمكنه التهرب منها ، ثم حاول أن يغطى الحقيقة باعتبارات أقل أهمية فقال أنه حتى لو كانت تكره المعهد فإن الهروب منه نقض للنظام لا يمكن السماح به فى فترة الحرب . وأخيرا اقترح ببساطة أنه يمكنها أن تدخل مؤسسة طبية ، أو ، إذا كانت شغوفة إلى هذا الحد فلتذهب إلى الجبهة معه .

ولعلمه بضعف حججه ، فقد جد فى البحث عن كلمات بليغة ومقنعة

ليبعد ابنته عن خططها . ولـكن جهوده باءت بالفشل . فقد رفضت أن تذهب معه ، لأنها كانت لاتريد ، أن تظل ابنة أستاذ طوال حياتها ، وفى إمكانها أن تدخل المؤسسة بعد الحرب .

ثم شك فى أنها تريد الذهاب للحرب لسبب آخر ، شخصى تمـاما . فربما قد قابلت ضابطا من الجبهة وغرس الفكرة فى رأسها ، وقد سمع الأستاذ بمثل هذه الحالات .

وعندما قال ذلك بصراحة ، هاجت أنيشكا من الإهانة . ولـكنها كانت تعرف أن شكوكه عارية من الصحة ، فهزت رأسها بأنفة وقالت أنها تعتقد أن المناقشة كلها عديمة الجدوى وحقيرة وأنها تأسف لأن أناسا طيبين يمـكن أن يضمروا مثل هذه الأفـكار الرديئة .

وطار فى اليوم التالى الجنرال بليوزروفا عائدا إلى الجبهة دون أن يقنع ابنته .

ولم تـكن طلبات أنيشكا للجنة عصبة الشباب الشيوعى والقومسيرية الحربية للاندماج فى الجيش ، قد أتت بأية نتيجة ، وكان من الطبيعى أن يحترس الناس منها بسبب هربها من المؤسسة . واستقرت ، على أن تطلب من صديق قديم للعائلة ، وهو لفيتينانت جنرال سيلابيف ، الذى كان فى الهيئة العليا ، تسهيل مهمتها .

ومن حسن الحظ أنه كان يعيش فى مكتبه ، فقد هاجرت عائلته ، ولم يرغب فى الذهاب إلى مسكنه البارد ، الذى كان مشحونا بذكريات تحرك القلب . وإلى جانب ذلك فقد كان لديه عمل كثير يمنعه من المحافظة على عادته القديمة فى الذهاب إلى المنزل والعودة إلى المكتب يوميا .

وكان الجنرال سيلاييف رجلا ممتلئا ذا رقبة قوية وشعر غزير وقد ترك عمله كعامل زراعى منذ أمد بعيد لينتقم للجيش الأحمر ، الذى ظل فيه منذ ذلك الوقت ولم يكن بإمكانه أن يتصور نفسه صاحب عمل آخر ، أو مرتديا ملابس أخرى غير ملابس الجيش . لقد كان جنديا بمعنى الكلمة ، فكان يجمع بين الخضوع التام للسلطة والقدرة على جعل الآخرين يطيعونه بلااستياء ، خشونة ظاهرة قريبة من الفظاظة إلى حد كبير مع فهم عميق لروح الجندى ، ودراية بالتاريخ العسكرى ، وفهم تام واحترام لكرامة جنرال ذى روح ديمقراطية فطرية ومنيمة ، فى معاملته مع الجنود ، وهذا مما أكسبه قلوب مرءوسيه .

وكان مما سر أنيشكا كثيرا أنه لم يحاول حتى أن يتشكك فى سلامة تصرفها فقد فهم وقدر مباشرة كل شىء ، وعلى عكس مخاوف أنيشكا لم ينبس ببنت شفه عن المصاعب التى تنتظرها ولا عن نشأتها الرقيقة ، وكانت إجابته : « حسنا ، فهمت.واضح جدا . نعم ، طبعا ، أين تريدين أن تذهبى ؟ »

وقد أجابت أنها تعرف الألمانية وتعتقد أنه يمكنها بعد التدريب الضرورى أن تعمل خلف خطوط الأعداء ، ونقر بأصابعه على المائدة وقال مكررا « فعلا ، فعلا »

« إننى أتكلم الألمانية مثل أحد أبنائها »

« فعلا ، فعلا »

« ويمكننى أن أقوم بأية مهمة خلف خطوط الأعداء »

واستمر فى النقر بأصابعه وهو يردد : « فعلا ، فعلا »

وأخيرا توقف عن النقر وظل صامتا لفترة طويلة ، وهو يهز رأسه كأنه يفكر بعمق . وكان يبدو أنه يحاول أن يجد أحسن وأسرع طريقة لتحقيق رغبتها ، ولكنه فى الحقيقة كان يفكر كيف يتفادى عمل ذلك ، وكان يفهم تماما لهفتها ، كما كان يقاسمها تماما مشاعرها . ولو كان فى موضعها ، يعرف لغة الأعداء باتقان فى سن العشرين ، لوجد نفس الرغبه عنده مثلها . ولكنه كان يكن المحبة والإجلال للأستاذ بليوزروفا الأمر الذى جعله لايوافق على إرسال ابنته الوحيدة فى مثل هذه المهمة المعقدة الخطيره التى يظن أنها منافية لرغبة والدها .

وقال أخيراً : « هذا ماسنعمله . سنسويها بهذه الطريقة : اذهى لقومسيرية الحرب واجعليهم يدرجونك فى الجيش . ثم تعالى إلى وستعطى قومسيرية الحرب الأمر بإدراجك » .

وصحبها حتى السلالم ، ووقف يرقبها لمدة طويلة من أعلى ، وهو يهز رأسه ، وينتفض بسرور وقد أرسلت أنيشكا بفضل جهود الجنرال سيلا بيف كمترجمة فى قيادة الجبهة الغربية . ووجدت نفسها فى قرية كبيرة وقد شاركت اثنتين من مرسلى إشارات التلغراف إحدى الغرف وهما كلافا وماشا . ولم يكن الشتاء شديد البرودة . ولكنه كان عاصفاً . وكانت الحالة عامة هادئة جدا هناك ، أكثر هدوءاً من مدينة الفولجا البعيدة جدا عن الخطوط والتى فرت منها أنيشكا . وكان الشارع الرئيسى مفصولا عن العالم الخارجى بموانع يقوم عليها حراس بمعاطف من جلد الأغنام . وكان عند الضباط فى القيادة عمل كثير ، ولكنه كان كله يبدو عملا روتينيا مكتبيا ، لانيشكا . فلم يطلقوا طلقة ، وكل ما كانوا يعملونه هو أن يكتبوا ويتصلوا بالتليفون . وكانت هناك تليفونات كثيرة بحيث كان المكان المحيط جميعه عبارة عن شبكة من الأسلاك ، بعضها مثبت فى أعمدة البرق وبعضها ممدود على الأرض .

وفى البداية ، كانت كالفا وماشا قد جعلتا من واجبهما كسكان قدامى ، أن يقوما بكل العمل فى الغرفة ، من تنظيف ، إلى إحضار الماء وحتى غسل مناديل أنيشكا مع مناديلهن ، ولم تكن أنيشكا تلاحظ ذلك فى البداية ، أو بالأحرى وجدت ذلك أمرا طبيعياً ، ولكنها أحست بالأمر يوما فصدمت له وقلبت الآية فورا وأخذت على عاتقها كل

عمل المنزل ، لأن واجباتها جعلتها أقل عملا من الفتاتين الآخريين ، اللتين كان عليهما أن يجلسا الليالى تلو الليالى فى غرفة التلغراف تحت الأرض .

وأحبتها الفتاتان وقالتاعنها أنها لطيفه جدا ولو أنهاغير إجتماعية قليلا .
وكانت فى الحقيقة تبدو غير إجتماعية للمحيطين بها . فكانت متكبرة وباردة مع الرجال تصدهم بتعليقات قاطعة ، وإذا تقرب أحدهم منها كثيرا ، فإنها تعاقبه بالكلام عن محاولاته معهــــا وقد يكون ذلك بطريقة بريئة ، ولكن بصوت عال يتيح لكل شخص سماعه ، حتى فى حضور الضباط الكبار فكانت تضعهم فى موقف محرج يجعلهم يتوارون عن الأنظار وقد أثبتت هذه الطريقة فى الدفاع عن النفس جدواها وفاعليتها ، وقد سموها إعتباريا « أعظم مركز مقاومة ». وكان الجميع وحتى ضحاياها يحبون الطريقة التى تتصرف بها ، رغم أن ذلك قد يبدو غريبا ، وكانوا يحترمونها ويفخرون بها بشكل ما . وكانت تجربتها مع الملازم الأهيف فى القطار قد أفادتها بوضوح .

وقد قالت كالفا كلاما متعجبة عندما سمعت كيف تصرفت أنيشكا مع المعجبين بها فى القيادة « أوه ، أنه لمن المضحك تماما أن هذا هو الدواء يا أنيشكا ، وهو ما يستحقونه تماما ، أنك تتصرفين بحكمه » .

ولكن أنيشكا نفسها لم تكن تعتقد أنهـــا تتصرف بحكمة ، وعلى

العكس كانت تعتقد أنها شريرة ، وهوائية ، وغـــير مستقرة ، كثيرة التأمل ، وبالاختصار ، كانت تفكر كثيرا ولا تعمل شيئا دون أن تزن كل مالها وما عليها وظنت أنه ليس من الأمانة أن يكون الإنسان طيباً بتكلف ونتيجة لتفكير سابق ، ويجب أن يكون الشخص مجبولا على الطيبة ، وعند ذلك فقط يمكن للإنسان أن يكون هادئاً وسعيداً .

وقد اتخذت انيشكا خطوات بمجرد وصــولها تقريبا إلى قيادة الجيش ، لترسل إما إلى مؤخرة العدو ، أو ، إذا لم يكن ذلك فالى منطقة أمامية ، ولكن ذلك لم يكن بالأمر السهل فلقد كانت هناك تدبيرات الجنرال سيلاييف السرية . ولأن القيادة كانت تعرف أيضا ابنة من هي . وإلى جانب ذلك فإن رغبتها فى أن ترسل إلى آلاى أو فرقة فى مكان ما أقرب إلى الجبهة ، كان ينظر إليها الكثيرون على أنها خيالات طفولة ، ولذلك كانت لا تلقى تشجيعا .

ولم يكن الشهر الذى أمضته أنيشكا فى قيــادة الجيش ، خال ، عديم الجدوى بالنسبة لها . فقد تعودت على روح الجيش وطريقته فى الحياة ، وهضمت عددا من الأفكار والعادات التى لا يمكن أن يعيش شخص بدونها فى الجيش . وإلى جانب ذلك ، قامت بدور فى إستجواب أسرى الحرب القليلين (فقد كان هجومنا المضاد فى منطقة موسكو قد انتهى قبــلا ، وكان هناك القليل من الأسرى) ، وقامت بترجمة الخطابات والوثائق الألمانية وبذلك تعلمت أسلوب الوثائق العسكرية

الألمانية والمراسلات بوجه عام وكذلك قامت بدراسة عميقة لتنظيم ونظم وأزياء وأوسمة ونياشين الجيش الألماني . ولم يعد عدد فرق الألمان كلمات بلا معان — ولم يعد العدو فزعا معنوياً ، بل أخذ شكل اللحم والدم ، والأرقام والحقائق .

وأخيراً اتقنت طريقتها الخاصة فى السلوك ،التى كانت تجعل الآخرين يسمونها « غيراجتماعية » ولكنها خلقت حولها جوا لايفسده استلطافات الآخرين الغامضة لها .

ومع ذلك فقدأصرت بصبرعلى هدفها ونجحت فى أن تنتقل بالتدريج بالقرب من الخط الأمامى . فمن القيادة الأمامية انتقلت إلى أحد الجيوش ، ومن الجيش إلى فرقة وأخيرا إلى الآلاى .

وقد حكت انيشكا كل هذه التطورات للكولونيل فيروستوفسكى فى خندق الكابتن أكيموف فى الليلة التى سبقت المعركة . وكانت قصتها طبعاً ، مختصرة ، ولم تتضمن أية إشارة للجزء الأكثر تعقيدا — وهو آلامها الفكرية .

وقد هز الكولونيل رأسه فقط وتنهد .

وقال : « أبوك البائس »

ونظر إلى ساعته وتذكر أنه قد حان وقت ذهابه . ولكنه وجد

من الصعب عليه أن يترك أنيشكا ، وأحس كأنه يرتكب جريمة ما ضد صديقه الجنرال بليوزروفا بترك ابنته هنـــاك ، وحدها دون أى شخص يرعاها .

وقال أخيراً : « يجب أن أذهب يجب أن أكون مع قائد آلالايكم خلال المعركة . تعالى أيضا . ليس عليك أى عمل هنا »

وانحنى نحوها ، ونظر بقلق حوله وأخيراً تذكر أن الآلاى سيسرح اليوم التالى .

ثم ذهب إلى سيارته التى كانت مخبأة فى أخدود ، وركب فيها ، وتوجه إلى قيادة الآلاى . ولكن فكره لم يهدأ حتى فى السيارة . وأدهش السائق بتكراره المتواصل : « حسنا حسنا ، يا انيشكا يا بنيتى »

⊚⊚⊚⊚⊚⊚⊚⊚⊚⊚⊚⊚⊚

الفصل الثالث

المعركة الاستطلاعية

(١)

وصل الماجور جنرال موخين قائد الفرقة إلى مركز قيادة الماجور جولوفين فى نفس الوقت الذى وصل فيه فيرستوفسكى ، وعندما سمع تقرير قائد الآلاى عن التحضـــير للمعركة القادمة ، قال الجنرال : إننى لا أعرف ما يجب عمله مع أكيموف ، لقد تلقيت أمرا اليوم بأن أرسله إلى موسكو لإعادته إلى البحرية » .

وقال جولوفين متعجباً وقد ابتهج لصديقه « أخيرا » . ولكنه أضاف مباشرة : « ومع ذلك فكم هو محزن هذا الأمر . . ياله من ضابط جيد » .

وقد نظر إليه الجنرال نظرة ثاقبة . « ماذا تظن : هل يجب أن نتركه يحارب فى هذه العملية أو نرسله مباشرة ؟ » .

وتردد جولوفين طويلا قبل أن يجيب . فإنه من غير المرغوب فيه ، من أجل نجاح المعركة طبعا ، أن يرجع أكيموف الآن . ومن الناحية الأخرى فإنه لا يوجد شخص يستحيل استبداله ولذلك فهى مهمة شاقة .

ونظر الماجور للجنرال . وكان كلاهما يفكر فى نفس الشيء.

وقال الجنرال ببطء : « ربما كان من الأحسن له أن يستمر فى المعركة ، على كل حال . »

فى نفس اللحظة كان اكيموف يتجه إلى المنطقة الأمامية ، وهو ينظر فى كل خندق ومأوى وينادى على كل طوبجى وحامل بندقية فى الحراسة بصوت منخفض ، وتوقف ليفحص كل مدفع باطلاق طلقـــة سريعة فى الظلام .

وكان معظم الجنود الذين ليسوا فى الحراسة نائمين كما أمر أكيموف. وكان الجو خانقا ومحملا برائحة أربطة السيقان الجافة والتبغ ، والشخير والنفس الثقيل ، وكان يمكن سماع السعال والكلمات التى يحلم بها النائمون.

وكان يتمتم بكلمات أغنية قديمة « ناموا ، يا أصدقائى ناموا ، غدا ستهب العاصفة » وأكمل وهو يدفع الماء بعنف بمقدمة حذائه فى بركة عميقة : « ستسمع صوتى فى الفجر ينادى للموت أو المجد »

وقد أوقفه صوت يقول « من يسير هناك ؟ » ولكن الجندى لم يلبث أن عرفه وحياه . فقال أكيموف « هالو ، من أنت ؟ »

« فايتياجوف »

« مساء الخير ياجاويش . ألست نائما ؟ »

« لا يا كابتن »

« لماذا لا ؟ »

« مجرد لم أتمكن »

« هل نظفت بندقيتك ؟ »

« نعم كل شى معد »

« هل أعطوك ذخيرة ؟»

« نعم »

« ودرعا واقية كذلك ؟ »

« نعم »

« ما ذا يعمل الألمان »

« يغفون قليلا ، ويرسلون وميضا أحيانا . هل تدخن يارفيق الكابتن ؟ » .

« بالتأكيد » .

واشعلوا لفافات التبغ وكان يمكن رؤية وجه فايتياجوف فى ضوء الكبريت هادئا لطيفا .

وسأل : هل سنستمر طويلا فى هذا المكان المخضل ؟

إن هذا سؤال لله وللقائد الأعلى »

« نعم أعتقد ذلك »

« ما الأمر؟ هل تجد صعوبات ؟ »

« حسنا إنه نوع من الملل »

«ليست الحرب مسليه . أرقد ونم ياجاويش . فأنت تحتــاج لراحة طيبة »

« هل الحرب على البحر أحسن منها على الأرض يارفيق الـكابتن

« هذا يتوقف على تربة الأرض، فهنا ماء كثير بحيث تجد من الصعب عليك أن تسميها أرضا »

« ها ها ، إنك محق فى ذلك ؟ »

« من ذا الذى يضحك بسخرية ؟ »

« إنه أنا ، كورزنـكين »

« أوه ، المراسلة الطبي أولست نائماً كذلك ؟ »

«لا ، كما ترى . فأنا وفايزبولين نتبادل بعض الحديث »

« وأنت هنا كذلك ، هل أنت موجود يافايزبولين ؟ ليس هذا سليماً كما تعرف فأنت منظم عصبة الشباب الشيوعى ، مع ذلك تضرب مثل هذا المثل السيء » .

« إن منظم عصبة الشباب الشيوعى ليس من المفروض أن ينـام يا رفيق الـكابتن ! »

« كف عن هرائك السياسى فيما تتحدث ؟ »

« الحياة على العموم . وأعنى ، كيف ستكون الحالة بعد الحرب »

« انك تنظر إلى المستقبل البعيد » .

« فلـأخذ فايزيولين ، انه يريد أن يذهب إلى مؤسسة لدراسة صيد السمك » .

وصحح فايزبولين : « مجرد مدرسة لصيد السمك » .

« حسنا . فى كازان حيث يعيش . . . »

«يكفى هذا القدر من قصصه المتنوعة عن مكان معيشته . ارقدوا وناموا انى أقول لكم لصاحتكم أن ذلك لن يجدى »

وهز أكيموف رأسه وكشر فى الظلام . ثم ذهب فى إتجاه مطبخ الكتيبة القائم فى طريق مسدود على جانب أخدود كبير وكانت النار قد جعلته مضيئا دافئاً . وقرر ماكاريشيف الطباخ ووجه يشع برضا هادىء أن كل شىء معد .

وسأل أكيموف : « ماذا تقدمون لنا فى طعام الأفطار ؟ .

« أذره مركزه »

« أليس لديك لحوم »

« لم أقدم شيئا منها هل تريد شيئا منها ؟ »

« نعم ، نعم »

« لقد أخذنا إلى الآن أكثر من جرايتنا يا رفيق الكابتن »

« هذا لا يهم . قدم جزءا منها . لا يمكننا أن نميت الحصان جوعا لنوفر العلف »

« إذا ، فأنت تريد منى أن أقدم جزءا منها يا رفيق الكابتن ؟ »

« نعم كمية مضاعفة . أفهمت ؟ »

« نعم »

« وقدم الطعام فى الخامسة والنصف . هل عندك ساعة ؟ »

« طبعا عندى »

وذهب أكيموف وضبط ساعة الطباخ — وهى ساعة فضية من الطراز القديم — على ساعته .

وقال « انها بطيئة . قدمها أثنى عشرة دقيقة »

وظل هناك قليلا فى صمت ، متمتعا بالدفء الخفيف لنار المطبخ . ثم ذهب إلى مركز مراقبته ويمكن أن تذهب إلى هناك فى سرداب طويل يصل إلى نهاية معلقة غطيت بطبقه مزدوجة من الكتل وفوقها رماد . وقد اتسع السرداب قليلا تحت هذا الغطاء . وفتحت كوة ، وبالطبع كان المكان مقاما لمدفع ، ولكنه أعد الآن كمركز مراقبة . . وكان عامل اللاسلكى قد ثبت جهازه ومن حين لآخر يختبر الالتقاط بتكرار : « واحد ، أثنين ثلاثة ، أربعة خمسة . . . » بصوت نائم .

وكانت تصطف على الأرض المغطاه بحولات متشـــابكة عدة تليفونات فى خط مستقيم ، كما فى الخندق تماما . ومن الواضح أن

مابيوروذا قد وجد الوقت ليعتنى بالأمور هنا كذلك ، فوجود مقعد فى هذا المكان دليل على ذلك .

وجلس أكيموف على المقعد ونظر خلال الكوة . وكان نفس المطر الثقيل يتدفق باستمرار . وكان الظلام مخيما ، وإلى جانب ذلك ، كان الضباب يغطى الأماكن المنخفضة بحيث كان من الصعب رؤية الجدول . ولم يكن هناك سوى ضوء غير ثابت يلقى أحيانا وميضا خافتا على الظلام والضباب ، ، الذى يموج كدخان يرتفع ببطء . عند ذلك كان يمكنك أن ترى البوص على الجوانب وقد ركع كأنه فريسة لنوع من الاضطراب المريع . .

وعلى الجانب الآخر من الضفة المرتفعة ، التى كانت مركزا دفاعيا رائعاً ، كانت توجد غابات وقرى لم تمس بمبانى فلاحيها الخشبية ، خلفها مدينة أورشا التى لم يسمع بها أكيموف قبل ذلك إلا فى كتب المدرسة . ولكن ظلت هذه المدينة لمدة شهر مطمع كل أحلامه . وبرغم الفرح الذى كان من الطبيعى أن يحس به لقرب نجدتها ، إلا أنه كان يأسف لأنه لم تتح له الفرصة للاستيلاء على أورشا . وربما كان الشىء الذى يزيد من ضيقه ، أنه لم يستول على منطقة الغابات التى يراها من القطاع الأمامى ، والتى كان يعرف كل بوصة منها من المراقبات المتواصلة . كم من أخشاب الحريق يمكنهم الحصول عليها من هناك وكيف يمكنهم أن يخفوا مراكزهم فى هذه الغابات الصغيرة وكم من الخنادق المريحة

وغرف الاستحمام ذات الجدران المبطنة بالأخشاب يمكنهم انشاؤها هناك. وطالما نظر الجنود إلى هذه القطعة من الأرض باشتياق زائد والتى يسميها مايبورودا ، الخبير الممتاز فى التعبيرات المقدسة ، «أرض الكنانة» . وسيأتى الثلج بعد ذلك بدل المطر العفن وسيستطيعون القيام بمعركة حقيقية.

وبالطبع لم تكن قطعة الأرض الصغيرة هى المهمة . ورغم أن حياة الخطوط الأمامية فى مستوى الكتائب تقلل من اهتمام الجندى ، إلا أن أ كيموف لم يغفل أهمية أورشا للجيش على العموم ، فقد كانت ملتقى طرق استراتيجية وتموينية يمكن أن تسير بقواتنا إلى بولندا رأسا .

وهبت الرياح خلال الكوة ، حاملة معها قطرات المطر . ومسح أ كيموف وجهه ، وخطر له كيف يكون رائعاً أن يتقدم إلى الأمام ، لامائتين من الياردات كما تقضى الأوامر ، ولكن إلى الأمام كثيرا فوق أرض روسيا البيضاء لدخول بولندا كمحررين . وخلف ذلك تقع ألمانيا وفرنسا وشاطىء الأطلنطى .

وضحك فى نفسه من الخطط الاستراتيجية المتتالية التى كانت فوق طاقة قوات وحدة واحدة . وعليهم الآن أن يتقدموا هذه المائتى ياردة خلال ستار من النيران . وقال أ كيموف كأنه يخاطب بولندا وفرنسا التى كان يفكر فيهما غالبا بمشاعر عميقة : «سنأتى ، طبعاً سنأتى ولكننا نحتاج إلى وقت» .

وكانت السماء لاتزال تمطر وستكون الرؤية سيئة خلال المعركة ، ولذلك يجب أن يكون الاتصال محكما . ومن الناحية الأخرى سيسهل الضباب دفع الرجال إلى الأمام فى هجمة قصيرة . وبعد تفكير فى الموقف طلب أكيموف الماجـــور جولوفين تليفونيا . ولكن الأخير كان بالخارج .

وقال الضابط النوبتجى فى قيادة الآلاى : « أنه فى طريقه إليك مع رقم عشرة » .

وسمع أكيموف رجال الإشارة يتكلمون بأصوات منخفضة خلف ظهره .

وسأل هو أيضا بصوت منخفض : «أنت هناك ، يا مايبورودا ؟ » فمهما كان الظلام فإنه كان يحس دائماً بوجود تابعه .

« نعم »

وأرسل أكيموف مايبوردوا لقواد السرايا وجلس ينتظر وصول قائد الآلاى مع رقم عشرة ـ جنرال الفرقة .

وقبل أن تمر خمس دقائق أبرقت فى السرداب بطاريات . وخرج أكيموف وقال مقررا : «الكتيبة الأولى تستعد للقيام بالمهمة المطلوبة. قائد الكتيبة الكابتن أكيموف »

وجاء صوت الجنرال ، وقد مد يده من خلال الظلام وصافح الكابتن : «استرح حسنا ، كيف الأحوال يا قائد الكتيبة» .

وأخبره أكيموف بخطة العملية ، ذاكرا عزمه على الاستفادة من الضباب .

وقال قائد الفرقة : «حسنا ، ولكن فلنفرض أن العدو قد اكتشفنا؟»

وتدخل الماجور جولوفين إلى جانب الكابتن قائلا « لن يستطيع أن يطلق النار بدقة فى الضباب على كل حال » .

وسأل قائد الفرقة : « كيف حال الروح المعنوية ؟ » .

« طيبة »

« حسنا هذه هى الروح . إنك مرتاح هنا فى الماء . فى نفس بيئتك »

وتساءل أكيموف : « الن تعطونا أية دبابات ؟ » .

« لا »

« حسنا جدا » .

« لا أظنها ضرورية »

« حسنا جدا »

« لماذا تريد دبابات ؟ أولا ، لا نستطيع أن نرى شيئا . وثانيا ، الأرض سيئة جدا بحيث يصعب على دبابات أن تتقدم بكم . وثالثا ، فإن الدبابات ستظهرنا للعدو بحركتها » .

« حسنا جدا » .

« حسنا جدا . حسنا جدا . انك تكرر دائما « حسنا جـــدا » »

ولكنك ثائر فى قراره نفسك ، سأعطيك مدفعية كثيرة ، سنصليهم وابلا من النيران يجعلهم لا يعرفون كيف يتصرفون » .

« حسنا جداً »

« حسنا . هذا هو كل شىء . فلتقم بالأمر لقد أحضرت لك تيلسكوب ستيروسكوبى فلتفتح عينيك كأن تحت أمرتك جيشا . وسيحضر الآن ممثلون لآلاى مورتر وآلاى مدفعيه وسيبدأ الهجوم بستار من الكاتيوشا — وكل الفرقة مستعدة »

« أشكرك يا رفيق جنرال »

« علام تشكرنى ؟ هل على الضباط الصغار أن يشكروا رؤساءهم سأشكرك عند ما تتم ذلك » .

إنى آسف يارفيق جنرال »

« هـذا حسن » .

وصمت الجنرال دقيقة ثم أضاء فجأة بطاريته فى وجه قائد الكتيبة . وكان جادا وصلبا بلحيته القاتمة .

وسأل الجنرال بلا مقدمات : « هل تحب أن تعود إلى البحر ؟ »

واندهش ا كيموف لمثل هذا السؤال الخارج عن الموضوع ، ولكن الجنرال استمر دون أن يعطيه فرصة للرد .

« هل تريد أن تجد نفسك أبعد ما يمكن من هنا فى مكان ما على البحر الأزرق ؟ »

وأوما اكيموف إيماءة مبهمة وقال : « إن المكان الوحيد الذى أصبو لأن أكون فيه الآن هو خندق الألمان الموجود هناك » .

وأطفأ الجنرال بطاريته وقال بصوت متأثر قليلا : « إلى اللقاء يا قائد الكتيبة » .

ومضى ببطء خلال السرداب وتبعه الجنرال جولوفين بعد أن صافح اكيموف قلبيا . ولم يلبث أن سمع صوت السيارة مبتعدا .

وقال أحدهم : « الن يأتى الفجر » .

وسأل اكيموف : « هل ظهر ممر خلال حقول الالغام ؟ » .

وأجاب صوت فيرسوف من خلال الظلام : « نعم » .

وكان يمكن سماع قعقعة أوانى الميس ، غير بعيد فى الوادى . كان الرجال يتناولون إفطارهم .

وجاء الفجر وئيد الخطى . ومع ذلك فقد تعرف اكيموف على وجوه الرجال الذين يقفون تقريبا واحداً وراء الآخر فى السرداب الضيق . ونظر لساعته وعند ما نظر إلى أعلى وجد المترجمة واقفه بين الآخرين . ونظر بعيداً بلا اهتمام اطلاقا . وغمره سرور سريع بشعوره بعدم الاهتمام .

وقال بنوع من الوقار فى لهجته : « اضبطوا ساعاتكم » . ولمعت الساعات فى أيدى الضباط ، بعضها ساعات جيب ، وبعضها ساعات يد «خمسة وأربع دقائق» .

ثم استدار لقواد السرايا .

« بوجوزيان ، يمكنك أن تبدأ التقدم إلى الأمام . وأنت يا بيلسكى ابدأ بعد عشرين دقيقة . بلا ضوضاء . وحافظ على الاتصال طول الوقت — بواسطة عدائين إذا كان ذلك ضروريا »

ووقف قائدا السريتين صامتين لمدة دقيقة . ثم انصرفا .

واستدار اكيموف ورجع إلى مركز مرافقيه . لقد وضع تلسكوبه قبلا فى مكانه وعيناه الزجاجيتان ترمقان المسافات . وكان ما يبوزوردا يجلس فى الركن ويداه تحيطان بركبته . وعامل اللاسلكى منحن على جهازه . وأصوات منخفضة تأتى من خندق مصوبى المدفعية على مسافة قريبة .

وازداد الضباب . وكان يشبه السديم الذى يغطى أحيانا سطح البحر ، وقد تصور اكيموف أن الضباب الرمادى يخفى تحته حقيقة ، البحر ، وأنه عندما سينقشع سيرى لون الماء الأزرق الذى يبهر البصر والظلال الرشيقة للسفن .

وقد أنعشته هذه التخيلات ورأى أمامه المنظر المعروف تماما

لرصيف الميناء ، ضوضاء القطع البحرية من كل الأحجام والأشكال فى الخليج الضيق ، حتى إحساس الجو المالح فى أنفه ، قد ظنه موجودا .

وبدأ يفكر فى أن المدينة الساحلية لا تختلف فى الحقيقة كثيرا عن أى مدينة أخرى ، الشوارع والمنازل والأرصفة كلها واحدة . ينبت فى الربيع عشب أخضر بين الأحجار بجوار الجدران فى هذه كما فى تلك ، وعندما تسير فى أحد هذه الشوارع العادية تماما ، وعند ما تستدير فى منحنى تظهر أمامك الصفوف المضيئة للصوارى والأفنية ، ويتحول العالم كله : فيصبح الذى كان عاديا غير عادى وتشعر برغبة كبيرة فى الحركة والسفر ، تعطشا لشىء جديد .

وبينما كان أكيموف يطلق العنان لتخيلاته ، كان يعلم طوال الوقت أنها كلها أفكار سطحية وأن أفكارا متضنية قد تغلغلت فى أعماقه وهى : ما الذى كان يجرى فى هذا الضباب الذى تحول من رمادى إلى أبيض لبنى ؟ أين رجاله ؟ بوجوزيان ، بيلسكى ، فايتياجوف وكثير غيرهم يعرف وجوههم ويشـــعر بالقلق عليهم ، وبصراحة لم يكن يفكر فيهم كرجال فى هذه الدقيقة ، ولكن كمنفذين فقط للإرادة العليا التى تجبر قائد الفرقة والكولونيل فوستوفسكى ، والماجور جولوفين ، وهو الكابتن أكيموف ، والمدفعيين ورجال الإشارة والهندسة والعمل ، كل الآلاى وكل الجيش ، أن يغامروا بحياتهم فى القتال . وإن أحدا

لا يستطيع أن يجبر هؤلاء الرجال على أن يعملوا ما كانوا يعملونه سوى الإحساس الحى بالواجب المنسوج بعمق فى كل خيط من كيانهم .

وقال مايبوروودا : فلنتناول بعض الفطور يارفيق الكابتن ، وذلك ليرضى ضميره أكثر من أى شىء آخر فقد كان يعرف تماما أن أكيموف لا يمكن أن يأكل أى شىء فى مثل هذه الظروف . ولم يجبه أكيموف لقد كان ينتظر . وفجأة سمع رنين خافت للتليفون . وقرر ليلياك (الإسم السرى لبوجوزيان) ثم فيوليت (بيلسكى) ان وحداتهم على الخط المرسوم مستعدة للهجوم .

(٢)

وكانت عقارب ساعة أكيموف تتجه نحو الثامنة . وكان التوتر لا يحتمل . وفجأة مزق الجو هدير وابل من القذائف الأولى .

واهتز الخندق . وقد ركز إكيموف عينيه وهو ثابت فى مكانه ينظر إلى كتلة خشبية تتحرك وتتساقط منها بين آن وآخر قطع من الطين، وكانت المدافع تزأر . واندمج رعدها الآن فى قعقعة واحدة قوية مرعبة وقد تضاءلت الآن إلى عدة قعقعات أصغر .

وذهب أكيموف إلى الكوة . فإلى الأمام يوجد الغطاء المتصل من الضباب ، الذى يسود بالتدريج من دخان القذائف . وعلى مسافة أقرب كان المطر الخفيف الذى لايزال يتساقط أشبه بشبكة مائلة ممتدة أمامه .

وعند ما انتهى قذف المدفعية ، صرخت قذائف الكاتيوشا مثل ريح عاصف خلال السماء المظلمة ، ثم التقطت أذن أكيموف صوتاً مكتوما بالضباب ولكنه ظاهر فى نفس الوقت هو هتاف النصر للرجال الذاهبين للهجوم : « هرا ».

وقد أصبح الضباب عائقاً بشكل واضح . وجعل من الصعب على المدفعية أن تتابع تحرك المشاة ، ومنع أكيموف من توجيه العمليات وكان الذى يجرى فى الضباب يبدو بعيدا أو وهميا — من المستحيل التأثير عليه من الخارج .

واتصل أكيموف بالسرية الأولى تليفونيا . وأخبروه أن نيران المدافع توقفهم وأن القتال دائر فى الضباب .

وسأل أكيموف : « من أين يأتى الضرب »

« ضرب جانبى من اليمين »

« هل أنتم بعيدون عن مواقع العدو ؟ »

« كيف يمكننا أن نحدد ؟ لا يبدو كذلك »

« هل هناك نيران أسلحة صغيرة ؟ »

« ليس كثيرا »

تجنبوا نار المدافع . استمروا إلى الأمام . واصلوا التقدم »

وكانت الأمور أسوأ مع السرية الثانية حيث كان بيلسكى فى القيادة ،

فبعد عبورهم الجدول حاصرتهم مباشرة نيران ثقيلة ، وكان عليهم أن يرقدوا ممددين فى العشب على الحافة .

قال أكيموف : « قوموا وانقضوا إلى الأمام واقتحموا الخندق » ليلياك متقدم تماما وأنت تتخلف ».

ومن المحتمل أن شخصا يميل للخيال أو الفكاهة قد أعطى الوحدات المختلفة أسماء زهور كأسماء سرية ليعوض الجو السيء . وكان من الغريب تبادل كلمات مثل الليلياك والبنفسج والياسمين والسوسن فى الضباب والمطر والوحل . فآلاى المدفعية كان اسمه زهرة اللؤلؤ مثلا ، ووحدة الكاتيوشا المدمرة كان اسمها زهرة الأجراس الزرقاء . زهور من كل الأنواع ، زهور حقول وزهور حدائق كانت تنادى بانزعاج لبعضها باعثة فى الذهن ذكريات كثيرة لا داعى لها .

وفى نفس الوقت ، أصبحت المدفعية الألمانية ، التى كانت قد اسكتتها قذائفنا لفترة ، أكثر نشاطا بشكل ملحوظ . وأجابت مدفعيتنا ، ونشأت مبارزة بالمدافع ، وأصبحت الأوامر التى تصدر من الخندق المجاور إلى المدفعيين أكثر وأسرع . وأطلقت قنابل شرانبيل الشديدة الانفجار والقنابل ذات الشظايا إلى زوايا ارتفاع مختلفة وبكميات مختلفة ، من مدافع منفردة أو بطاريات كاملة بل وأحيانا من كل مدفعية الفرقة ، فوق شقة الضباب ، محولة أياها من بيضاء لبنية إلى حمراء مشتعلة .

وأخيرا انقشع الضباب ببطء ، وانبسط ، أمام عينى أكيموف الموقع الأمامى الذى انتظر طويلا رؤيته ، وبدا كأنه ليس هناك شىء ذو أهمية خاصة ماعدا بعض أشباح صغيرة بمعاطف رمادية تجرى من آن لآخر هنا وهناك ، تربض منخفضة تماما بحيث تكاد تغوص فى الأرض . ويبـــدو أنه لم يكن هناك غير القليل منهم . وكانوا حقيقة قلة .

واستمر أكيموف فى الصياح فى التليفون : « ما الذى يوقفكم ؟ هلا يمكنك أن تفهمنى يا فيوليت ؟ ما الذى يعطلكم ؟ » .

وقبل أن يكون عند بيلسكى الوقت ليجيب قطع الخط ، وبينما كان رجل الإشارة يصلحه فى الخارج ، توقف الخط مع بوجوزيان كذلك . وعند ذلك فقط دق التليفون من جولوفين : « يا أكيموف » وانقطع الخط كذلك .

وقال رينيزوف : « سأذهب إلى بيلسكى ، لقد تسمر الشيطان البائس تماما » .

وأومأ أكيموف وجلس من جديد بجوار التلسكوب ينظر فيه . وعندما اتصل خط بوجوزيان قرر بزهو أنه اقتحم خنادق الألمان وأنه يحارب هناك .

وصاح بوبازيان وهو فى قمة الانفعال : « هل فهمت أم لا ؟ ان

عنده مساند للأسلحة وفخاخا بوليسية هنا . وأنا أنظف الاشياء الملغمة الآن . انهم جميعا على مرمى النظر الآن هل تفهمنى أم لا ؟ الحالة سيئة جدا » .

وقال له اكيموف : « اثبت ، وساعد بيلسكى . نظف الخندق الذى على يسارك، استعد بالمورتر التى عندك . تقدم بمدافعك المضادة للصفحات . إننى ارى العدو يتجمع فى القرية ويستعد لهجوم مضاد . لماذا لا أسمع صوت مدافع ماكينتكم ؟ » .

« انهم يأتون ، هل فهمت ؟ ها هم الآن . هناك عوائق وألغام فى كل مكان » .

« ساعد بيلسكى ـ لقد تسمر . هل يمكنك أن ترى ما الذى يوقفه ؟»

« بيلسكى ؟يوقفه ؟ لاشىء يوقفه ،انى لا أعرف لماذا لايتقدم . ان هنا فى الحقيقة قطعة من الجحيم . هل تفهمنى أم لا ؟ ولكن قطاع بيلسكى هادىء كالمقابر» وسكت هنيئة ثم أضاف بصوت أكثر انخفاضا : « لقد استولينا على مدفعى ماكينة هنا » وزاد انخفاض صوته قائلا : « وصندوقين من النبيذ » .

وقال أكيموف : « حذاران يمسها أحد ، والا صببت عليكم جحيما عندما أصل » .

ولم يلبث أن أعيد الاتصال مع بيلسكى. وقال « معطل من الألغام يارفيق الكابتن ، ان المكان ملىء بها » .

« أين سلاح المهندسين ؟ » .

« هنا ، يعملون . ولكن هناك كمية كبيرة من الألغام »

« انظر إلى المدى الذى وصل إليه بوجوزيان .انه الآن فى خنادقهم»

« انه محظوظ ، فإن العدو لايبدى له أية مقاومة على الإطلاق ... »

وقاطعه أكيموف : « يكفى هذا . انها لم تكن نزهة بالنسبة له أيضا . أين ريميزوف ؟» وأخذ ريميزوف السماعة .

وقال أكيموف : « ريميزوف ، ان بيلسكى يأخذ الأمر ببساطة تامة . فلتبحث الأمر وحذره بأنه ان لم يقم بمهمتـــه فإنه سيحاكم عسكريا »

وبعد دقيقة سمع أكيموف نفس الشىء من جولوفين على التليفون. « لقد أخبرنى قائد الفرقة أن أخبرك أنك ستقدم لمحكمة عسكرية إذا لم تنجح فى هذه المهمة »

وغمغم أكيموف : « فهمت » .

وختم جولوفين : « وكذلك أنا »

« أحسن »

ولم يلبث الألمان أن شنوا هجوماً مضاداً على قطاع بوجوزيان . وكانت أشباح الألمان تبرز وتنخفض مثل أراجواز الأطفال ويبدو أنهم كانوا ينزلون من على تل وهم يقومون بألاعيب خداعة تعتمد على محاولة عدم السقوط ، كأن شخصاً يجذبهم إلى أسفل باستمرار . وكان المشاة مكدسين في خط الخنادق الثانى للعدو .

ودوت فوق الرءوس مجموعة جديدة من قذائف الكاتيوشا — وتصاعدت أعمدة النار فوق أرض العدو الأمامية . وعندما هبطت رأى أكيموف الألمان يجرون إلى الخلف .

وقال مايبورودا : « فى السباق » ، ثم أضاف « سيهرجت »

وأضيئت لفائف التبغ فى السرداب وبدأت الأصوات تتهامس . وكان يبدو أن الجميع فى هياج .

وكان الجرحى يمرون محمولين . وبعضهم يئن فى إغماء . وعاد ثلاثة رجال مجروحين ، وهم يسيرون ببطء وهدوء على الأرض المكشوفة . ولم يحاولوا حتى أن يخفوا أنفسهم ، كأن الجروح التى عندهم ضمانا ضد جروح أخرى . واستشاط أكيموف غضباً ، وأطل برأسه من الخندق وصاح : «احتموا ، لعنكم الله» .

ونزل الرجال فى السرادب بامتثال ، وقبعوا غير بعيدين عن مركز المراقبة .

وأعقب الهجوم المضاد الألماني الأول هجوما ثانيا تحميه ثلاث دبابات وسارت هذه أيضا كالجنود بتعرج وبلا رغبة كما يبدو ، إلى حيث يرقد رجالنا . ثم انقطع الخط ثانية ، في الوقت الذي كانت الحاجة أشد ما تكون إليه .

ونادى أكيموف : أوريشكين ، اذهب إلى بوجوزيان »

وقال أحد الرجال الثلاثة المجروحين الذين أمرهم أكيموف أن ينزلوا في السرداب والذين كانوا يشربون ماجوركا بجانبه « لقد قتل الملازم بوجوزيان »

وكرر أكيموف : « قتل » وبعد فترة صمت أضاف : «أوريشكين » خذ قيادة السرية رقم واحد » .

ودون أن يرفع عينه عن التلسكوب رفع التليفون وقال « هالو ، ليلي ، أقذفوا قنابل محرقة على هذه الدبابات . هل تسمع ؟ »

وقد نادى قائد الفرقة بعد ذلك على اللاسلكي وأخبره : « لقد استولينا على الخندق الأول ولكن العدو يضغط بشدة »

وسأل القائد عن الجناح الأيسر . وأجاب أكيموف : « إن خيوليت متقاعسة إلى الخلف وقد ذهب ريميزوف هناك . وسنسوى هذا الأمر . أفضل أن يلقوا القنابل على القرية ـ فالعدو يحتشد هناك لهجوم مضاد »

ودق ريميزوف أخيراً وقال : « لقد سويناها ، وفتحنا ثغرتين ، وركز المدفعية على الغابة الصغيرة المربعة . هناك مدفع ماكينة »

وأطاعت المدفعية مباشرة ، وأخبره ريميزوف ، بتحمس كبير ، دون أن يبتعد عن التليفون : « عظيم ، فى الهدف تماما ،ضربة مباشرة إلى عربة تموين الألمان . هذا هو الذى يسمى تصويب ، أشكرهم عنا، إنناخارج الوحل الآن »

واستطاع آكيموف أن يرى رجال السرية الثانية ـ وقد شجعهم عمل المدفعية الجميل ـ يندفعون إلى الأمام دون أن يجثوا إلى أسفل ولم يلبث أن قدم عداء وأبلغ أن السرية رقم اثنين قد اندفعت إلى الأمام داخل خندق العدو والقتال يدور هناك وجها لوجه .

وعندما أخبر أكيموف قائد الآلاى بذلك قال الماجور جولوفين « سأرسل لك فصيلة من احتياطى . استعملها وفق بصيرتك » وبعد فترة صمت قصيرة سأل : «هل ستبقون فى خندق العدو هذا ؟ »

وأجاب أكيموف « نعم »

ووضع السماعة ، وكان أول تفكيره فى بوجوزيان . لقد كان شغوفا جدا بأكلة طيبة وشراب جيد وكان يحب النساء أيضا . وكانت عيناه تتوهجان بوضوح عند مايرى إحداهن سواء أكانت جميلة أم

خاليـة من الجمال ، صغيرة أم بدأت تتقدم فى السن وكان يحبهن حبا بريئا كما يحب الشخص الأعمال الفنية . وكان عادة يقول بلا سخرية ، بل ربما بحياء : « أيا كان الذى خلقهن ، فلم يكن أبدا غبيا» هل يستطيع أن يأكل الآن هذا البوجوزيان البائس العجوز ، لقد كان نقيضا لريميزوف .

والتقط اكيموف التليفون ببطء ونادى على فيوليت . وعنـدما أجابوا قال . « أخبر ريميزوف أن يحضر ليقدم لى تقريرا فى مركز المراقبة ، مفهوم ؟ أعد » .

وكررت فيوليت .

وأشعل اكيموف سيجارة وأنصت إلى حـديث الرجال الخافت .

قال ما يبورردا : « إننى أحب السحب المنخفضة أثناء القتال .

وأمن عامل التليفون على كلامه . « نعم ، ان هذا ليس جوقتال »

وبدأ جندى آخر يستعيد ذكرياته : « عند ما كنا نحارب بجوار يلينيا . . »

وقاطعه آخر : « وبالقرب من زرهيف . . . »

ثم نودى أكيموف من جديد على اللاسلكى ليتصل بالجنرال .

وكان قائد الفرقة مسرورا تماما هذه المرة .

وقال : أشكرك يا أكيموف . هل ستثبتون ؟ »

وأجاب اكيموف : « نعم ياجنرال »

وبعد هذه المحادثة مباشرة بلغ أوريشكين أن رجاله قد طردوا من خندق العدو . وقال أكيموف : « إنى قادم »

ونهض وزرر معطفه . ونهض ما يبورودا فى نفس الوقت ـ وقد شحب لونه ، ولكن أكيموف جلس من جديد وتنهد ما يبورودا وتبعه مباشرة .

ثم دخل ملازم ثان صغير ذو أنف مدببة وعينان محملقتان .

وقال : « قائد الفصيلة الملازم ثان فيلكوف لقد بلغت أن أقدم نفسى لكم لمهمة »

وسأل اكيموف : « كم عندك من الرجال ؟ »

« ثمانية عشر »

« ليس بكثير »

ونظر اكيموف حوله ورأى السرداب الطويل ممتدا من مركز المراقبة إلى المؤخرة حيث يجلس أو يقف الجرحى ـــ الذين لا يمكن أن يواصلوا السير تحت هذه القذائف التى لا تتوقف ـــ مع العدائين ورجال الإشارة .

وقال اكيموف لمايبورودا : « أسرع إلى ماكاريشيف فى المطبخ .

وأخبره أن يحضر هو ورجال المطبخ والسواقون إلى هنـــا بأسرع ما يمكنهم . وتأكد من أن أحداً لم يتخلف وأحضرهم كلهم هنا ».

وخرج ما يبورودا ، وتوجه إلى باب الخندق .

وقال آمرا : « سيبقى هنا ثلاثة رجال إشارة وعامل اللاسلكى . وسيذهب البـــاقون إلى المهمة مع الملازم ثان فيلكوف . وكذلك ذوو الجروح الخفيفة » .

ورجع إلى الكوة ونظر من خلال التيلسكوب لمدة دقيقة ثم أدار رأسه للملازم وسأل : « هل أنت فى الجبهة من مدة طويلة ؟ » .

وأجاب فليكوف بلهجة خفيضة : « انه يومى الثانى » وأضاف « ولكنى سأعمل كل ما فى وسعى » .

وأكد له اكيموف بلهجة حبيبة : « إنى أفهمك » .

ولم يلبث أن قـــدم « رجال المؤخرة » — ماكاريشيف وثمانية آخرون . وشرح اكيموف لفيلكوف ماذا عليه أن يعمله ثم قال : « بلغنا بالتليفون أو بعدائين بمجرد وصولك لاوريشكين . وسأطلب من قائد الفرقة ستارا ناريا قصيرا آخر » .

وخرج اكيموف مع فيلكوف فى السرداب . وعندما سار حوالى مائتى ياردة رأى فصيلة الملازم ثان غير بعيدة فى الوادى . ووقف

الرجال عندما تقدم . وكانوا يبدون مرهقين تماما ، ولكنهم هادئون ومشبعون بالثقة .

وقال فيلكوف إلى اللقاء بطريقة ميكانيكية وسار على رأس فصيلته . وأحضر ماكاريشيف رجال المؤخرة وهو محمر الوجه ، يتصبب عرقاً ، ويعرج قليلا . وثبت عينيه اليائستين الحانقتين على اكيموف ، متمهلا خلف الطابور قليلا وسأل :

« ماذا عن الغداء يا رفيق الكابتن ؟ من الذى سيعد الغداء ؟ »

وأجاب أكيموف بلا شفقة : « سأقوم بذلك » ثم رجع إلى مركز المراقبة حيث كان ريميزوف ينتظره ، أسود من الدخان والطين ، وتلمع عيناه ثائرتين خلف نظارته .

وقال : « لقد صددنا الهجوم المضاد بالقنابل اليدوية »

« خذ مكانى هنا . وبلغ جولوفين كل شىء باستمرار وأنا ذاهب لاوريشكين » .

«ولكن أين هو»

« فى مكان بوجوزيان . لقد قتل بوجوزيان »

وقا ريميزوف : « حقا ؟ لم يمض أكثر من ساعة منذ رأيته »

وقال أكيموف لميوروودا : « دعنا نذهب »

(٣)

وساروا فى السرداب ثم انتقلوا لآخر . وكان العدو يقذف قنابل مورتر ، تنفجر فى كل مكان حولهم . وفكر مايبورودا بفخر مستغربا ، وهو يحتضن جدار خندق اتصال : « لماذا يريد أن يذهب للأمام ؟ إن واجبه أن يقود الكتيبة ، لا أن يذهب ليدس أنفه فى المقـــدمة ». وتطلع شبه غاضب لظهر أكيموف الهادىء المثير قائلا « من الذى دعاه للذهاب ؟ إذا كان قد تلقى أمرا لاختلاف الوضع ولكنه ذاهب من نفسه . ويعلم الله لماذا . . »

وفى كل مرة كانت تنفجر قنبلة ألمــانية كان أكيموف يقول بلهجة عالية تماما ، تبدو محبذة : « هذا حسن . عمل عظيم . حسنا . حسنا ».

وكان حقا سعيدا لأن العدو يضرب كثيراً وبشدة ، لأن ذلك يعطى لمصوبى مدفعيتنا الفرصة لتحديد مواقع مدافعه . وكان هـذا ، فى الحقيقة، هو هدف العملية .

واستمر فى الهمهمة غاضبا ولكنه محدقا وهو يراقب القنابل من خلال ركن عينيه تندفع يميناً ويسارا .

وظل الخندق يقل فى العمق ، إلى أن تلاشى مع السطح . وكان هناك جدول صغير غير بعيد ، يستحيل رؤية حافتيه ، لأن كل شىء قد غمره

الماء فى كل مكان ، ولكن كان يمكن تخمين مكانه بالحلفاء الناتئة من الماء ، والحزم النحيلة من الصفصاف التى تتمايل مع الريح ، وقد تفتتت وتناثرت أطرافها بما تحمل من براعم . والمطر يموج الماء . وعلى مسافة قريبة كان يرقد عامل تليفون على رابية ، ورأســـه مغمور تقريبا فى الأرض الرطبة وقدماه فى الماء ، وهو يتمتم باستمرار فى السماعة : « زهرة الثلج ، زهرة الثلج » ، « يا رفيق اكيموف ، يا رفيق اكيموف » .

وقال اكيموف : « انظر هنــا ، ها هى زهرة ثلجك بجانبك » .

وأدار العامل وجهه والماء يجرى عليه مثل الدموع ، وانفرجت أساريره مباشرة .

يا رفيق الكابتن ، إن ليلياك تخبرك أن فيلكوف وصل . وتريد أن تعرف متى ستفتح المدفعية نيرانها .

« أخبره أننى سأكون هناك سريعا . أين اوريشكين ؟ »

« هناك » . وأشار العامل إلى عدد من شجيرات على الحافة الأخرى .

وأكمل أكيموف سيره منتصبا . واضطر مايبورودا أن يقلده .

وكان يرتعد لأنه يعرف أن كل ألمانى يمكن أن يراه من برلين .

وعبروا الجدول والأرض الغارقة متمسكين بالروابى هنا وهناك وبالأحجار والكتل التى تخلفت عن جسر تحطم . وكان الماء يخر تحت أقدامهم ، وهو يجرف أمامه أوراق المابل الصفراء . وعلى الجانب الآخر قل عمق الماء سريعا لأن الحافة كانت منحدرة . وظهرت مباشرة خنادق قليلة حفرت حديثا . ومن الواضح أن جنودنا قد حفروها منذ فترة قصيرة وعلى بعد كان يرقد رجال فيلكوف تحت بعض الشجيرات وتفحصهم أكيموف ووجد بينهم ماكاريشيف الطباخ ، الذى كان يبدو أن معنوياته قد تحسنت وكان يحكى قصة للرجال . وكانوا يستمعون إليه بضحك مكتوم وهم ينظرون إلى الجبهة .

وكان أوريشكين وفيلكوف والكابتن دروزد جالسين فى خندق ضيق. وسأل اكيموف وهو ينحنى عليهم : « حسنا ، كيف تسير الأمور » .

وقابله أوريشكين بابتسامة بهيجة ، وقد اشرق وجهه الجميل كأن وجود أكيموف قد غير الموقف بأجمعه . وسأل أكيموف وفى صوته إزدراء : « لماذا تجلسون هنا ؟ لقد استولى بوجوزيان على الخندق . وتركتهم يطردونك منه وها أنت الآن تبتسم ، سأطلب محاكمك عسكريا ، يا ابن الزنا ، أين رجالك ؟ »

وشحب لون أوريشكين وصعد من الخندق .

وسأل أكيموف وهو يستدير لدروزد : وأين جنود الاستطلاع »

« هنا . معى »

« فلتجبرهم على الذهاب إلى الأمام مع الآخرين . ان كل رجل غال الآن »

وكانت إجابة دروزد الفظة : « ليس من حقى ذلك — ليس هذا عملهم . إن عليهم واجبات أخرى » .

وقال أكيموف وقد تصلبت ملامحه . « ولكنهم لايقومون بها . والأكثر من ذلك ، أنهم لن يعملوا ذلك إذا ظلوا معلقين هنا » .

وصاح عامل التليفون من الخندق الضيق . « ياسمين وديزى سيبدآن الآن» .

ودوى صوت المدفعية من جديد . وتقدم أكيموف قائلا لفيلكوف عند ذهابه . « احضر رجالك خلفنا . سنذهب بعد ستار النار » .

وكانت السرية رقم واحد على بعد حوالى مائة ياردة إلى الأمام . ونهضوا وذهبوا مع الضباط نصف زاحفين . ومن سوء الحظ أن ستار النيران كان قصيراً — فقد استمر سبع دقائق فقط ، إما لأن الذخيرة

كانت شحيحة أو لأن الأوامر صدرت بذلك ، وسب أكيموف بشدة ، وتقدم للأمام وقامته الطويلة منتصبة بإصرار غير مكترث بالطلقات التي كانت تصفر حوله . وفجأة ، انقلب شاحبا كالموت ، وقذف بيده إلى أعلى وهي منقبضة ، وصاح بكل قوة حنجرته ، كما يفعل البحار غالبا أثناء زوبعة « إلى الأمام يارفاق من أجل أرض آبائنا » وأضاف ، لدهشة الجميع وبغير شك لدهشته هو أيضا ، قولا قديما اقتبسه من كتاب . « لاينزل العار بالأعمال الحربية الروسية في مواجهة العدو » .

وجلجلت في المكان ، «هرا» ، واندفع كل الرجال للأمام وهم يطلقون النار أثناء تقدمهم ، وكانوا يتنفسون بعمق ، وينزلقون ويسقطون ، ثم ينهضون ثانية تحت تأثير النـــداء العظيم الذي كان لايزال يدوى في آذانهم . وكانت مدافع الماكينة لاتزال تجلجل من خلفهم ومن الجناح وشقت القنابل السماء . وبعدها صمت الجميع . وقفز ما ييوررودا في الخندق فوق المانى وتعلق بوجهه ودعك مؤخرة رأسه بشدة في الطين ثم تمالك نفسه ونظر حواليه . وكان الخندق ممتلئا بجنودنا وثبتت بسرعة مدافع الماكينه والمدافع المضادة في مراكزها ونادى أكيموف في التليفون وهو رابض على عجزه ، يلعن بجنون . ولا يكاد يستمع للإجابة .

وصاح . « اطلقوا النار . أحضروا ذخيرة فورا . كثيرا من القنابل وبراميل خرطوش معبأة . هل أنتم نائمون عندكم ؛ أيها الأوغاد؟ انتظروا

فقط حتى أعود إليكم ، سأريكم أيتها الكلاب الصغيرة ، ارسلوا ضباط المدفعية هنا حيث يمكنكم أن تلاحظوا أكثر » .

ووقف وقال لأوريشكين . « استمر الآن . هل تفهم ؟ » وكانت قبعته قد اختفت . قذفتها طلقة بعيدا . وواصل حديثه « إن مركز مراقبتك سيكون هنا فى الخندق — وسأكون أنا هناك فى الآلاى حيث كنت جالسا تبتسم » . ونظر حواليه وابتسم بملل . « إن الخندق منظم تماما — إن الألمان يحبون النظام » .

وكان الخندق حقيقة مشيدا تشييدا حسنا ، وإلى حد ما جذابا . وكان مغلفا بألواح تكون تموجات منتظمة . وحتى أسرة النوم كانت مقامة من الخشب والأرض مغطاة بحصير من القش . وأطباق الزبد من البلاستيك البرتقالية اللون وبهـا بقايا الوجبات التى لم تكمل ، منثورة حولهم . والقتلى ممددون هناك كذلك ، من الألمان ومنا ، جنبا إلى جنب . وهناك رائحة لاتخطئها الأنف لخنادق العدو المستولى عليها . نعم ، نفس الهواء له رائحة مختلفة ، عدائية .

وسار أكيموف على طول الخنادق متبادلا ملاحظات نصف مازحة ونصف جادة مع الجنود .

« إنكم ترون أننا قد تمكنا من أن نجد لأنفسنا أماكن لائقة . جافة — بلامصارف . احرصوا على المحافظة عليها — ولن تساووا شيئا إذا تركتموهم يقذفوننا ثانية إلى الوحل والقذارة » .

وتوقف فجأة فقد سمع فى مكان ما ليس بعيدا صوتا أنثويا يتكلم الألمانية ، وكانت أنيشكا ، جالسة على صندوق ذخيرة فارغ وبيدها نوتة، وهى تستجوب أسيرا .

وسأل أكيموف . « لماذ أنت هنا ؟ »

فنظرت إلى أعلى وأجابت بإيماءة متعالية من ذقنها . « لن يدعنى الألمان أذهب أبعد من ذلك إلى الأمام » .

وانتشر ضحك مكتوم بين الجنود .

وقال أكيموف ، وقد احمر وجهه : « لامزاح بيننا . ليس هذا مكانك » .

وأجابت إجابة حادة وهى تنهض ببرود وتصلح معطفها « حسنا ، فلتستجوبهم بنفسك » .

«حسنا ، ولكن ليس هذا مكانه» .

« حسنا ولكنه جريح ولا يمكنه الحركة » .

ونظر الكابتن شزرا للأسير . وأومأ بعدم اهتمام وواصل الحديث، دون أن يعرف هل يغضب أم يضحك ، ان هذا لأكثر مما كنت تتصور ، وبعد ذلك أصر هو ودروزد على أن تذهب المترجمة

إلى المؤخرة مع الأسـير وأن تبقى مع رميزوف فى مركز المراقبة القـديم .

وبحث بين الجنود عن مكاريشيف وقال بشدة مصطنعة . « ها هى مهمة حربية لك عد وجهز العشاء ، هل فهمت ؟ اذهب » .

وتحركت انيشكا نحو المؤخرة مع الأسير واثنين من رجال الاستطلاع وطباخ الكتيبة .وكان الأسير فى الحقيقة لا يمكنه السير ، وكان عليهم أن يحملوه قليلا ويجروه قليلا وعندما وصلوا إلى الجانب الآخر من الجدول فتح الألمان النيران المورتر من جديد اضطروا أن يرقدوا ممددين فى الوحل .وكانت قنابل المورتر تنفجر فى كل مكان حولهم.وشعرت انيشكا بخوف شديد من أن يقتل الألمانى ولكن الأمور مرت بسلام، ولم يلبثوا أن وصلوا إلى ريميزوف .

وهز رأسه لائما نفسه عندما كان يساعد انيشكا على تنظيف الوحل من على معطفهـا وقال . « لقد كنت قلقـا عليك طوال الوقت . لاتغضبي منى ، ولكن ، بأمانة ليس هـذا مكان فتاة، وليس لدى الألمان أى فكرة عن أنك قد كتبت موضوعا عن شيلرفى المعهد ، كما تعرفين . ولن يوقفهم هذا عن قتلك ،فلا تنسى أنهم نازيون » .

وكان ريميزوف يستعد للانتقـال إلى مركز المراقبة الجديد على

الجانب الآخر من الجدول . ولكن قائد الألاى لم يكن قد سمح بعد لمركز المراقبة بأن ينتقل للأمام . وحمل ريميزوف انيشكا على الرجوع إلى الخندق فى الوادى حيث يوجد الحاكى وقال بينما كان يلتقط التليفون ثانية . « هناك يمكنك أن تستجوبى الأسير كما يجب ، واستمعى للموسيقى » .

ولم تلبث أنيشكا ورجال الاستطلاع أن رجعوا مع الأسير إلى وادى الكتيبة حيث نزلت الليلة الماضية ، وكانت نيران العدو قد خمدت ولم يعد مايدعوهم لأن ينخفضوا ولذلك ساروا على طول الحافة . ولما كان الأسير ثقيلا ، فقد جلسوا ليستريحوا على حافة قرية محطمة محترقة . وأراحوا أنفسهم بقدر الإمكان بجوار حطام مدخنة مسودة لكوخ محطم بالقرب من تحويلة التليفون الأمامية ، وقررت انيشكا أن تستجوب الأسير هناك . وأن تبلغ المعلومات مباشرة بالتليفون .

وقد عرفت أن الجندى وكيل أمباشى فى الفرقة المهاجمة الثانية والسبعين ، من دفتر أجره . وكان اسمه هانس كوخل ومن نوفر . وكان الرقم ٧٨ نفسه عاملا استكشافيا : فلم تكن هذه الفرقة هنا قبلا . وصفرت انيشكا بفمها عجبا وارتياحا .

وكان مما يطمئن الأسير أن يستجوب من آنسة جميلة وذات صوت عذب . واطمأن على أنهم لن يطلقوا عليه النار على كل حال ، بل وقد أصبح

جريئا إلى حد ما . وكان قد عزم على أن يدلى بكل معلوماته ولكنه قرر الآن فى نفسه أنه من الخطأ ومما لا يليق بجندى ألمانى أن يفعل ذلك ، وأصبحت إجاباته مراوغة أكثر فأكثر ثم رفض فى النهاية أن يفتح فمه. وكان يشجع نفسه بأن يطلق فى ذهنه على الروس — بما فيهم الفتاة المليحة التى تستجوبه بهذه اللهجة الألمانية السليمة — المعذبين ، الساديين الذين يأخذون المعلومات من رجل جريح ، وهلم جرا .

وفى النهاية ، فقدت انيشكا صبرها وسألته وهى تحملق فى وجهه إن كان سيجيب على أسئلتها ، ولم تتلق ردا كذلك .

وقال بلهجة حازمة : «حسنا هذا ، فى هذه الحالة سأسلمك للجنود لتنقل للقيادة» ثم استدارت ونادت بيريوكوف ، أحد رجال الاستطلاع.

وتوجه بيريوكوف إلى الأسير وانحنى عليه. وكان بيريوكوف رجلا متحفظا تماما من الأورال ومن أكثر الرجال الذين يمكن أن تتصورهم، طيبة قلب ، ولكن وجهه الجامد وعينيه المنحرفتين ووجنتيه المحمرتين من أثر الرياح تظهر مرعبة لمن لا يعرفه ، وتراجع كوخل من الخوف وأفشى مباشرة كل ما يعرفه .

وكتبت انيشكا وهى فخورة بنجاح خدعتها العسكرية ، ماقاله لها الاسير ، وأبلغت التفاصيل الأكثر أهمية بالتليفون مباشرة لرئيس هيئة الآلاى ، وأرسلت الأسير وراء الخط بعد المكالمة مع رجال الاستطلاع.

ثم توجهت إلى مركز المراقبة حيث كان ريميزوف . ولم تكد تصل إلى نهاية الوادى حتى بدأت مدافع المورتور والمدافع الألمانية ستاراً عاصفا من النيران .

ومن المرجح أن العدو قد أحضر مدفعية من قطاعات أخرى . وقد تمكنت انيشكا من الوصول إلى خندق اكيموف ، واهتز الوادى من ضرب النار.

وقد سرت انيشكا لأنها وجدت الخندق خاليا وأغمضت عينيها ، وأصمت أذنيها بأصابعها ، والتصقت بالحائط المبطن بالأغصان . كانت مرتعبة وفعلت ما يفعله كل الناس الفزعين .

ثم صر الباب وزحف إلى الداخل جندى إشارة الآلاى وهو يحمل لفات من السلك ، وتبعه ما كاريشيف وبضعة رجال آخرين . فجلست انيشكا فوراً إلى المنضدة ، وبدأت تمشط شعرها القصير بعدم اهتمام مصطنع ، وقالت بلهجة الواثقة :

« ضرب ثقيل . من الواضح أن الألمان قد أحضروا مدفعية جديدة لقطاعنا . ويبدو أن هجومنا قد أرعبهم هل سيصمد فتياننا ؟ »

وقال ما كاريشيف : « طالما لم يقتل قائد الكتيبة » ، وكان شاحبا بشكل مميت .

واستمرت انيشكا فى تمشيط شعرها وقالت : « أتمنى أن أختلس نظرة لمايدور الآن » .

وقد شعرت هى نفسها كيف أن كانت كلماتها مزيفة ، وبعد ذلك ، عند ما تغلبت على خوفها ، خرجت إلى الوادى وزحفت إلى الأمام على طول صخوره الغريبة . ولم يلبث أن توقف الضرب وكان الشىء الوحيد الذى يمكن سماعه هو جلجلة مدافع الماكينة التى كانت تتكرر على فترات متباعدة . وانطلقت بجوارها عربة نقل بلا سائق ، واستولى هاجس فظيع على قلب انيشكا . لقد كانت تفكر فى اكيموف أكثر من أى إنسان آخر .

لقد كانت معه طوال المعركة ، وقد رأت وسمعت كل شىء ، بما فى ذلك أسلوب كلامه ، الذى لم يسىء إلى سمعها . وفكرت أنه لو قتل فإن ذلك سيكون فظيعا . بالنسبة للكتيبة والآلاى بل بالنسبة لها هى أيضا .

وخفت بالتدريج صوت المعركة ، وصمت كل شىء . وكانت انيشكا بجوار السرداب الذى ينتهى بمركز المراقبة . وعند ما اقتربت لم يكن حتى بإمكانها أن تميز الطريق فقد خرب إطلاق النار كل شىء . وكانت هناك فوهة فاغرة مكان مركز المراقبة . وكان الرجال يحفرون فيه وعلى حافته تماما كان يجلس رجل عارى الرأس على نهاية كتلة خشبية ملتوية هو أكيموف .

وزحف أحد الحفارين خارج الفوهـــة ، ووقف للحظة ، ثم ألقى بجاروفه أرضا وذهبت انيشكا إليه وعرفت فيه مايبورودا .

وسألت : « ماذا حدث ؟ »

« ضربة مباشرة قتلت الكابتن ريميزوف » .

وشحب لون أنيشكا وكزت على أسنانها إلى أن أحست الألم فى أذنيها ثم نظرت إلى أكيموف وكان جالساً بغير حراك . والدموع تنهمر على وجنتيه ، وارتجفت أنيشكا فلم تكن تظن أبداً ، أن إنسانا صلبا لاحظته يوما بأكمله ، يمكن أن يبكى ، وقد هالها أن تراه وهو يبكى فعلا وأرادت أن تذهب إليه وتلفه بذراعيها . ونظر أكيموف إليهـا ونهض ببطء .

وسأل . « هل أنت هنا ؟ » ثم نظر إلى أسفـل ثانية وأشار إلى الفوهة . « لم يبق شىء منه ، لا شىء !! » .

وعلى مسافة قريبة فى السرداب كان عامل التليفون ينادى بعناد وبيأس تقريبا أحيانا ، بصوت منخفض وأحيانا أعلى ، وتارة بإصرار ، وتارة بتوسل .

« ليلى ، ليلى ، ليلى . . . »

وظهرت مجموعة من الجنود الجرحى وعند ما وصلوا إلى المكان الذى كان يقف فيه أكيموف قال أحدهم « مع السلامة ، يارفيق ، ربما لن نرى بعضنا مرة ثانية » .

قال أكيموف متعجبا « فيتياجوف اجرح ؟ »

وابتسم الجاويش . « نعم . ولكنها ليست جروح خطرة » وواصل سيره ثم استدار نحو أكيموف « ولو أنه من المؤسف ، فأنتم كلكم ذاهبون للراحة وسأكون أنا فى المستشفى » .

ولم يدرك أكيموف مباشرة مايعنى فيتياجوف . وسار عـــدة خطوات نحو الجرحى وسأل « ما الذى تقوله ؟ من الذى سيأخذ راحة ؟ » .

وتوقف فيتياجوف واستدار نحو قائد الكتيبة وبعد أن شمله بنظرة خبيثة قال :

« كأنك لم تعرف إن الكل يعرفون لقد رجع فى الليلة الماضية سكوبتسوف واليوشين من مستشفى الكتيبة الميدان . لم يعد هناك جنود متخلفين وسنعطى راحة . وظل صامتا هنيهة ثم كرر : « مع السلامة يارفيق الكابتن ، لن ننساك أبدا » .

واستمر الجرحى فى سيرهم ، وراقبهم أكيموف لفترة طويلة . ثم تدلت رأسه وامتدت يداه بإيماءة مبهمة وتنهد وتقدم إلى الأمام .

كان الظلام يخيم بسرعة كما يحدث دائماً فى الخريف . وكانت طلقات الألمان تنطلق نحو السماء ـــ كان العدو يخشى هجوما ثانيا . وكان جميع الرجال صامتين فى الأودية والخنادق وقد رقد كل منهم حيث كان

واقفاً وقد توقف المطر، ولكن عند الساعة الواحدة صدر نداء قفز على إثره جميع الرجال وكان هذا ما رأوه :

كان هناك جنود جـــدد قادمين بجلجلة بنادقهم ، وصلصلة أوعية الميس ، وأحذيتهم تسحق الوحل، وقد تأنقوا فى ملبسهم وأعدوا إعداداً حسناً إن لم تبد عليهم السعادة تماما ، ولكنهم لم يكونوا على أية حال مكتئبين. وقد ابتسموا للمظهر الحزين للرجال الذين كان عليهم أن يحلوا محلهم ولم يكن عندهم أدنى شك فى سبب كآبتهم عندما نفذت إلى أنوفهم الرائحة اللاذعة للبارود والنار . وفهموا تماما أن فى انتظارهم مرحلة صعبة . ولكن لم يمس الرعب قلوبهم عندما استقروا فى الخنادق التى بناها غيرهم . وتدفقوا فى كل الفتحات والخنادق ، بما فى ذلك تلك التى استولى عليها فى ذلك اليوم من العدو ، وانهمكوا وهم يثبتون أشياء هنا وهناك ، واعتبروا أنفسهم فى بيوتهم ، وبدلوا أحذيتهم وهم يقبعون ويتنهدون .

وكانت كلماتهم التوديعية التى قيلت بلا حسد أو حقد ، عندما اصطفت الكتيبة وابتعدت فى ظلام الليل : « راحة طيبة لكم » . .

الفصل الرابع

حب

— ١ —

كان قطار الجنود ينطلق نحو الشرق بسرعة متوسطة ، تلاثم قطار جنود غير ذاهب إلى الجبهة بل تاركا إياها وراءه . وجلس الرجال أو وقفوا طوال اليوم وهم يتزاحمون بالقرب من الأبواب المفتوحة ليتمتعوا بالهدوء التام للحقول الواسعة الداكنة ، واسراب الطير تطير نحو الجنوب . وتتعاقب أشجار البتولا الذهبية مع أشجار الموسكى الخضراء ، وبين حين وآخر تلوح شجرة أجاص حمراء رطبة بالقرب من بئر . ولكن لم تكن الأشجار هى التى بعثت هذا التأثير المهدىء الذى يبعث السلام فى نفوس الجنود — فقد رأوا الكثير من الأشجار ومن كل الأنواع — ولكن هو منظر المحطات وأضواء الإشارات وأكشاك الإشارة والمستودعات ونظام السكة الحديدية الذى يسير بانتظام وقد نسى الجنود تقريبا ، لتعودهم على السير الطويل والرحلات فى اللوريات ، أنه يمكن للشخص أن يسافر بالسكة الحديدية مع أنهم كثيرا ما عبروا خطوطاً حديدية دون أن يشعروا أثناء القتال .

وأثار فيهم منظر القرى الهادئة والحقول السنجابية وصفير القاطرة وطرق العجلات شعورا بالهدوء، وكان نومهم عميقا متواصلا. وقد حلموا بالقطط الصغيرة والدجاج والأطفال وكلها تتجول لسبب ما فى أودية طويلة مبتلة.

ولم يكن يستيقظ بالليل سوى الرجال الذين كان عليهم أن يحافظوا على استمرار النار فى المواقد الحديدية. ونام الآخرون نوما عميقا — لقد مرت عليهم ليالى كان عليهم أن يعوضوها. ولم يكن يوقظهم غير البرد، فقد بدأ يشتد فى الصباح، فتجدهم يقفزون من مضـــاجعهم ويجرون حفاة الأقدام نحو الموقد ليتمتعوا بتدخين سيجارة من الماخوركا الحامية أويتثاءبون ويتمددون وهم يلبسون أحذيتهم، ولا تكاد تأتى أول محطة حتى يندفعوا إلى الميس بعربة المطبخ، ويتناولوا إفطارهم بلا شهية ثم يقضوا بقية النهار نائمين أو ينظروا إلى السهول وهى تمر بهم ويستنشقوا هواء الشتاء النظيف الرطب بجرعات عميقة ملهوفة.

ولم يكن أحد منهم يعرف إلى أين هم ذاهبون، ولم يهتم أحد بذلك أيضا — ولم يكن قائد الفرقة نفسه على علم بمكان وصولهم. ولم يكن القواد الحربيون فى المحطات الكبيرة يعرفون شيئا سوى ما يحتاجون لمعرفته — وهو المحطة الكبيرة التالية التى يجب توجيه القطار الحربى رقم كذا إليها.

وقد أعفيت الكتيبة الأولى ، التى أرهقت فى المعركة الأخيرة ، من كل الواجبات فى القطار ، وكانوا ينامون خمس عشرة ساعة يوميا ، وكان أكيموف يرقد فى مضجعه طوال الوقت تقريبا ، ونادرا مايستيقظ منه ، وكان ما يبورودا الصامت يحضر له طعامه ، وينصرف ، دون أن يجازف بالبدء فى مناقشة مع قائد الكتيبة، الذى كان فى أحد الحالات النادرة من الكآبة البائسة التى كان من الأفضل أثناءها الابتعاد عن محاولة الكلام معه .

وكان مضجع أكيموف بجوار النافذة ،وكان ينظر خلالها ساعات طويلة دون أن يظهر أقل صوت يدل على إستيقاظه . ولم يكن هناك من يجرؤ على الكلام فى العربة ، وحيث أن السكون كان مخيما على ضباط الكتيبة وهيئة القيادة الذين كانوا مسافرين مع أكيموف ، فقد تسلل الرجال إلى العربات المجاورة . وبقى مايبورودا لذلك وحيدا ، وأذعن بلا ضجر . وكان يواصل إشعال الأتون وتسلية وحدته بعد ما تمكن أخيرا من الحصول على خشب حريق حقيقى . وبين حين وآخر ينظر إلى أعلى وينصت عندما يقول قائده شيئا أو يقوم بأى حركة.

وفى اليوم الثالث ، نزل أكيموف وطلب ماء ليغتسل . ثم استفسر، « هل كوزنكين لم يزل حيا ؟ »

« نعم »

« وفايزولين ؟ »

« جريح »

« من الذين نسافر معهم ؟ »

وأجاب مايبورودا وهو ينهض : « الكتيبة الأولى والثانية وقيادة الآلاى » ثم بدأ فى سرد الأنباء . إن الآلاى يسافر فى قطارين ونحن فى القطار الثانى . وقائد الآلاى فى القطار الأول مع الكتيبة الثالثة المدفعية ، وكذلك الطابور الثانى . وعندما كنا فى الجبهة كانوا هم فى المؤخرة ولكن عند ما تركناها أصبحوا فى المقدمة . والفرقة مقسمة فى عشرة قطارات . ويسافر واحد كل يوم . ولقد أحضرت لك بعض البيرة من إحدى المحطات اشربها يارفيق الكابتن . وإلا ستفسد . لقد اشتريتها بالمال . . . لقد مر زمن طويل منذ آخر مرة ابتعنا شيئا »

وشرب أكيموف البيرة فى صمت . وكانت فى الغالب المرة الأولى التى شربها منذ بداية الحرب .

وواصل مايبورودا كلامه « ولكن من الجميل أن تعيش بلا نقود، وأن تحصل على كل ما تريد مثلما فى الجبهة — الملابس والمؤن الطبية . ولولا الحرب . . . »

وكشر أكيموف وقال ، « إنك بهذا لا تبالى أن تعيش على الجراية ولكنك لا تريد الحرب ؟ فماذا عن العمل ؟ »

وأجاب مايبورودا مغتاظا : « العمل ؟ ماذا ، إنه لايمكن أن تعيش بلا عمل » .

واستمرأكيموف قائلا : « حسنا ، إن هذا تقريباً شيوعية . لاحرب

وعمل سلبي ، وجراية مثل الجبهة تماما ، يبدو أنك شيوعي عن عقيدة ياجاويش مايبوروودا »

وتمتم ما يبوروودا دون وعي :« هذا هو ما أعنيه» .وبعد صمت قصير استمر في سرد الأخبار المحلية : « لقد زارك البعض : مهندس الفرقة ، وشخص له إسم كاسم الطيور سرش أو يقارب ذلك ، نعم .. دروزد . وقد جاءت المترجمة معهم . وسألت عن حالتك . وكانت تريد أن أدير أسطوانة موسيقية كذلك ، ولكنني كنت قد قذفت بها عندما رحلنا. ولا أحد يعرف إلى أين سنذهب ، ويقـــول البعض إلى موسكو . للاصلاحات طبعا .

« هل هم معنا في هذا القطار؟»

« من ؟ »

« حسنا ـ أعني ـ دروزد والآخرين»

« أوه . نعم . »

وفي المحطة التالية نزل أكيموف ليتمشى قليلا . وسار بجوار القطار، وكان رصيف المحطة المهدم مليئا بالجنود الصاعدين والهابطين . وكانت هناك مجموعة من الضباط تقف بجوار كشك ، وقد عرف أكيموف بينهم انيشكا مباشرة . ثم نادى أحدهم عليه . « يا كابتن أكيموف هل أخذت كفايتك من النوم أخيرا ؟ »

وأجاب باقتضاب : « نعم » .

واستدارت انيشكا نحوه وصاحت : تعال هنا يا أكيموف » ثم توجهت نحوه مباشرة وصافحته بحرارة . وقد خجل ، ولكنه تفحصها بفضول مشتعل . ما هو جوهرها على أية حال ؟ هل هى حقيقة كما بدت له فى أول يوم ؟

نعم إنها كما ظن . ولم يكن هناك سوى أنها تبدو أقصر قليلا فى ضوء النهار المعتم قليلا ، وليست متكبرة ومتباعدة بالدرجة التى كان يظنها ، ولم ير فى الطريقة التى حيته بها وأخذها الخطوة الأولى نحـــوه سوى إرادة قوية . أو ربمـا كان هناك شيء آخر ؟ وعلى أية حال فقد أحس فى تصرفاتها نوعا من السمو شعر به . وبرغم صغر سنها وبرغم خصلة الشعر السمراء النحاسية التى تتدلى من تحت قبعتها المصنوعة من الفرو على حاجبها الفاتح الأملس تماما أو المقوس إلى أعلى ، برغم كل ذلك كانت تتصرف كأنهـــا أعلى مقاما من الجميع وحتى إخلاصها غير المنتظر نحو أكيموف فيه نوع من التسامح .

وسأل المهندس فيرسوف بدهشة : « ألم تحلق ذقنك بعد؟ لقد حان الوقت لتعتنى بهيئتك قليلا »

وأجاب أكيموف وهو غائب الفكر « نعم ، هو كذلك سأزيلها ، لقد نسيتها »

وقالت انيشكا مؤيدة : « نعم ، حقيقة يجب أن تحلق . هنا حلاق في المحطة ،سننتظرك » .

وكان على وشك أن يجيب طلبها مباشرة ، إلا أن غريزة عنيدة شريرة اضطرته أن يجيبا إجابة باردة وإلى حد ما عدائية « إن ذقني لا تعوق طريقك ، أليس كذلك » ؟

وقد ادهشتها وأغاظتها هذه الإجابة ، ولكنها تمالكت نفسها وقالت بحدة : « إن الخشونة لا تلائمك تماما كذقنك » ، « ثم سلطت نظراتها على وجهه مباشرة وأضافت : « لا داعي لأن تكون بذيئا » .

ولم يجب أكيموف وعاد إلى القطار مكتئبا . ولم يستطع أن يتصور سبب فظاظته نحوها . ولكنه عرف بعد ذلك أن هذه الفظاظة إنما كانت بسبب إظهارها شعورا كبيرا نحوه . نعم ،ان ذلك هو السبب. لم يكن يريد منها أن تعامله كما تعامل الآخرين . وربما كان هناك شيء آخر كذلك . فقد تذكر أنه قد أحس بنوع من المداعبة في صوتها . وإذا كان في إمكانها أن تداعبه وهي لا تعرفه تقريبا ، فإنها يمكن أن تكون كذلك مع أي شخص . وقد ملأه ذلك بشعور رديء بالغيرة .

وبدأ يفكر : « إنني أعترف . إنى أحب هذه الفتاة ، وأحبها لدرجة كبيرة بحيث لا أتحمل مغازلتها حتى لنفسي » .

وقد مات ريميزوف الشخص الوحيد الذي كان يمكن أن يشاطره

أفكاره . ماذا كان سيقول ؟ هـذا ما كان يحاول أكيموف أن يخمنه بينما كان يرقد فى مضجعه .

ربما قال ريبزوف: « يا زميلى العزيز . هنـــاك أشياء لا يمكن أن نتفاداها . وليس من الضرورى أن يعنى ذلك أنها سيئة . وإلى جانب ذلك ، لمـاذا لا تعترف أنك تركت فى نفسها أثرا حسـنـا ؟ أنها فتاة مؤدبة وجميلة كذلك . ولا تبالغ فى (حالة) الحياء . فأنت لست حيا بدرجة تجعلك تظن أنك غير جدير بحبها . وعلى العكس ، فإن عيبك أنك مغرور جدا ، ومن هنا تأتى كل شكوكك . انك تريد أن تتأكد أنهـا تهتم بك . وإذا كان الأمر كذلك . فإنه يمكنك أن تذهب إليها وتتأكد منها . وفى الغالب يمكنك أن تسيطر عليها وتتظاهر بأنك لا تهتم بها كى تجعلها تحبك أكثر . انى أعرف هذه اللعبة ، عندما يحاول الرجل أن يجعل الشخص الذى يحبه تابعا له ، وأن يجعل منها عبدا ، ولو أنه يتألم بالشفقة عليها » ومن المرجح أن صوت ريبزوف كان سيكون له رنينا صلبا وكان سينهى كلامه قائلا : « يجب أن تعرف أن ذلك إحياء لفكرة الرأسمالية عندك ، والتى يجب أن تجتث » .

وضحك أكيموف ضحكة هستيرية ، فإن ذلك ما كان سيقوله الكابتن ريبزوف تماما إذا كان حيا .

وفى المساء ، وقف القطار فى روزلا لى ، وجاء الكابتن لابزين قائد

الكتيبة الثانية ليرى أكيموف . وصعد إلى مضجعه وهمس فى أذنه :
« تعال معى . انى أعرف فتاة تعيش هنا بجوار المحطة تماما . انى أكتب إليها منذ عام . فلنذهب لنطل عليها . إن القطار سيبقى هنا ثلاث ساعات . لقد سألت . . . »

وكان أكيموف على وشك أن يسأل : « ولماذا تريد صحبتى » ؟
ولكنه قال فجأة « حسناً » . وقام وارتدى ثيابه .

وسارا فى طريق جانبى تحف به أكشاك السكك الحديدية . ثم استدارا فى طريق آخر وتوقفا أمام حديقة بها شجرة لسان عصفور حمراء جبلية وحيدة . ودخل لابزين أولا فى منزل صغير متوسط وكان مضطربا قليلا لأنه لم يكن قد رأى الفتاة من قبل وقد ظل يراسلها منذ أن تسلم خطابها المعنون إلى : « أحسن ضارب رام فى الفرقة » وقد كتب الخطاب كألوف غيره للترفيه عن الكاتب وتشجيعه أكثر من المرسل إليه

وكانت الغرفة مؤثثة بالضروريات الأساسية فقط ، مضاءة بشمعة . وقد رحبت امرأة طويلة ونحيفة نوعا تبلغ الثلاثين من العمر بالضابطين ، وكانت ملامحها مرهقة وشعرها الأشقر البديع مجدولا ومنسقا على شكل أكليل على قمة رأسها . وجعلها ذلك تبدو أصغر وكأنها لم تبتعد كثيرا عن مرحلة الشباب .

وقد تأثرت المرأة كثيرا بقدوم الضابطين ، وكان أحدهم يمكنه أن يعتبر نفسه صديقها . وبعد تبادل الكلمات الأولى ، زال ضيق لابزين وارتفعت معنوياته . وأخرج زجاجة فودكا وبعض الطعام وقد سماها هو لسبب ما قضمة . وقد هز ذلك أكيموف .

وقال لابزين . « نادى إحدى صديقاتك يا ناتاشا ، وسنجلس هنا ونتسامر » .

وألقت ناتاشا بشال داكن على كتفيها وذهبت . ونظر لابزين بقلق نحو اكيموف وسأله : « حسنا ، ما رأيك ؟ لا بأس بها ، أليس كذلك » ؟ .

وكان دائما يتخاذل فى حضرة أكيموف ، والآن ولو أنه لم يسحره بأى حال مظهر ناتاشا — فقد كانت تبدو أصغر بكثير فى الصورة — إلا أنه كان يريد أن يعجب بها أكيموف ، الذى كان يجلس متبلد الحواس وهو يضع رأسه الضخم بين يديه ، مما جعل لابزين فى حالة عصبية .

وبعد عشر دقائق عادت ناتاشا ومعها صديقة ، وقد فزع أكيموف عندما عرف أن اسمها آنيا . وقد كانت طويلة ولها عينان رماديتان فى وجه شاحب .

وجلسوا حول المائدة وشربوا . واختفى الكابوس والخجل .

وقال لابزكين أشياء مضحكة وكان يمدح دائما أكيموف ويستخف بنفسه .

ولم يتكلم أكيموف كثيرا ولكنه لم يلبث أن ارتبك عندما عرف أن ناتاشا تفضله على لابزكين فلم تتكلم إلا معه ، ولكنها كانت معظم الوقت صامتة مثله تماما . ولم يلبث لابزكين أن أحس بتفضيلها لأكيموف ولكنه لم يغضب . فقد كانت أنيا تجذب انتباهه ولم يلبث الاثنان أن تركا المكان سويا .

وقد أحس أكيموف بالارتباك عند ما وجد نفسه مع ناتاشا . وقد غاظه ذلك من نفسه . ويبدو أنه لم تكن عنده الجرأة التى تنسب دائما للبحارة . وقد فكر ، « أظن يجب أن انصرف » ، ولكن لم تكن عنده الفرصة ليفكر ، فقد نفخت الشمعة وقالت : « ان إقليمنا مظلم ، فقد حطم الألمان محطة القوى الكهربائية .

ثم جلست بجانبه ثانية . وقد شعر كلاهما بارتباك القلق . وفكر فى انيشكا وقد اجفل سرورا : « لم يعد هناك أى شىء . لقد انتهى . نعم ، طبعا لقد انتهى . حسنا . لقد نسيتك . ان أعذب نفسى بعد الآن . إن هذا نهاية كل شىء . » وأمسك بيد ناتاشا وكانت ساخنة . كان كل جسمها ساخنا . كالنار .

ثم قالت شيئا آخر . وتنهدت . . .

ورقد بجوارها . وذهنه خال تماما . وفكر وهو ينظر بلا وعى إلى جدائلها التى تفككت ، « ان كل شىء سيصبح على ما يرام الآن » . وقالت هى بصوت منخفض ، « شكرا ، إنك لطريف »

لقد شكرته على عواطفه الرقيقة غير الشعورية ، وليس على ما حدث قبل ذلك .

وقالت ، « إنى سأشتاق لك باستمرار ، للغاية »

وقد صدقها رغم تعارفهما بالصدفة العابرة . وكانت تعتقد أن القدر قد دبر ما كان يعتقد هو أنه مجرد صدفة ، وكان وجهها يبدو مألوفا وجميلا رغم أنه لم يرها قبلا . وقد أنب نفسه على معاملته لها كشىء بلا روح أو شخصية يطفىء به عواطفه وخطر له فجأة أنه يمكنه أن يعيش معها إلى الأبد ويصبح سعيدا . وكان يشعر فى أحضانها ويقرأ فى عينيها المتسعتين قصة حياة موحشة . إنها الحرب ، ولكن ناحية أخرى منها .

وذكره صفير قاطرة قريبة بمكانه وجعلته يسرع وألقت هى بشالها على اكتافها وخرجت معه .

وكان القطار يقف هناك قاتما صامتا . والقاطرة مستعدة أمامه ، تقذف بحزم من الشرر .

ووقفا هنالك فى الظل القاتم لمبنى المحطة . ولم يكن عندها الحق أو القوة لتبقيه ولو دقيقه واحدة : وألقت برأسها على صدره فى الظلام . وتمتمت له ، بتألم غير مصطنع السلامة إلى الأبد . ونظر إلى رأسها ،ولم يجد فى ذهنه أية فكرة شريرة ، بل شعر بالشفقة والحيرة .

— ٢ —

ورأى أكيموف بجوار عربته شبحاً وحيداً

وسمع صوت مايبورودا يسأل : « هل هذا أنت يا رفيق الكابتن ؟ » .

«نعم . لماذا لم تنم ؟ أذهب وأرقد»

« لقد كنت انتظرك »

« حسنا . ها أنذا »

ودخل مايبورودا ولكن أكيموف ظل بالخارج . ففى مكان ما فى مقدمة القطار كان هناك صوت عذب يغنى مع موسيقى قيثارة . وظن أكيموف أنه عرف فيه صوت دروزد ، وضحك عندما خطر له أن انيشكا قد سألت مايبورودا عن الاسطوانات . وذكر « أنه إن لم يكن عندك عندليب فعليك أن تقنع بسمانة » وعلى كل فإن صوت دروزد لم يكن قبيحا على أية حال .

وبينما كان أكيموف يستمع للغناء فكر فجأة فى أن دروزد كان قطعا يحب أنيشكا . وعلى كل فقد اكتأب عند سماع القيثارة البعيدة المنخفضة ورغب فى الذهاب إلى أنيشكا . وحاول أن يتخلص من الفكرة بتذكر ناتاشا وحظها فى الحياة الموحشة ولكنه تأكد الآن أن لقاءه لناتاشا لن يساعد على تهدئة ثورته أو ابعاد فكره عن أنيشكا .

وكان يمكن رؤية لمبات رجال السكة الحديد وهى تهتز فى الظلام . وسأل شخص ما ، « هـــل سيقوم القطار سريعا ؟ » وأجابه آخر ، « ستبقون هنا حوالى نصف ساعه أخرى — فإن الطريق مقفل » .

وسار أكيموف بجوار القطار ووصل أخيرا إلى الباب نصف المفتوح للعربة التى توجد فيها هيئة القيادة . وكانت القيثارة قد توقفت عن العزف . وكانت تأتى من الداخل أصوات خافتة . ووقف أكيموف برهة بالباب ثم دخل أخيرا .وكان الموجودون يجلسون حول الموقد الذى كانت ناره مشتعلة تماما .

وقال فيرسوف : « آه ، يارفيق أكيموف . تعال وأجلس بجوار نارنا »

وأجهد أكيموف أذنه ولكن لا . لا يوجد صوت امرأة . ومع ذلك فقد شعر أنها هناك تجلس صامتة فى مكان قريب . وكان ذلك واضحا من تصرفات الرجال والتحفظ الذى يتكلمون به . وانتظر أن

يقول لها أحدهم شيئا أو يسألها سؤالا ليسمع صوتها . ولكن أحداً لم يفعل .

وكان على وشك أن يرجع مكانه عند ما تحرك القطار وصفرت القاطرة . وكان يمكنه طبعا أن يقفز من القطار بسهولة ويتسلق عربته قبل أن يستجمع القطار سرعته ، ولكنه لم يكن يريد أن يذهب ، واغتنم لنفسه الحجة ليبقى .

وظلت إنيشكا صامتة ، وهي تجلس في ركن مضجعها . لمجرد وجود أكيموف . وكان من الصعب عليها أن تحدد شعورها نحوه . ولكنها كانت تشعر دائماً بوجود سر خاص بينهما ، شيء لا يعرفه أي شخص آخر : ربما أنها قد رأته وهو يبكي .

لقد كان طبعا بطلا حقيقيا . ولكن لقد كان الرجال الآخرون الذين يجلسون هناك أبطالا كذلك . فقد وصل دروزد خلف خطوط الأعداء مرات عديدة . وكان فيرسوف مهندسا متمرنا وشجاعا وغامر بحيــاته آلاف المرات . وكذلك كل الآخرين . وتكلموا سويا ، مستعيدين المعارك السابقة ، وهم يخمنون بصوت عال ما كان سيحدث لهم في المكان الذي كان عليهم أن يكسبوه — وكانت محادثتهم بالاختصار عادية تماما . ولكن انيشكا كانت تعرف أن محادثتهم لم تكن عادية بهذا الشكل بسبب قلة ذكائهم ، ولكن بسبب التحفظ

والاحجام وقلة الخبرة فى سرد الأشياء بشكل لطيف . ورغم الظلام ، رأت كل شخص وهو يجلس هناك . كل شخص عدا أكيموف . فكان يبدو غامضا ، عميقا ، عويصا ومختلفا عن الآخرين . ولم تدرك سبب ذلك إلى أن طرأت لها فكرة جعلتها تبتسم فى الظلام « نعم فى الحقيقة إننى أميل اليه »

وعلى كل ، فقد حاولت أن تعرف لماذا تميل إليه . ووصلت إلى نتيجة هى أن الذى يؤثر فيها منه هو الجمع بين القوة الجسمية والعقلية . لقد كان رجلا يمكنك أن تعتمد عليه ، تكون معه فى أمان تجاه مصائب الحياة وأحزانها . ولكن ألم تكن هى تشعر نفسها بالقوة والمقدرة الكافية إلى حد كبير؟ نعم ، لقد كانت ، وكانت تعلم أن القوة التى تكمن داخلها تساوى قوته. وكانت مسوقة إليه بأفكار ذات نبل لا يحد ، كالذى يشعر به المطر ، إذا أمكنه التفكير ، عندما يسقط على الأرض

وكانوا يتكلمون بالصدفة عن أكيموف قبل أن يحضر مباشرة . وكان الكل يمدحه كثيرا ما عدا دروزد ، الذى كان يتكلم عنه بسخط إلى حد ما . فقد قال مثلا أن أكيموف مغرور وفظ ، وأحدث ضجة كبيرة عن خدمته فى البحرية .

وكان سبب هذا الاتجاه هو أن دروزد كان يحب انيشكا بعنف

وغيرة وكان يخاف أن تميل إلى أكيموف ، مثلما يميل إليه كل شخص بما فيهم دروزد نفسه .

وكان كابتن دروزد شخصا ممتازا ، وضابطا شجاعا كفئاً . ولكن يبدو وكأنه يحاول أن يظهر أسوأ مما هو ، لأنه كان يظن أن رجل الاستطلاع يجب أن يكون معتمدا على نفسه وطلق اللسان . وكان يتأجج غضبا كالشعلة ، ببشرته الداكنة كبشرة الغجر وبعينيه السوداوين المتقدتين ، لأتفه شيء . وكان يفكر بهدوء وتهدأ قوته فقط عندما تكون عنده مهمه حربية . وكانت انيشكا تميل إليه فعلا فى هذه الأوقات . وقد استعمل معها أولا أسلوب المزاح الطائش الذى كان يصطنعه دائما ، ولكنه لم يلبث أن عرف خطأه — وكان أول ماصدمه هو أنه وجد رجال الإستطلاع مع فظاظتهم الناتجة عن خبرتهم الحربية ، لايسمحون لأنفسهم بأى حديث خليع أو تلميحات جارحة فى وجود المترجمة الجديدة ، وقد جعله هذا يراقب نفسه. وبدأ يلاحظ انيشكا باهتمام بالغ. وقد أثرت فيه شجاعتها بعمق ؛ واعتمادها على نفسها وازدراؤها التام لأى نوع من الغزل . ولم يكن ذلك يقلل من سحر أنوثتها . الذى كان له تأثير مدهش على دروزد . وكان لونها يبهت قليلا وتتمتم بجملة حزينة « أوه . كم هو فظيع » عند ما تنفجر قريبا منها قنبلة أو تقترب طائرات الأعداء ، ولكنها كانت تستمر فى عملها بنفس الرزانة والاتقان.

وكان قلبه يهتز عندما يسمع هذا التعجب « أوه كم هو فظيع » وكان في الحقيقه غالبا ما يتمنى ستارا شديدا من النيران ليسمع هذه الكلمات. فقد كانت تبدو له أضعف عندما تقول هذه الكلمات . وبذلك تكون أقرب وأسهل منالا له .

وكان شعور دروزد نحو انيشكا يجعله يخاف أكيموف . وكانت قوة أكيموف في صراحته فلم يكن يتظاهر أو ينافق أبدا أو يلائم نفسه مع الناس . وكان على الناس أن يلائموا أنفسهم معه .

وكانت شخصية أكيموف متجانسة تماما ، ومع ذلك فقد كان فيه شيء غامض ومعقد . فلم يكن كما يبدو للنظرة الأولى قطعة ماس خام ، ولم تكن استقامته بأية حال دليلا على البدائية ، ولكنها كانت صفة شخص لا يريد أن يدخل نفسه في أى غموض .

وكان دروزد كذلك يبدو للنظرة الأولى قطعة ماس خام . فكان يقول لك في وجهك وجهة نظره فيك . ولكنه كان مظهرا فقط وهو يشعر به أكثر من أى شخص آخر . وفي الحقيقة كان على استعداد لأن يذعن لمن أمامه . ولم تكن صراحته طبيعية تماما ، فقد كان يرغم نفسه على الصراحة ، وكان ذلك يكلفه مجهودا . فقد كان يرغب في أن يكون لطيفاً مع الناس ، ليحبوه ، ومن ذلك كان غالبا ما يرائى وكان في قرارة نفسه يعتبر نفسه مجرد ممثل ، « دبلوماسى » وكان هذا يحز فيه باستمرار .

وكان أكيموف قائدا ورئيسا مجبولا وكان دروزد يريد أن يكون قائدا، ويحلم بهذا، ولكنه كان ضعيفاً جدا ومتهالكا تماما على مظاهر الرياء والخشونة، وبالاختصار، لم يكن له خطة ثابتة فى تصرفاته .

ولم يكن دروزد قد لاحظ شيئا خاصا فى تصرف انيشكا نحو أكيموف أو أكيموف نحو انيشكا، ولكنه كان يخاف أن يتوافقا تماما مع بعضهما، لأنه كان يعتبر أكيموف رجلا أحسن منه وأن انيشكا جديرة بالأحسن .

وكان دروزد ينصت بانتباه لأى شىء يمكن ان تقوله انيشكا أو أكيموف بينما كان يجلس فى العربة المظلمة الدافئة ويشترك فى المحادثة الحية . ولكنهم ظلوا دون أن ينبسوا بكلمة . وكان يحس فى صمتها نفسه رباطا غير متطور بينهما . ولكن ذلك كله كان مجرد تخمينات بحيث كان يظن أحيانا أن الارتباط لا يوجد إلا فى مخيلته .

ولكنه كان مخطئا فى ذلك — فقد كان هذا الارتباط موجودا فعلا .

وتكلم أكيموف أخيرا .

وقال : « عندما كنت صبيا، كان حلمى أن أسافر فى قطار مع جنود وكان أجمل ما يمكننى تصوره هو أن أتمكن من أن أكون فى قطار مع جنود » .

وفكرت انيشكا وهى تنصت لصوت أكيموف أكثر من انصاتها لكلماته « لا ، لا يمكن لرجل شرير أن يتكلم بهذا الشكل » .

واستمر أكيموف فى كلامه . « ولكنى الآن لا أحس بالبهجة على الإطلاق . فإنى فى خوف دائم من أن يتخلف أحد الرجال أو يسقط . وبوجه عام ، فمن الأحسن أن تكون جنديا عاديا فى الجيش . فرغم قسوة حياته ، فإن هناك من يرعى مصالحه . وربما ليس من الطبيعى أن يتمنى كابتن أن يرجع من جديد من حيث بدأ ، ولكنى بأمانة لا أريد أحيانا أن أفكر فى أى شىء أو أن تكون على أية مسئولية تجاه أى شخص » .

وكان أكيموف يتكلم بهذه اللهجة الحنونة الصادقة التى يتكلم بها فى الأوقات العادية . وتعجب كيف يتكلم فى هذه الموضوعات العادية بعد ما حدث منذ ساعة فى المنزل الصغير المتوسط بجوار المحطة . وفكر « أى عيب ، أن يتمكن إنسان من أن يخفى أسراره الرديئة » ، وتسلط عليه فجأة خزى مشتعل ، وفكر فى أنه كان من الأوفق أن لا تكون عنده أسرار رديئة . ولكن ذلك ليس بالسهل .

وسأله أحدهم : « فيما كنت تفكر فى ذلك اليوم ، عندما أرسلت الرجال للهجوم » ؟

« انى لا أذكر »

وقال جوساروف « من الفظيع أن ترسل الرجال للهجوم . فإنك ستخشى ألا يذهبوا »

وأجاب اكيموف « إنى لم أكن خائفا ويجب ألا تفكر فى ذلك . وإذا فكرت بهذا الشكل فإن الرجال لن يذهبوا ، فسيحسون بها ويكون هجومك متراخيا . ويجب أن تتأكد من أنهم سيذهبون جميعا كرجل واحد . ويجب أن ترسلهم لذلك فى الدقيقة المناسبة وإلا ستكون الحرب عبثا . وهذا بالضبط كالسياسة فإن عليك ان تعطى النداء الملائم فى الوقت الملائم » .

وكان دروزد يفكر فى ذلك الوقت « كيف يتكلم كمحاضر من المكتب السياسى ، ويؤثر ويعرف ما يتكلم فيه » .

وأضاف أكيموف بعد فترة صمت : « إن هذا ما كان يقوله لى ريميزوف دائماً » .

وعلق دروزد لنفسه باكتئاب « لقد اختار الوقت المناسب لتقدير ريميزوف . وهو يعرف أن بعض التواضع لا يضر . إنه لشخص ماكر. لعنة الله عليه » .

وبدا جوساروف يحكى عن حادثة كان من المتوقع أن تحدث فى مدينة ريبيفسك : فقد وجد جندى عند عودته من المستشفى رجلا غريباً

مع زوجته ، فقتل زوجته بالرصاص . وقيل أن المحكمة برأته على أساس أنه محق فى تصرفه .

وقد وافق الجميع تقريبا على الحكم . وقال أكيموف وحده بصوت بطيء : « وهو فى الغالب لم يكن يترك أى فتاة سواء فى المستشفى أو فى الجبهة » .

وقد جرهم ذلك إلى مناقشة عن أخلاق الزوجات هنـــاك فى مساكنهم . وناقش دروزد أكيموف بشدة ، مع أنه كان يعلم تماما أن أنيشكا التى كانت تجلس هناك دون أن تنبس بكلمة كانت لن تتردد فى أن تسـاعد أكيموف . واشتعل غضبه وفكر . « انه قد أخذ جانب النساء ليرضيها . مظهرا نفسه كشخص رفيع يدافع عن النساء » .

وسأل أحدهم أنيشكا : « ماذا تظنين فى هـــذا الموضوع يارفيقه بيلوزيوروفا ؟ »

وتظاهرت بأنها نائمة ولم تجب . وقد ملأها الخوف ، عندما سمعت كلام أكيموف ، من أنه يحتمل أن يختار كشريكة لحياته امرأة غير جديرة به . وقد ملأها الفكرة بأسف غريب كاد يمزقها ولو أنه على غير أساس كما يظهر .

— ٣ —

ووقف القطار فى باكورة الصباح التـالى فى محطة صغيرة . ونزل

أ كيموف إلى الرصيف،لفشله فى أن ينام.وكان كل ركاب القطار لازالوا نائمين ، وقد خرج قليل من الجنود الكبار السن وجلسوا يدخنون على الرصيف المغطى بالحشائش .

وتوجه الكابتن لابزين نحو أ كيموف وبدأ يحكى مباشرة كيف انتهت مغامرته فى اليوم السابق ، لقد فشلت ، لأن المرأة كانت ذات خلق قوى . ولكن لابزين حكاها كأنها انتهت بنجاح تام، وبغرور لا معنى له . وقد احرج أ كيموف وخجل أن يسمع ذلك وقطع الكلام قائلا : حسنا يكفى هذا فلنترك الماضى فليس فيه ما يثرثر فيه ، انهن نساء وحيدات بائسات وإنى لآسف لهن وهذا كل مافى الأمر».

وصفر القطار . وصعد لابزين مكانه ، واندفع الجنود إلى أماكنهم ، وتحرك القطار . وكان أ كيموف قد وضع يده على مقبض الباب وهو يستعد للصعود عندما راى انيشكا تجرى فى المحطة نحو القطار وكان فى يدها إناء الميس وبه لبن يتدفق على الأرض . ولم تكن تلبس معطفاً بل زيها الرسمى الأخضر الزيتونى ذا الأشرطة الرفيعة على الأكتاف . وكانت ترتدى حذاء ذا أربطة بدل الحذاء الطويل . ولاحظ كيف كانت حركات أرجلها الطويلة المليئة خفيفة ورشيقة .

وترك أ كيموف المقبض ووقف ليرى إن كانت أنيشكا ستلحق بالقطار . وعندما وجد أنها لم تتمكن،اتجه نحوها . وكان يشعر خلفه بالقطار يجرى

أسرع فأسرع وكان يسمع من كل عربة تمر به صياحا: يارفيق الكابتن إقفز إلى القطار » .

ولم يقم بمجرد الالتفات . وراقب أنيشكا ، وقد شعرت أخيرا بأنها لن يمكنها اللحاق بالقطار ، فبدأ عدوها ثم توقفت يدها على فمها كأنها توقف نفسها عن الصياح . وكان يظهر عليها تعبير مضحك من اليأس جعل أكيموف يبتسم . ولم تلاحظ وجوده إلى أن اختفى القطار وكان يقف فى مواجهة عيدان شعير صفراء مزروعة .

وتضاءل هدير القطار إلى أن أصبح قعقعة خافتة ، وسارا ببطء تجاه بعضهما .

وتساءلت أنيشكا : « لقد فاتك القطار أيضاً » ؟

« نعم »

« إننى سعيدة جدا . سيكون الوضع أحسن لأننا سويا . هل تعرف متى سيقوم القطار التالى ؟ »

« لست متأكدا . انهم يقولون قطارا واحدا فى اليوم » .

« وبذلك لايمكننا أن نرحل سوى غد . أين يمكننا أن نقيم ؟ »

« فى المحطة »

« ليس معى نقود . هل معك ؟ »

« لا »

وضحكت بانبساط ثم فجأة أصبحت جادة تماما وسألت : « هل تخلفت من أجلى » ؟

« نعم »

وصمتا . ثم حاول أن يشرح لها لماذا عمل ذلك : « لم أتصور كيف سيمكنك التصرف وحدك تماما . . . »

وقد أسفت من أجلى ؟

« إن كلمة الأسف لاتعبر عن الوضع . لقد فكرت فى أنه ليس من المناسب أن أتركك وحدك » .

وقالت . دون أى تهكم فى صوتها : « لم أكن أتصور أنك بهذا اللطف . شكرا جزيلا . نعم ، ستكون الحالة أحسن ونحن معا ، بالتأكيد . »

وقال : « سنحاول أن نرحل اليوم . ربما جاء قطار وأمكننا اللحاق بقطارنا » .

ولكن اعتراها الخوف فجأة .

لقد نسيت . ربما وقعت فى أشكال . فقد تركت كتيبتك . وهذا كله بسبب هذا اللبن . لقد تشوقت فجأة لشرب اللبن » . ونظرت إلى وعاء الميس وقالت بجد تام « هلا أخذت قليلا من اللبن ؟ »

وضحك وكذلك فعلت هى . ثم خجلا مباشرة ، وتلفتا حولهما

ليخفيا خجلهما . وكانت حقول الشعير تمتد حولهما ولم ينضج بعضها بعد ، ويؤدى ممر ، فى مواجهتها تماما ، خلال أحد هذه الحقول إلى غابة صغيرة من البتولا يصدر عنها حفيف وصوت بفعل الرياح وتحتوى المحطة الصغيرة على منزل صغير من الطوب له شرفة صغيرة وكتب عليه كلمه « حصن مؤقت » ، وتحيط به أشجار معمرة . وتجلس على مقعد قريب امرأة مسنة جدا ومعها زجاجتان كبيرتان من اللبن . وكانت هى المسئولة عن المشكلة التى وقعا فيها .

وكان أول ماعملاه هو ذهابهما إلى المحطة وسؤالهما الناظر عن ميعاد القطار التالى . ولما كان لا ينتظر وصوله قبل وقت طويل فقد ذهبا ليتنزها قليلا .

وتوجها نحو قلب غابة البتولا لقد كانت مغطاة بأوراق صفراء . ولا زالت أوراق ذابلة قليلة عالقة بالأشجار والجمال يحيط بالمكان كله . وملأ رئتيهما بآثار شذا الخريف . لقد كانت أيام الخريف الذهبيه ، ويبدو أن كل شيء فى العالم كان كما يجب أن يكون . وكان ذباب الخريف يلسع بقسوة فى مبنى المحطة ، ونزل سرب من الغربان على الحقل ثم حلق فى الجو من جديد ، وهو ينعب بصوت مرتفع ، ويتجمع على الأشجار الكبيرة حول المحطة . وكان النحل يزيد فى طيرانه من أجل آخر رحيق فى الخريف . وكانت كل هذه المناظر للحياة الطبيعية تبدو شيئا جديدا

تماما على اكيموف وأنيشكا وجعلتهما يشعران بنفسيهما كأنهما إنسانين جديدين تماما .

ومشيا ببطء وبصمت خـــلال الغابة ، وهما يستعذبان أن تهرس أقدامهما الطبقة السميكة الرخوة الرطبـة من أوراق الخريف ، وأحس أكيموف أن الصمت ثقيل، وفكر أنه يضيع وقتا ثمينا ، وأنه أن لم يخبر أنيشكا بأنه يحبها ، فعليه إسعادها وتسليتها ، أو على الأقل أن يقوم بما يجذب اهتمامها بأى شكل ، وظل يفكر فيما يمكنه أن يقوله ، ولكنه لم يجد أى شيء مناسب ، وثار على نفسه وفكر بتهكم : « ان المغازلة صعبة ، أليس كذلك يا بافل اكيموف ؟ أنها تحتاج إلى مهارة . وليست كالحرب» .

وقد كان خير ما فعله ألا يقول شيئا ، ولو أنه لم يكن يعتقد ذلك . فقد سرت انيشكا من صمته . فما كانت لتحتمل أن تسمع كلاما فارغا من بين شفتيه .

ونظر من ركن عينيه إلى ذراعيها الرشيقتين وأصابعها النحيلة وقد قصت فيها الأظافر حتى النهـاية كأيدى الأطفال . وكانت إحدى يديها تحف جذوع البتولا بلا وعى بحفة طويلة وتهتز اليد الأخرى بوعاء المقصف . وكان عليه طبعا ، ولو من باب المجاملة أن يحمل عنها الوعاء ، ولكنه لم يكن بإمكانه أن يحمل نفسه على هذا النوع من الكياسة ، وقد سره أن يفكر فى أنه كرجل كان عليه أن يحمله عنها لأنها امرأة ولكنه

كابتن لم يكن من الصواب أن يتبع ذلك الأسلوب مع ملازم .

وكان يفكر فيها طوال الوقت أفكارا غريبة مثل . هل الفتاة التى تسير بجوارى هى نفس الفتاة التى كنت أفكر فيها ؟ ان الفتاة التى كان يفكر فيها باستمرار فى الأيام القليلة الماضيه كانت بعيدة . بعيدة جداً ولا يمكن أن تكون بجواره — ولكن الفتاة التى كانت تسير هناك كانت قريبة تماما ، وبجواره تماما . وكان يمكنه أن يأخذ يد الفتاة التى كانت معه ويتكلم معها ، ولكن الفتاة الأخرى كانت تعيش فى عالم مبهم ، وتتسلط على قلبه ، ربما كان رائعاً أن تجد الشخص الذى تحبه بجانبك لأنه كالطير الذى استقر برغبته فى يدك تماما ولكن مكانه الحقيقى عال فى السماء بعيد جداً عنك .

وكان أكيموف سعيدا ، وشعرت أنيشكا بذلك ، ولم تشعر بذلك لمجرد أنه قد تخلف عن القطار بسببها : فانه ببساطة قد تصرف بلطف — فأى ضابط أو جندى يعرفها ما كان سيصنع غير ذلك . ولكن الشىء المهم هو أن الذى عمل ذلك هو أكيموف . فقد كانت أنيشكا تعرف أن سببا قويا أو حالة خاصة فقط هى التى يمكن أن تجعله يتصرف هكذا : فلم يكن هو هذا النوع من الرجال الذى يتصرف هكذا لمجرد المجاملة .

وكانت تتلفت إلى أكيموف بين حين وآخر . وكانت إحدى يديه الكبيرتين التى لوحتهما الشمس تسحب بلا وعى زر جيب سترته .

وكانت يدها التى تحمل المحفة ويده التى على سترته قريبتان تماما من بعضهما وعندما نظر ليد انيشكا فكر أكيموف بأنها تذكره بشيء ما ، ولم يتمكن من أن يذكر ماهو بالضبط. ثم تذكر : ورقة صفصاف طويلة رشيقة بجانب ورقة صنوبر . والتقت أعينهما وابتسما وأرادا أن يقولا شيئا ، ولكن فجأة سمعا صوتا من ناحية المحطة . صوت شخص يبحث بقلق . .

« يارفيق الكابتن . يارفيق الكابتن »

وقال أكيموف وهو يتنهد « مابيورودا »

وكان هو حقيقة مابيورودا . فعندما أخبره الآخرون ، ان قائد الكتيبة قد فاته القطار قفز هو من القطار ورجع . وقد ظهر الآن من بين الأشجـــار ووجهه حزين كالعادة ، وقبعته ملتصقة برأسه بطريقة مضحكة . وتوجـه نحو ضابطه كأن شيئا لم يحدث وهو يتظاهر بأنه لم يندهش من وجود المترجمة هناك كذلك . وكان يحمل على ذراعه معطف أكيموف .

ورجع الثلاثة إلى المحطة وكان أكيموف مرتبكا وصارما قليلا . وفى المحطة كانت تنتظرهم مفاجـأة أخرى : فقد ترك بيريوكوف ومولشانوف وكلاهما من وحدة استطلاع الفرقة القطـار ليحضرا لانيشكا معطفها وقد اعطاهم الكابتن دروزد الاذن ، لأنه كان قلقا تماما عليها ، كما قالا .

وبعد أن زاد عددهم إلى خمسة جلسوا جميعاً على مقعد بالمحطة ولم يلبث أن قدم ناظر المحطة وبعض موظفى السكة الحديدية وانضموا إليهم — واتجه الحديث طبيعيا عن الحرب : كم سيمضى من الوقت قبل انتهائها . وهل لا زال الألمان يحاربون بشدة ، أم بدرجة أقل من الماضى ، ومتى سيفتح الحلفاء فى الغرب الجبهة الثانية أخيرا .

والتفت حولهم مجموعة من الصبية وأنصتوا لحديثهم فى سكون تام ، وهم يحملقون فى قبعات رجال الاستطلاع الغريبة المضللة — وكانوا يلبسونها بحكم العادة — وميداليات اكيموف ، ووجه انيشكا المضىء الضاحك .

ووصل القطار التالى بعد ثلاث ساعات . وكان قطار الفرقة الذى يلى قطارهم ، وكان فيه الجنرال موجين وهيئة قيادة الفرقة . وكان يسير بسرعة تسبق المواعيد . وكان على وشك أن يلحق بالقطار الذى تخلف عنه أكيموف وأنيشكا . وقد استقبل الأخيران كضحايا لسوء الحظ . وأطعما وأعطيا أمكنة فى القطار .

وكان الجنود يغنون فى العربة . وكان قائد الكورس باشجاويش أوكرانى أسمر خبيث المظهر ، ثائرا تماما ونخورا بسذاجة بصوته الصداح القوى . وكان يلتفت نحو أنيشكا بين الأغانى ويلقى بالتعليقات عن عدم سماع أى صوت نسائى .

وسأل بيأس : « هل يمكن الغناء دون صوت نسائى ؟»

ونظرت أنيشكا بتساؤل نحو أكيموف ، وهز هو رأسه موافقا . ويبدو أن طريقتها فى استئذانه بدل أن تغنى مباشرة من نفسها ، قد قربتهما لبعضهما ، كأنها كانت له من وقت لا يمكن تذكره ، وقد جعل ذلك حلق أكيموف يجف . وبدأت تغنى . وأومأ الباشجاويش الذى كان لا يزال يغنى بارتياح كبير .

وكان صوت القاطرة مسموعا . وظن أكيموف أن حبه هو الذى ينطلق إلى الأمام ، جاعلا السهل الهادىء يردد صدى قصفه المنتصر .

ونزل أكيموف فى أول محطة ، وأخبر أنيشكا بأنه سيعود سريعا . وضحك من نفسه كطفل مرح وذهب مباشرة إلى محل الحلاقه وكان بناء المحطة مهدما ، ككل الأماكن التى كانت حديثا ميدان قتال . وقد أنشى بناء كبير خشبى مؤقت . وبجواره كابينة خشبية بها مكتب البريد ومحل الحلاقة .

وبينما كان أكيموف ينتظر دوره على الرصيف ، رأى قائد الفرقة يذرع المكان ببطء مع بعض ضباط الهيئة . وناداه الجنرال وصافحه وسأله متى سيسلم كتيبته . وعندما رأى أنجولوفين لم يكن عنده الوقت ليخبر أكيموف بنقله ، سر الجنرال بفرصة إذاعة الأخبار المفرحة بنفسه ، وقد أدهشه تماما صمت الآخر .

وسأل : « لماذا أنت فى قطارنا » ؟

« لقد فاتنى القطار »

« إن هذا مظهر سيء . وعلى كل، فيجب أن يتعودوا على غيابك عنهم » .

ولم يجب أكيموف ثانية . وبدأ الجنرال يحس بعدم ارتياح لصمته المتعب .

وأومأ الجنرال برأسه وواصل سيره . ورجع أكيموف للحلاق . ووقف هناك حتى جاء دوره ، ثم حملق بنظرة فارغة نحو ملازم أخبره أن هـذا دوره ليدخل . ثم نظر إلى الحلاق ذى المعطف الأبيض ووضع يده على ذقنه وقال ، « لا ، لا حاجة لذلك » وانصرف بين دهشة الجميع .

ووقف دقائق قليلة بجوار العربة التى بها انيشكا ولم يصعد إلا بعد أن تحرك القطار وجلس دون أن ينظر حتى لانيشكا ودخن بصمت .

ولاحظت أنيشكا ذلك واكتأبت هى الأخرى . ولم يستمر اكتئابها طويلا ، وعلى كل فلم يلبث أن بدا عليها أنها لا تعيره اهتماما — فقد انضمت للجنود وبدأت تحكى لهم قصصا عن الأسرى الألمان ، ونوادر مضحكة ، معظمها عن هتلر وجوبلز . وحوادث من حيـــاة جنود

الاستطلاع . وبدا أنها نسيت كل شيء عن أكيموف . وقد أظهرت هذه الحقيقة بقسوة وبكل طريقة ممكنة . ونظر الجنود إليهــا بأعين ولهانة . وحتى ما يبوروداا ترك ضابطه الساكن ، وذهب ليجلس بجوار أنيشكا.

وكان الليل يهبط . ويتردد صدى الصوت الحزين للقطــار فى السهل المظلم . وهيج رنين الضحكات التى كانت ترن أحيانا خلال العربة أكيموف . وكان يريد أن يفر من هناك بأسرع ما يمكن، وكان ينتظر المحطة التالية فقط لينضم لبعض الضباط الذين يعرفهم فى العربة الأخرى.

ولكن فى المحطة التالية لحق القطار بالقطار الذى سبقه ، وتوقف الإثنان بجوار بعضهما وخرج أكيموف إلى الرصيف ، وسمع صوت أوريشكين وبيلسكى وآخرين من كتيبته ممن يمكن تمييز أصواتهم بسهولة ونادى على مايبورودا وقال بصوت مرتفع يكفى لأن تسمعه إنيشكا :
« لقد لحقنا بقطارنا فمع السلامة » .

وكان مشغولا طوال يوم الرحلة ، وهو يتكلم مع رجاله ، ويسألهم عن شئونهم العائلية ويقرأ لهم الجرائد بنفسه لعدم وجود المساعد السياسى ، ويعقد المناقشات فى السياسة فى كل عربة . ثم حلل المعركة الأخيرة مع الضباط ، مشيرا إلى النقط السليمة والسيئة لكل وحدة، وعيب فقدان الترابط مع المدفعية . ثم أخبرهم برحيله . وعندما صار

وحيدا بدأ يفكر فى البحر ، نوفورو سيسك وباطوم ، وحاول أن يتذكر الكلمات المستعملة والإشارات المتداولة فى البحرية ، وأوضاع أضواء ومناورات السفينة ، وأسس الاتصال اللاسلكى ، ودليل الخدمة .

ولم يكن فى حياته قد بدا أشد مرحا وودا منه فى هذه الفترة ولكنه لم يشعر أبدا بهذه التعاسة التى كانت تجثم على صدره .

وعندما سمع مايبورودا عن رحيل رئيسه الكابتن ترك كل أعماله ورقد لساعات ووجهه إلى أعلى فى مرقده . وقد ثار على كل شخص بما فيهم أكيموف ، الذى هز رأسه وأمر الجميع بأن يتركوه وحده ولا يضايقوه بما فيهم هو نفسه .

وفى هذا الوقت مر القطار بموسكو وواصل سيره على خط سكة حديد أكتوبر . ووصلوا فى الليل أخيرا إلى مولوجيا حيث كانوا سينزلون . وكان ضباط الفرقة ، والقطاع الثانى من الآلاى يحدثون ضجة حولهم ، وكان الماجور جولوفين ينتظر وحداته . وبدأ النزول من القطار . وتوجه أكيموف نحو جولوفين ليعلن وصوله وسأل مباشرة :

« لمن سأسلم الكتيبة يا رفيق الماجور ؟ »

وأجاب الآخر باقتضاب : « انتظر سنقرر عندما نستقر »

« ما الذى سيقرر . يجب أن أذهب »

وأجاب الماجور بغضب : « لا داعى للاستعجال . يمكنك ان تنتظر يوما أو أكثر »

وجاءت وسائل النقل مع الفجر ، وانطلقوا من المحطة فى طريق مرصوف بغير استواء وكانت اللوحات قد وضعت لتشير إلى مكان كل وحدة .

وقابل الكتيبة الأولى ضباط إرشاد عند دخولهم القرية ووضحوا لاكيموف إلى أين سيتوجه هو رجاله . وكان المكان مليئـــا برجال الإشارة يثبتون خطوط التليفون . ووزع الباشجاويشية الرجال على الأكواخ . وخرج كل الشعب ليراهم . وكانت النساء يقفن بجوار الأسوار ويمعن النظر فى كل وجه تتملكهن الفكرة الصامتة التى تطرأ دائما على أذهانهن فى مثل هذه الأحوال : « ربما كان ابنى بينهم » .

وجمع الماجور جولوفين كل ضباطه فى نفس اليوم وكان الاجتماع فى نادى المزرعة الجماعية المحلى الذى زين بالرايات وبفروع الموسكى .

وكانت الروح المعنوية عالية بين الضباط . وهم يشعرون بالانتعاش فى زيهم النظيف وأحذيتهم اللامعة بعد أن استحموا وحلقوا ذقونهم . وقد ارتدى بعضهم قبعات مدنية باشرطة ذات ألوان زاهية ، وأشرطة أكتاف صفراء زاهية وذات منظر جديد بدل تلك المجعدة التى كانوا يرتدونها فى الميدان .

وقابل جولوفين ضباطه بابتسامة رضا . وأخبرهم ان النجدات ستأتى فى الأيام القليلة القادمة وستصل التخزينات والعتاد ، بما فى ذلك المدفعية إلى الحد المقرر . وسيبدأ التدريب الحربى والسياسى من اليوم التالى ، ويجب أن تحترم البرامج والمواعيد بدقة ، كأيام السلم . وقد أعطيت الكتيبة الأولى مهمة ان تتهيأ لمنهج فى الهجوم . والكتيبة الثانية والثالثة منهج للتدريب على إطلاق النار . ووزعت مباشرة نسخ ذات أغلفة حمراء عن النظم والتوجيهات وبرامج التدريب والمواعيد .

وتخلف أكيموف بعد الاجتماع ثم سأل من جديد قائد الآلاى : « لمن سأسلم الكتيبة ؟ » .

وفقد جولوفين فجأة سيطرته على نفسه ، وقال : « انك شخص بلا قلب ويجب ان أقول ذلك يا أكيموف . إنى أعرف انك تتعجل العودة إلى البحرية ، ولكن لا داعى لأن تظهر لكل شخص مدى شغفك على تركنا وليس هذا من اللباقة فى شىء وصدقنى انه لكذلك» .

واعترض أكيموف مرتبكا « ليس هذا هو الموضوع على الاطلاق اننى أريد ان انتهى منها فقط . ولا داعى لإطالة الألم . وأخبرنى لمن سأسلم الكتيبة ، وبذلك ينتهى كل شىء » ، ثم واصل حديثه بعد فترة صمت قصيرة « انكم كلكم كأخوة لى . نعم أخوة حقيقيين ، وهذه هى الحقيقة . ولكن ما الداعى للتأجيل ؟ يجب ان أذهب وهذا كل ما فى الأمر » .

وقال جولوفين وقد خفت حدته بهذه الكلمات : « لقــد قابلت الجنرال اليوم ، وليس عندنا الآن ما يكفى من الضباط ، ولذلك فعليك ان تبقى فى قيادة الكتيبة إلى أن يصل ضباط جدد . ولن يستمر ذلك سوى عشرة أيام . وسنعطيك خطابا نشرح فيه سبب تأخيرك . وبعد ، هل هناك شىء آخر ؟ لقد اقترح الجنرال ان تأخذ وسام الراية الحمراء ، من أجل معركتك الاستطلاعية » .

« ان هذا لكرم منه . ولكن قدم لى خدمة : واتركنى أسافر غدا »

وصرفه جولوفين بإشارة من يده .

وكان كل شىء على ما يرام إلى أن أتى المساء . وعندها كان شوق اكيموف لرؤية انيشكا قد بلغ حدا جعله لا يعرف كيف يتصرف . ومع أن الوقت كان لا يزال مبكرا فقــد قرر ان يذهب إلى فراشه وخلع ملابسه لأول مرة منذ أسابيع ودخل بين ملاءات نظيفة . وأطاق عليه الزوجان العجوزان اللذان يسكنان فى الكوخ الذى تم إيواؤه فيه ، ابنهما وبذلا جهدهما ليشعراه بأنه فى مسكنه . وقد أمر ما يبورودا أن يذهب الى المعسكر فى الكوخ الذى على الطريق وقال له : « يجب ان تتعود على العيش بدونى » .

وهكذا اضطجع فى سريره ولكن لم ينم . وأحس بالتعاسة ونهض وارتدى ملابسه ، وقرأ جزءا من التعليمات ، وأطفأ النور من جديد ،

وجلس بجوار النافذة ، وتأمل فى السماء الزرقاء الداكنة والنجوم اللامعة ثم خرج إلى الشارع .

وكانت الدنيا مظلمة فى هذه القرية المطفأة الأنوار . ولكنك كنت تحس بالجو العادى . فالكلاب تنبح ، والجنود تغنى ، وكان يمكن سماع أصوات النساء .

ورجع إلى غرفته وقرر أن يحلق ذقنه . فأخرج إناء حديديا به ماء ساخن من الموقد وأرغى الصابون وأخرج الشفرة من حقيبة السفر . وخرج الرجل العجوز من الحجرة الصغيرة خلف الموقد . وبدأ يراقبه محاولا أن يقنعه بالتوقف .

« هلا تشعر بالأسف لحلاقة ذقنك يا بنى ؟ مثل هذه الذقن اللطيفة الجديرة بجنرال . والجنرالات فى العادة لهم ذقون . ولا يمكن أن تتصور جنرالا بلا ذقن » .

وانضمت إليه زوجته . وراقبته بحسرة وهو يكشط لحيته الكثة وهى مقطبة وجهها من الألم .

وقالت المرأة العجوز « يا للعجب، كيف هذا ؟ انك شاب صغير . إن لحيتك تجعلك تبدو أكبر كثيرا » .

ونظر أكيموف فى المرآة المعلقة بجوار مجموعة منظمة لصور عائلة الشخصين ، وصدم بأن وجد وجهه يبدو الآن صغيرا بشكل مضحك ،

وليس وجها بأى حال . وكانت اللحية قد أطالت وجهه وأعطته طابعا من الجلال ولكن وجهه الآن يبدو عاريا ، وكأن ذقنه قد قضبت ، وتبدو المسافة بين فمه وأنفه ضخمة بعد أن أزيل شاربه ، وبرز الأنف نفسه من الوجه وحيداً كطفل بلا أب أو أم .

وضحك عاليا وقال « هذا أحسن على كل حال فإن عروس البحر لن تحبنى ولن تسحبنى إلى الأعماق فى مسكنها » ورجع إلى سريره ثانية ، ولكنه تقلب فيه دون أن يتمكن من النوم ، وقد ابتهج حقيقة عندما دق الباب فى حوالى الساعة العاشره ودخل ملازم أول وظهر أنه مرسل من المكتب السياسى كمساعد سياسى مكان ريميزوف الذى توفى . وكان شابا قويا رشيقا . وجلس بجوار أكيموف على المقعد الواسع وأقرب ما يمكن من الموقد المشتعل .

وقد تحفظ أكيموف نحو القادم الجديد ، الذى أحس بأنه لا يشبه ريميزوف لدرجة أنه لا يستحق أن يكون بديلا عنه . ولكن كان من الخير له أن يجد شخصا يمكن أن يتكلم معه ليساعد على نسيان الشوق الذى كان يدفعه خارج المنزل .

— ٥ —

وكانت أنيشكا منقبضة النفس طوال هذه الأيام . فقد ظنت أن كل شىء قد انتهى بينها وبين أكيموف . وعملت ما فى وسعها لتتخلص

من الفزع والحزن الذى كان يضايقها باستمرار . ولم تكن عندها الرغبة لمعرفة سبب بروده ووقاحته نحوها فى القطار . وربما كان ذلك لأنه ينقصه الاتزان وقوة العزيمة وذلك بعيد الاحتمال ، أو ربما كان يحاول أن يفرض تأثيره عليها بطرق غبية ، كحيل قاتل النساء فى المدينة .

وفى أحد الأمسيات ، بينما كانت تعمل فى قيادة الآلاى سمعت رئيس الهيئة يتكلم إلى أحد الضباط عن أكيموف وعن رجوعه إلى البحرية. وعندما وضعت الأمور إلى جانب بعضها فهمت كل شيء .

وبمجرد ان انتهت من عملها فى اليوم التالى ذهبت دون أدنى تردد إلى القرية المجاورة حيث تعسكر الكتيبة الأولى . وكانت القرية تبدو مهجورة . فقد كان الرجال فى الخارج فى تدريبات تكتيكية . وكان يسير جاويش مسئول يحمل شارة حمراء حول ذراعه ، وسونكى فى حزامه ، على طول الطريق . ودل أنيشكا على مسكن أكيموف وذهبت إلى هناك .

وكان يجلس على الرصيف المحيط بالمنزل رجل عجوز ذو رأس أشيب يدخن غليونه — وكانت تتمدد بجواره قطة بيضاء .

وسألته أنيشكا بعد أن حيته : « هل الكابتن موجود » ثم أضافت لتكون أكثر تحديدا ، « الشخص الطويل ذو اللحية ».

وأجاب الرجل العجوز بابتسامة ماكرة : «انه طويل قليلا ، ولكن بالنسبة للحية فلا أعرف ، فإنى لا أدرى أى لحية ، فليست له لحية. طبعا ربما قد حلقها » .

وجلست انيشكا بجواره .

وقال الرجل العجوز :«هل يمكننى أن أسألك ، ماذا تعمل سيدة صغيرة مثلك فى جيشنا الشجاع ؟ » .

وعندما أخبرته انيشكا أنها مترجمة ، ظهر عليه الاهتمام التام ، وكذلك التحمس ، وبدأ يسألها كل أنواع الاسئلة عن الألمان . ومتى يظنون بلادهم ستهزم . ومن الغريب حقا أن الذى كان يهمه كانت وجهة نظر الألمان أنفسهم .

وبدأ الجنود يفدون إلى القرية فى فصائل وهم يغنون، وسمعت أنيشكا صوت أكيموف على بعد وجفلت عندما فكرت فى أنها تحبه. ثم رأت منظره الطويل عندما اقترب وهو محاط بالضباط الآخرين ، وهو يتكلم بصوت مرتفع ويؤكد كلامه بإشارات عنيفة من اليد اليمنى .

وعندما لمح أكيموف انيشكا أحس بالاحمرار يشع من وجنتيه .. وتوقف لحظة وكانت أول فكرة طرأت له ، رغم سذاجتها ، هل سيعجبها بدون لحية .

ولكن أنيشكا لم تلاحظ حتى التغير فى مظهره وحيت الضابط الآخر

بسرعة ثم قالت لأكيموف :

« لقد سمعت أنك ستتركنا ، وإنى لشديدة الأسف على ذلك » .

وقال مرتبكا « حقا ؟ » .

وأحس الضباط الآخرون بالحرج وانصرفوا .

وسألت أنيشكا : « متى ستذهب » ؟

« فى خلال بضعة أيام عندما يحضر شخص يحل محلى » .

« اها ،لقد فهمت » .

وقال أكيموف بصوت خشن : « لقد أردت أن أذهب لرؤيتك ولكنى لم أستطع عقد النية على ذلك لأنى ظننت أن ذلك سيكون عديم الجدوى ،إن لم يضر . ولك أن تفكرى فى كما تشائين ولكنى سأقول لك الحقيقة كاملة . إنى لا يمكننى أن أعيش بدونك —وفى الواقع لاأستطيع وخاف من أن تستاء وتقابل كلامه بطريقتها فى الرد على مثل هذه التصريحات ، ولذلك أراد أن يخفف مما قاله « ربما كان لايجب أن أقول ذلك ، صدقينى لقد بذلت أقصى جهدى حتى لايحدث ذلك . والأكثر من ذلك أن على أن أرحل . إننى أحب فى الحقيقة البحر والأسطول . ولكن ذلك خارج الموضوع ، فإن على أن أذهب . وهذا كل ما أريد أن أقوله ، بلا مواربه كما يقولون . وربما كان من الأحسن

أن لم يحدث ذلك ، فليس هـذا وقته . ولا تغضبي ، فإنى لآسف لأنى التقيت بك ، وكان من الخير أن يحدث اللقاء فى وقت السلم » .

وأنصتت لهذا الإعلان الغريب عن الحب ، وقد تملكها شعور لم تستطع أن تعرف حقيقته وظنت انها شهامة منه يغلفها الإخلاص .

وقال الرجل العجوز الذى كانوا قد نسوا كل شيء عنه: « شرفونا بأن تتناولوا بعض الشاى » .

ودخلوا المنزل وكان وعاء الشاى يغلى على المائدة . وحيت المرأة العجوز انيشكا وجلسوا يتناولون الشاى . وكانت انيشكا لا تزال تفكر فى غرابة كلمات أكيموف : فقد تكلم عن نفسه فقط ، دون أن نفكر فى أن يسألها إذا كانت تحبه . ويبدو أنه كان يخاف من أن يسألها هذا السؤال ، ولكنه لم يكن يخاف من أن ترفض ، بل من أن يسمعها تقول أنها تحبه . وعندما فهمت سبب خوفه شعرت بالامتنان ، وتعجبت لقوة عزيمته وسجاياه السامية .

ولم تلبث أن انصرفت بعد أن وعدت بأن تعود فى المساء ، . وتنزها خلال الحقول والقرى النائمة حتى الصباح . وعملا نفس الشيء فى اليوم التالى والذى يليه . وكان من الصعب عليهما أن يفترقا . وكانت الفترة الباقية على افتراقهم الوشيك قصيرة . فلم يمرا بالضيق والتلعثم الذى يلازم ميلاد الحب الجديد . فكانا يتكلمان كزوجين عاشا سويا حياة

بأكملها ، وضحكا سويا على الشواذ فى علاقتهما ، وأظهرا حزنهما على موت أناس يعرفهم أحدهما . وأصبح المنزل الصغير فى زاريشنايا سلوبودكا من ضواحى كوفروف وسكانه مألوفا لأنيشكا كما كانت شقة الدكتـــور نيكولوبيسكوفسكى الفسيحة فى شارع موسكو » بالنسبة لأكيموف .

وفى أحد الأيام ، بينما كانا يسيران توقفت وقالت : « لماذا لم تقبلنى أبدا ؟ أنك لا تتوقع أن أقبلك أنا أولا ، أليس كذلك ؟ »

وقال بلهجة مكتومة . « لقد كنت خائفا ، ثم قرب وجهـــه من وجهها ، بشغف غريب ، وقبلها .

واشتعل الدم فى وجهها وقالت : « لست خائفا بعد ذلك ! »

وأحسا طوال الأسبوع كله كأنهما وحدهما تماما رغم وجود جنود وفلاحين وأطفال فى كل مكان .

وفى باكورة اليوم السابع ، قبل أن يتوجه أكيموف للقيام بدوره فى التدريب فى برنامج للهجوم ، سمع دقا على الباب ودخل كابتن يحمل حقيبة سفر ، ودق قلب أكيموف بعنف . نعم ، لقد كان الضابط الجديد الذى سيتسلم مكانه فى قيادة الكتيبة . وكان اسمه شيرنيخ .

ولم يذهب أكيموف للتدريب . لقد قدم القادم الجديد لضباطه وجنوده ، ومرره على أرض الكتيبة وسلمه الوحدة . وكان شيرنيخ رجلا

هادئا دقيق الملاحظة ومحافظا ، ذا شعر فاتح ناعم ، يتدلى دائما على جبهته وكان يرتدى وسام الكسندر نفسكى — وقد أحبه اكيموف ، ولاحظ ، ببعض الغيرة ، أن الرجال قد أحبوه .

وفكر أكيموف . «حسنا الآن يمكننى أن أذهب»

وذهب لقيادة الآلاى وهناك هنأه جولوفين على الترقية التى كانت قد وصلت مباشرة بترقيته إلى ماجور .

وسأل جولوفين : « هل سلمت ؟ »

« نعم »

« اجلس قليلا »

« وجلسنا صامتين »

وسأله القائد « مارأيك فى شيرنيخ ؟ »

« رائع انه ضابط ممتاز »

« أنه سيبيرى »

« نعم . اعرف ذلك »

وصمت أكيموف لحظة ثم اضاف بابتسامة منهكة : « لقد كان الرجال دائما يفخرون بأن قائدهم بحار ، والآن سيتفاخرون بأنه سيبيرى » .

وابتسم جولوفين وقال « نعم ، إنى متأكد أن ذلك سيحدث فعلا ، وهذا إذا ظهر أنه قائد ممتاز .

وقال أكيموف : « سيكون كذلك ، ثق فى تقديرى . »

«يظهر أنك لا تريد الرحيل . لقد سمعت أنك وبيلوزيوروفا .. إسمح لى ، فأنت تعرف .. أنهم يقولون . . »

«أوه ، هـذا حسن جدا . إن قائد الآلاى يجب أن يعرف كل شىء يدور فى وحدته — وإنى لا أرى أى خطأ فى ذلك . وأنى اعترف بأننى لا أشعر برغبة فى الرحيل . فأنا فعلا أحبها »

« إنها فتاة لطيفة جداً »

« نعم ، هى كذلك »

« وجميلة أيضا »

« نعم »

«لقد كانت أجمل من ذلك . فكان لها شعر طويل جميل . ولكنها قصته عند ما وصلت إلى آلاينا . وقد ارتبكت فى الجبهة ، فأنت تعرف أنها بشعرها الطويل تجذب الأنظار . لقد تألمت عند ما سمعت أنها قد قصته . وأحسست بنوع من الأسف على ضفائرها . ولكن على كل ، فإن القائد أمامه أشياء أخرى غـــير التفكير فى شعر مساعديه . متى سترحل ؟ »

« أظن باكر »

« اوه . انتظر يومين فإن الأسطول لن يبحر ولن يجف البحر . وسنعطيك المستندات التى توضح سبب تأخيرك »

« ان التأجيل لن يسهل الأمور »

« لا ، لا أظن ذلك »

وقال جولوفين بعد برهة باشارة تعجب كان فيها أثر من الحسد : «حسنا — لا أظن أنه كان فى مقدور أى شخص أن يستأنسها ولكنك تمكنت من ذلك بسهولة »

« أننى لم أفعل ذلك ولا أعرف أنا نفسى كيف حدث ذلك »

وتصافحا وذهب أكيموف يبحث عن أنيشكا .

وكان الثلج قد بدأ يتساقط . وكان كل شىء مغطى برداء أبيض رقيق منتفش يمكنك أن تميز فيه بسهولة الطبقات المختلفة وكانت طبقات كثيرة هشة ، تبشر بتغير الفصول ، ولم يكن قد أحس بعد بأنه لم يعد جنديا ، فقد فكر أكيموف أنه قد حان الوقت للتدريب على الانزلاق وعلى تزويد الرجال بملابس شتوية داخلية وأحذية من اللباد .

ووجد انيشكا فى ساحة المنزل الذى تأوى فيه وحدة استطلاع الآلاى . وكانت تقف هناك إمدادات جديدة ويتكلم فيهم الكابتن دروزد ، ويحكى لهم نوادر عن حياة المعارك ويشرح لهم الشجاعة ، والمهارة الفائقة والبراعة ، والحساسية السياسية التى يجب أن يتميز بها رجال الاستطلاع وكانت انيشكا تقف بجواره .

وعند مارأت اكيموف فهمت أن هناك شيئا قد حدث وتقدمت

للامام لتقابله . وتوقف دروزد فجأة وقال : « يكفى هذا اليوم » ودخل المخيم بعد أن صرف الرجال

ولاحظ أكيموف أن وجنات ضابط الاستطلاع قد شحبت وغاضت. ولكنه بعد ان رأى انيشكا تجرى نحوه احس فجأة بغصة عند مافكر فى أن دروزد سيبقى وسيتمكن من أن يراها يوميا .

وفهمت أنيشكا الموضوع بمجرد أن رأت مظهر أكيموف العابس . وسألت : « هل وصل ؟ »

« نعم »

فقالت وهى تمسك بيده : « اوه : حسنا .فلنبتهج ، وندع الانزعاج .ماقيمة ستة أشهر أو حتى سنة بالنسبة لنا ؟ انك تعرف ياحبيبى ، أنى أحبك بعنف » وكانت هذه هى المرة الأولى التى عبرت فيها بهذا الوضوح عن حبها . « هل يكفيك ذلك ؟»

لا . لم يكن ذلك كافيا . لقد كان يريد أن يأخذها معه . ولو أمكنه أن يضعها فى علبة كبريت ويخبئها لابتهج بذلك .

واخترقوا الحقول إلى أن وصلوا إلى قريته وإلى المنزل الذى أنزل فيه .

وخلعا معطفيهما وجلسا بجوار الموقد . وبدأت ترتب حاجياته فى الحقيبة وجلست من جديد فى سكون بجانب الموقد ولم يرفعا أعينهما

عن بعضهما ، وبعــد أن تناولا الطعام خرجا يتنزهان ثم رجعا ثانية ثم خرجت وعندما رجعت ثانية وجدته جالسا على المائدة ورأسه مدلى بثقل ، تماما كما كانت عندما قتل ريميزوف .

وسوت له سريره دون أن تزعجه . وسمع حفيف الملاءات ورغب فى أن يضيء المصباح لأن الظلام كان قد بدأ ينتشر . ولكنها منعته من ذلك.

وقالت : « يجب أن تذهب إلى سريرك وسأبقى معك . فأنا لا أريد أن أذهب »

وبدا أنه قد فزع .

وقال : « يجب أن لا تعملى ذلك » ثم قال مستفهما « حقا ، يجب ذلك هلا تقتدى ذلك ؟ »

وجاء صوتها خافتا من خلال الظلام .

« أننى لا أخاف شيئا . اننا لبعضنا إلى الأبد . هل تسمعنى ؟ »

وكان من الممكن أن تبدو هـذه الكلمات مضحكة ومبتذلة حتى لانيشكا نفسها قبل ذلك ببضعة أيام . ولكن أنيشكا قالتها بحرارة وقوة بالغة كأنها هى التى اخترعتها . ولم يستعملها قبلها أى شخص فى العالم

ووضع ذراعيه حولها ، ولكن عندما قام بذلك تجمد قلبه من استسلامها وما بدا له من خبرتها وانخرطت فى البكاء وتشنجت بألم ، وقالت وهى لا تعرف كيف تعبر عن نفسها : « اننى لم أصنع ذلك

قبلا » ولعن نفسه على عدم ثقته الحقيرة فيها ، وشعر بنفسه وقد ذاب في رقة عارمة لم يعرف مثلها فى حياته . ومع ذلك فقد أفهم حتى وهو فى قمة شهوته أنها لم تشعر إلا بالألم وربما بحلاوة استسلامها بارادتها .

وحملق فيها بدهشة وفخر بالغ وفكر : « انها الإنسانة التى حلمت بها . أنيشكا . أو إننى لازلت أحلم ؟ »

والتصقت به . ولم تكن تتصور أن شيئا أحب إليها من أن تكون بجانبه . والذى يظنه الناس أهم شيء لم يكن بالأهم إطلاقا ، وإنما ربما كان هو الأصعب والغامض .

وبعد هذه الليلة قضيا خمسة أيام بطولها معا . كان عليه أن يذهب ، ولكنه لم يكن ليمكنه أن يسلخ نفسه عنها ، كما كان من الصعب على الفارس تانهوزر أن يفارق فينوس فى الأسطورة الألمانية القديمة التى ألفها هين ووضع موسيقاها واجنر . وقد أسعدت هذه المقارنة الأدبية أنيشكا بشكل كبير ربما لأن حبهما وعواطفهما لم تكن أقل ولو أن كل شيء قد تم فى كوخ خشبي صغير وليس على جبل سحرى .

واستيقظ أكيموف مبكرا جدا فى اليوم السادس . ونظر إلى وجه أنيشكا التى كانت لا تزال نائمة وخرج ليعود فى سيارة من جديد بعد فترة قصيرة وارتدت أنيشكا ملابسها بصمت . وأخذا مايبوردا معهما وذهبا للمحطة . وهناك توقفا وبعـــد تفكير لحظة طلب أكيموف

من السائق أن يأخذهم للمدينة وسألوا عن مكان مكتب التسجيل .

وسأل اكيموف : « هل ندخل ؟ » وكان مسرورا من فكرته ، واندهش تماما عندما سمع انيشكا تجيب « هل نحتاج لذلك حقا »

ووقفت صامتة لحظة ، وهى تنظر إلى اللافتة الحمراء الصغيرة ثم أضافت : « كم هو اسم رسمى مقبض : مكتب تسجيل الأحوال الشخصية

وكانت الغرفة التى دخلوها صغيرة ولكنها مؤثثة بشكل بهيج . وكانت تجلس هناك إمرأة ، لم تعد شابة بعد ، وتضع عوينات . وسألتها أنيشكا هل يمكن لأشخاص فى الجيش أن يسجلوا هنـــا زواجهم . وأجابت المرأة على ذلك ببعض الخبث « يمكنهم لو أرادوا . »

وعندما انتهت الاجراءات . رفعت المرأة عينيها المحمرة ، ربما من الدموع ، وهنأتهما وتمنت لهما حياة زوجية سعيدة . وخرجا من الغرفة الهادئة ، التى كان تسجيل الوفيات فيها أكثر من الزواج والولادة فى هذه الأيام التى تستعر فيها الحرب ، وتوجها بوقار نحو المحطة . وبعد ساعة سافر أكيموف .

الفصل الخامس

البحـــــر

— ١ —

وعندما وصل أكيموف إلى العاصمة ذهب مباشرة من المحطة إلى مقر البحرية ، وهو بناء كبير يستعمل كمركز عسكرى لأعضاء الأسطول السوفيتى .

ومع أن البناء كان يقع فى قلب موسكو، ومحاطا بشوارع وميادين وحوله حقول وغابات وكثير من المدن الأخرى والقرى ، إلا أن أكيموف ما كاد يخترق المدخل حتى تملكه شعور بأنه قد وصل فعلا إلى البحر ،وكان البناء فعلا،أشبه بسفينة كبيرة مثبتة بأرض موسكو ، فالحياة فيها كالحياة على ظهر السفينة تماما . فكان الصفير والأوامر البحرية تسمع طوال اليوم .وحتى الساعات كانت ساعات أسطول ميناؤها مقسم إلى أربعة وعشرين ساعة .

ولما كان أكيموف قد نسى البحر والسفن بعد هذه الفترة ، كان من المضحك حقا ،ومما أثر فيه بشكل كبير أن يسمع كيف يطلق

البحارة بشكل جاد على أرض عادية ظهر السفينة ، وعلى سلالم من الجرانيت لها سور حديدى ملتو مدخل السفينة ، ويطلقون على حجرة الطعام كابينة الميس ، والنوافذ التى تطل على شوارع موسكو المرصوفة يسمونها الكوة .

وقد أحس بأن كل شىء عجيب كشخص يعود إلى وطنه بعد سفر بعيد . وفكر « ربى لا تجعلنى أردد كلمة (حبل) هنا فلن يفهموا أبدا أنى أعنى (صفا) »

ولم يشعر أكيموف بنفسه كبحار إلا بعد أن سلم «الملابس الخضراء» كما كان الكل يسمى زى الجيش ، إلى ضابط الصف فى مخزن الملابس ، وبدل ملابسه إلى زى بحرى كامل ، بما فى ذلك قبعة سـوداء عليها السكابوريا (وهو الاسم الذى يطلقه البحارة على شعار البحرية على القبعة) وبدأ يتكلم ، كأعضاء المركز الآخرين ، عن نزهاته اليومية فى موسكو وهو ينتظر الميعاد الذى يحدد له ، « كإجازة على الشاطىء » . وكان يسير إلى أوقات متأخرة من الليل ، خلال هذه الأجازة التى لا تنتهى على الشاطىء ، دون هدف من شارع لآخر ، وكأنه يلقى وداعا أخيرا على اليابسة . وذات يوم وقف بجوار منزل انيشكا فى شارع نيكولو بيسكوفسكى .

وأخيرا جاء اليوم ليتسلم وظيفته . ولكن أى مفاجأة كانت . لقد كان يتصور أن هناك أسطولا واحدا يمكن أن يرسل إليه ، ألا وهو

أسطول البحر الأسود ، وبحرا واحدا ، هو البحر الأسود . ولكن جاء تعيينه فى الأسطول الشمالى ، وفى البحر البارنتى فيما وراء الدائرة القطبية الشمالية .

وأخذ القطار إلى ميرمانسك وعند وصوله ذهب مباشرة إلى الميناء.

وكان كل شىء هناك يختلف عن الجنوب . فالصخور الجرانيتية مغطاة بجليد أبيض ، ويغطى بخار قاتم المياه الداكنة فى الخليج متباينا مع بياض الصخور . ويحد الشاطىء ثلج أبيض سميك ، وتخيم على الخليج ظلال الليالى القطبية الزرقاء الكئيبة . ومع ذلك ، فقد كان هو نفس البحر برائحته المالحة النفاذة . وكان الميناء مليئا بسفن النقل ، وسفن الم. ت .ب . وسفن الصيد بالشباك ، والروافع والونشات القوية . والأعلام المرفرفة والزوارق البخارية السريعة تنطلق فوق الأمواج فى كل الاتجاهات .

ويبدو أن الخمول والاكتئاب الذى سيطر على أكيموف أخيرا قد انقشع وابتسمت له الحياة من جديد رغم بعد المسافة التى تفصله عن أنيشكا . .

فاخترق طريقه بين رجال الشحن وبحث عن زورق بخارى ينقله إلى القاعدة البحرية . ونبض قلبه بعنف عندما وضع قدمه على ظهر السفينة للمرة الأولى بعد سنتين على الأرض ، وحيا شعار البحرية الذى

يرفرف على مقدمة السفينة . وتقدم الزورق وانزلق برشاقة بين السفن .
وكان الجو دافئا تماما . وبدأت تختفي تدريجياً صوارى الإشارة على
مواقع الشاطىء ، ومنارات التوجيه ، خلف الضباب . وبالقرب منها
كانت تبحر ببطء مدمرة . وسمعت كلمة « العلم » ونظر الرجال فى الزورق
إلى المدمرة ورفعوا أيديهم إلى قبعاتهم بالتحية . وفعل طاقم المدمرة
نفس الشيء . ولم يلبث الميناء أن اختفى فى الأفق . وكانت المياه الداكنة
ترغي وتزبد تحت مؤخر الزورق .

وكانت السماء لازالت زرقاء داكنة حولهم . وشعر أكيموف بأنها
اما أن تزداد ضوءا أو ظلاما . ولكنها لم تزدد ضوءا ولا ظلاما .

ولم يلبث أكيموف أن رأى ظلال محطات اللاسلكى على الشاطىء
وبعض الأبنية الكبيرة كمدرج على تل وأعطى الزورق إشارته المميزة
وظهر الرد على أحد صوارى الشاطىء . « كل شيء على مايرام » وكان
هذا يعنى أنه يمكن للزورق أن يدخل الميناء . ولم يلبث أن انفتح المدخل
وظهر رصيف الرسو ، مغطى بالجليد . وأنزلت منه السقالات وصعد
عليها رجال الزورق منتظمين صفا واحدا .

وعرف أكيموف من قيادة الأسطول أنه سيذهب تحت التمرين
مع كابتن مطاردة غواصات . وكما توقع ، كان من غير المعقول أن
يضعوه فى قيادة سفينة بعد هذه الفترة من الغياب عن البحرية . وذهب
أكيموف ليبحث عن سفينته دون أن يضيع وقتاً .

وكان قائد المطاردة الملازم باديكين . وهو رجل قصير بدين ، غير جذاب . أصابه الصلع مبكرا . وقد خدم طويلا كصف ضابط . وقد ارتبك تماما عندما عرف السبب الذى جاء من أجله الماجور العريض الأكتاف . وكان يبدو كطفل سمين خجول بجوار أكيموف .

ومر بأكيموف ليريه المركب ، ثم أخذه إلى غرفة القيادة ، حيث قدمه للملازم الثانى كليماشين مساعد القائد . والصول شيجالو رئيس النوتية . ولم تكن سن الأخير لتزيد على ثلاثين عاما ولكنه نما شاربا خفيفا مشوشا لرغبته فى أن يظهر بالمظهر «الكلاسيكى» للرئيس . وكان يتعمد مشية مصطنعة . وينظر إلى الدنيا بتفضل بحار قديم هادىء بعينيه الباهتتين البيضاوين تقريبا .

وسأل بادكين أكيموف : « أين قررت أن تنزل ؟ » .

« لقد تركت حقيبتى حاليا فى مركز القيادة . وأين تسكن أنت ؟ » .

وكانت إجابة باديكين مدغمة ، واستنتج أكيموف أن هذا «القصير البدين» لم يكن كريما .

وبدأ باديكين يحدث أكيموف عن تاريخ السفينة الحربى . فقد سافرت المطاردة الصغيرة سبعة وعشرين ألف ميل بحرى . وحرست تسعة وستين ناقلة . وأسقطت ثلاث طائرات للعدو . وأغرقت غواصة معتدية وقامت بست عشرة غارة على الشواطىء التى يحتلها العدو . وقد

منحت لقب سفينة الحراسة نتيجة لخدماتها . وكان باديكين يقف منتبها كأنه يعطى تقريرا لقائده . وقال له أكيموف بخشونة . وببعض الغيظ ، عندما أحس بارتباكه ، وقد أراد أن يزيل تخوفه : « انتبه ياباديكين ، لاتلق أى اهتمام لعلامات رتبى ، إننى هنا لتدربنى ، والحجم والرتبة لايهمان ، فلنتفق على ذلك . . أليس كذلك ؟ » .

وقال باديكين متعجلا « آى ، آى » وأصابعه لا زالت بحذاء خياطات سرواله .

وضحك أكيموف من قلبه وفعل باديكين نفس الشيء . وعندما ضحك الأخير بدا وجهه الخالى من التعبير لطيفا ، مازحا وذكيا بحيث جعل أكيموف يفهم السبب فى إرساله ليعمل تحت إمرة هذا الرجل القزم . وبدأ يظن أنه حتى باديكين يبالغ فى تقديره له لرتبته . ولم يكن ذلك سوى قناع يحفزه ذكاؤه وخبرته على ارتدائه « فى الأحوال المناسبة » .

وبعد أن مسح دموع الضحك من عينيه ، سأله باديكين « هل سترافقنا فى مهمة أو ستأخذ يوما أو يومين راحة ؟ » .

وأجاب أكيموف : « إنى لم أعمل شيئا لمدة أسبوعين . سأذهب معك . وعموما لا تسألنى بل مرنى » .

وكانت التموينات العادية تحمل إلى ظهر السفينة الصغيرة . وكان

بعض الرجال يزيلون الثلج من على ظهرها ، ويتفقد الآخرون الأجهزة ويفحصونها . وسمعت دقات تحت الماء حيث كان الغطاسون يتفقدون الهيكل . وكان من المفرح أن تسمع الأجراس الكهربائية ودقات تلغراف حجرة الماكينة والموسيقى التى تسمع من غرفة اللاسلكى . وتجول شيجالو ببطء على ظهر السفينة وجعل كل شىء من المقدمة إلى المؤخرة معدا للعمل . وكان منظما حربيا أيضا . فأينما ذهب كان ينظم مع البحارة موادا للنشرة الاخبارية التالية .

وفجأة حرك كل اللغط الروتينى حماس أكيموف وأقنعه بأنه كان محقا فى الموافقة على أول عرض قدم له .

وقال فجأة مما أدهش باديكين : « هذا رائع . لا يمكن أن يكون أحسن من ذلك . أعطنى رقم بريدك الآن ، فإنى لم أعد أحتمل البقاء بلا عنوان » .

وكتب مباشرة سطورا قليلة لإنيشكا ولكنه لم يكن عنده الوقت ليرسل هذه السطور . وتقدمت مجموعة من الرجال من مدخل السفينة وعندما رآهم باديكين قال . « سنبحر بعد قليل » .

وكانوا رجال استطلاع سينزلون فى مؤخرة العدو . وهم مسلحون ببنادق تومى ، وقنابل يدوية وخناجر صيد ، وساروا صفا واحدا بهدوء على ظهر السفينة . وجلسوا القرفصاء متلاصقين بجوار الكابين .

وصعد ضابطهم — وكان رجلا شاحب اللون ذا أثر أحمر فى جبهته — إلى غرفة القيادة وقدمه بادكين إلى أكيموف « الملازم أول ليتياجين »

وكان البحارة يعرفون كل رجال الاستطلاع بأسمائهم . وصافحوهم قلبيا بالأيدى وسمعت ترحيبات عالية : « هالو كوستيا » ، « كيف حالك يا بتيا ؟ » ، « لم أرك من أجيال » ، « هل خرجت من المستشفى ؟ » .

وأخيرا رحلوا . وأصدر باديكين أوامره . وبدأ قلب أكيموف ينبض . واهتزت السفينة الصغيرة تأهبا للإبحار . ثم تأرجحت وانزلقت إلى الأمام فى الخليج نحو البحر الواسع .

(٢)

البحر الواسع . . لقد كان بحرا رماديا موحشا ، البحر المتجمد كما كان يسمى على الخرائط فى عهد إيفان الرهيب . ولكن اكيموف كان يكاد يصيح ابتهاجاً لمنظر المياه اللانهائية ، وأمواج البحر وهى تعلو الواحدة تلو الأخرى وتهبط لتستجمع قوتها وترتفع من جديد . .

وأحس من جديد بالفخر الذى أحس به عندما كان صغيرا وهو يقف بغرفة القيادة وصدره معرض للريح لقد أحس بقـــوة التحرك للأمام برغم كل العقبات والعوائق . تلك القوة التى أحس بها هنـا أكثر من أى مكان آخر على الأرض . وكان يقف بجواره قائد الدفة وهو صف ضابط من الدرجة الثانية يسمى كاشيفاروف . طويل وممتلىء مثله .

وعندما نظر اكيموف لوجهه المشدود تخيل أنه يرى نفسه فى صغره . فى سنة ١٩٣٦ وهو يعمل كقائد دفة فى البحر الأسود . وقد جعله المنظر المفاجىء عاطفيا ، واستدار جانباً نحو كاشيفاروف وهو يفكر كم من الأفراح والأحزان تنتظرك ؟.. كم من أمواج ومنحسرات ستمر بها ؟ . كم من المرات ستكون سعيدا وكم من المرات ستكون تعيسا ؟ وكم من الأفكار ستمر برأسك الصلبة هذه ؟ . »

ووضع يده فى جيبه الذى كان لايزال مستقرا فيه خطابه لانيشكا وتنهد بصوت عال . ثم ضحك من نفسه بصمت :

« لقد بدأت تتنهد من الآن . . أليس كذلك . . ليس فى البحر مكان لهذا . والريح رخاء تماما كما ترى . . . »

وأحس فجأة بالابتهاج . أو قل بالزهو . لأنه قد بدا له وكأنه قد مر بنفس المكان من زمن لم يعد يذكره . وكانت عنده نفس الأفكار والإحساسات كما هى الآن . .

وكانت السفينة الصغيرة تهتز بلا رحمة . وبين حين وآخر تتصاعد موجة إلى ما فوق ظهر السفينة ، الذى لا يبقى عليه بعد لحظات موضع جاف . فالمياه تتجمد مباشرة تقريبا . وكان على البحارة أن يفتتوا الثلج ويقذفوا به طوال الوقت بحيث لا يثقل السفينة ويجعلها تفقد التوازن . وراقبهم أكيموف وقد دهش لدقة حركاتهم والمهارة

والسرعة التى ينفذبها كل منهم عمله دون انتظار الأوامر . وكلما ازدادت مراقبته لطاقم السفينة وهم يقومون بواجباتهم ازداد احترامه لهم وزاد إعجابه بالنظام السائد على السفينة الصغيرة المنسقة .

وقد رأى الدليل على الروح العالية . روح الجماعة والنظام عند البحارة فى الطريقة التى تركوا بها الغرفة الجافة لرجال الاستطلاع . دون أى أمر بهذا المعنى . لقد تم ذلك ببساطة كنوع من العطف على رجال ربما كان عليهم أن يقضوا ساعات كثيرة باردة وبلا نوم وخطيرة فى الجزء الذى يحتله الأعداء .

ورغم أن المطاردة الصغيرة كانت تلطمها الأمواج بعنف ، إلا أنها استمرت نحو هدفها بعناد وخيلاء .

وخفت تدريجيا حالة انفعال أكيموف . وكان كل شىء يبدو سهلا بسيطا ويذكره كثيرا بتدريباته فى البحر الأسود — مع استثناء الشفق الداكن المائل إلى الزرقة والذى يبدو وكأنه يأتى من ضوء غامض مختف فى الأفق .

وبدأ الشاطىء يبرز على مدى النظر . محاطا بصخـــور جرانيتية مستديرة ترجع إلى العصر الجيولوجى الرابع البعيد . وكانت تبدو قاحلة كريهة بحيث لم يتمالك أكيموف إلا أن يرثى لرجال الاستطلاع الذين كانوا سينزلون هنــاك . .

وكانت كل الصخور متشابهة تقريباً بحيث بدا من المستحيل أن تجد معالم بينها . . فلم تكن هناك أية علامات أو ارتفاعات مميزة أو بقع من الألوان يمكن أن يستدل منها الإنسان ، لا شيء غير هذه الكتل الصخرية المستديره وكل منها مثل زميلتها تماما ، وقاتمة جدا بحيث تبدو سوداء ، ومجردة من أى خضرة ، ومع ذلك فهى جـــذابة بجمالها المرعب الشرير .

وقال باديكين مشيرا للامام « فارنجار فجورد »

وكان الشاطىء يبدو قريبا جدا بحيث تعجب أكيموف من أن باديكين لم يهدىء السرعة .

وقال الملازم « ان المسافة لازالت بعيدة . ربما ظننت أنها قريبة تماما ، هلا تظن ؟ يجب أن تتعود على ذلك هنا « الانكسار .

وكان باديكين عندما يعطى الأوامر لاينسى أن يشرح بين حين وآخر سبب وأهمية بعض الاجراءات . وكان يقوم بذلك بأسلوب مهذب . فعندما أمر مثلا بإطفاء النور فى الغرفة ، قال وكأنه يكلم نفسه ، مع ان ملاحظته كانت موجهة بوضوح لاكيموف : « من أجل زملاء الاستطلاع . ليتعودوا على الظلام » .

وراقب باديكين أكيموف ولاحظ ببعض من الغيرة . ان القادم

الجديد كان هادئا تماما . وأن عينيه وأذنيه لاتترك شيئا مما يدور حوله وفكر فى نفسه « سنرى فى المستقبل » وهو يأمل ربما فى قلبه ان يجد الفرصة التى يرى فيها رجل البر وقد تخلى عن بعض رصانته . وكان يريد أن يرى ضابط الجيش أن الحياة فى الاسطول ليست سهلة باستمرار . وأن الترقيات والجوائز لا تقدم فى أطباق مع الجراية . ومع ذلك فيبــــدو ان كل شيء كان يسير رتيبا على عكس رغبته ، ومع أن باديكين كان سعيدا بذلك ، إلا أنه كان سيسعده حدوث بعض التعقيدات .

وكان صف الضباط والبحارة يلاحظون أكيموف . وهم يعرفون أنه تحت التمرين . ولكن نظراته الحادة المتعمقة كان لها نفس التأثير المنعش عليهم كما كانت على كل شخص قبلهم ، فكانت تجعلهم يرغبون فى ارضائه والفوز بموافقته . وقد أحس بذلك باديكين أيضا . وحقد قليلا على اكيموف . على الأقل بسبب هيئته الضخمة ومظهره الذى يبعث الثقة .

واقترب الشاطيء . وكانت تومض هنا وهناك أضواء وحيدة . وربما كانت من حراس الشواطيء الألمان أو مجرد صيادين نرويجيين يقومون بتجارتهم السلبية . نعم . . لقد كانت هذه الأرض القاحلة هى النرويج رغم مايبــــدو فى ذلك من غرابة . فلم يكن أكيموف

يتصور ذلك . لأنه وقد خدم فى البحر الأسود كان يعتبر النرويج أرضا بعيدة . أبعد من ايطاليا أو حتى من افريقيا . ومع ذلك ، فهاهى هناك داكنة مع بعض ومضات الضوء ومحاطة بالصخور والأحجار ، التى أصبحت لاترى الآن .

وكلما ازداد اقتراب السفينة من الشاطىء ازداد توتر وجوه الرجال على السفينة . وكان ليتياجين يدخل ويخرج من كابين القيادة دون أن ينبس بكلمة . وأخذ رجال المدافع أماكنهم بجوار مدافعهم . وكان رئيس المدفعيين يبدو وكأنه التصق بمدفعه الميكانيكى . وجهز بعض البحارة السقالة . ووضع بعضهم المشمعات . وكان كل شىء يتم بسرعة وبدقة وجمال تلقائى . نتج عن التمرين الطويل .

وكانت تظهر على طول الشاطىء القمم البيضاء للأمواج المرتطمة بالشاطىء . وكان كليماشين قلقا فقد قاس العمق وهمس بشىء ما باهتمام لباديكين . وظهر ليتياجين صامتا فى غرفة القيادة . حيث ظل هناك يرمق الشاطىء . ويساعد فى تسيير السفينة حسب علامات الشاطىء التى لايعرفها غيره .

وأمكن رؤية مكان الرسو على بعد على الشاطىء وأمر باديكين : « ادر الدفة يمينا وببطء جدا وإلى الأمام وراقب أكيموف تحركات المركب . وكان كل شىء هادئا على الشاطىء . .

وخرج رجال الاستطلاع من الكابين ووقفوا على يسار غرفة القيادة ، ملتصقين ببعضهم كأنهم كتلة واحدة ..

وعلى مسافة غير بعيدة من الشاطىء كان هناك ضباب منخفض سميك غير متوقع ، أبحرت المطاردة خلاله . وغطى الضباب سطح السفينة بحيث أصبحت الأماكن من غرفة القيادة فما فوق لايرى فيها من الرجال سوى الأجزاء التى فوق خصورهم . أما مابقى منهم فقداختفى فى سحابة سميكة داكنة اللون ، وكان منظرا خياليا لأجزاء من الرجال عائمة فى الهواء .

وتأمل أكيموف الضباب بإمعان . وقد توقع ، بلا سبب . أنه لن يظهر عند انقشاعه الشاطىء الجرانيتى والخليج الضحل غير الواضح الحد المحوط بالزبد الأبيض للأمواج المتكسرة على الشاطىء . بل سيظهر جدول صغير جدا وخلفه منحدر يتجه إلى أعلى وبه أخاديد وخنادق موحلة ممتلئة بماء عذب له خرير . وقد ذكره هذا الخيال الغريب غير المتوقع بأنيشكا وريميزوف وجولوفين وبوجوزيان ... ومايبورودا وكل رجاله الذين كانوا بعيدين تماما عن البحر .

ولكن الضباب انقشع بنفس السرعة التى نزل بها . ورأى أكيموف من جديد سطح السفينة الصغيرة وأمواج البحر البارنتى الداكنة . والخليج الضيق المحاط بصخور جرانيتية .

. وقال أكيموف لباديكين بلهجة بدت وكأنها أمر « ابق هنا وسأشرف على الإنزال » .

وقد أحس بضرورية السرعـــة . فمن الممكن أن يكتشفوا من الشاطىء وهذا يعنى فشل العملية جميعها . وإلى جانب ذلك ، لاحظ أن البحارة ينظرون بقلق إلى السماء — ومن المرجح أنهم كانوا يخشون هجوما من طائرات الأعداء . ومما يزيد تعقيد الموقف أن المطاردة الصغيرة لا يمكنها الاقتراب من الشاطىء . لأنه يخشى من أن تقذفها الأمواج إلى الصخور . وكان هناك فراغ طوله عشر ياردات بين الباخرة والشاطىء .

ونزل البحارة الذين كانوا يحملون السقالة إلى الماء بدون انتظار الأوامر . وكان الماء يصل فوق خصورهم ووضعوا طرف السقالة على أكتافهم وصاحوا بلهفة : « هلموا تقدموا » .

وتقدم رجال الاستطلاع من السقالة . ولم يتمالكوا أنفسهم من أن يقشعروا من منظر الرقعة الواسعة من الماء البارد الذى يضطرب بين نهاية السقالة والصخور الناتئة ، هذه المسافة المملوءة بالمياه التى ترغى عندما تصطدم الأمواج بالشاطىء وتجف تماما عنـــدما تنحسر الأمواج . وفكر أكيموف مستغربا عندما رأى رجال الاستطلاع : « هل سنضطر لحملهم إذن ؟ » ودون أن يواصل التفكير ، وقد حركته

مشاعر مختلفة لم يكن عنده الوقت ليحللها ، سار فوق السقالة وقفز في الماء البارد. وبعد أن استعاد أنفاسه التي أوقفها البرد القارس صاح « ليتياجين . . . »

ورفع ليتاجين بسهولة فوق كتفيه وحمله إلى الشاطىء عند انحسار الموجة ، وأنزله على صخرة كبيرة . وانتظر اصطدام الموجة التالية بالصخور ثم رجع إلى السقالة . وهنالك أخذ الرجل التالي على كتفيه وقد لاحظ عند مروره أن ثلاثة بحارة قد اقتفوا أثره : ولم يلبث الإنزال غير العادى أن تم ، وقد سبب ذلك طربا بين البحارة الذين كانوا يقفون وهم مغمورون حتى خصورهم أو يخوضون خلال الماء المثلج بأحمالهم الحية . وقد أظهروا إقداما واضحا بالرغم من الماء المثلج البارد . وكانت تسمع صيحات قصيرة مقتضبة « استمر : . . » « انتبه . فإنى سأغرقك » « أف . . كم هي حارة! » .

وصعد أكيموف السقالة وعاد إلى سطح السفينة بعد أن حمل آخر رجل من رجال الاستطلاع . وخلال الانزال اصطدمت رأسه بحقيبة متاع للرجل الذى كان يحمله ممتلئة بكميات من الرصاص . وكان رجال الاستطلاع قد اختفوا بين الصخور كأنهم لم يوجدوا أصلا . . . . .
وتحركت الباخرة ببطء على طول الشاطىء . .

وقال أحد البحارة لأكيموف « اذهب إلى الكابين ودفء نفسك »

وفعل ذلك وخلع ملابسه سريعـــا ، وكان الظلام لازال دامسا فى الداخل . ولـكن شخصا ما، سار متلمسا فتحات السفينة ليتأكد من أن الضوء لاينفذ منها ثم أضىء النور . وكان ذلك الشخص هو باديكين نفسه . وأعطى باديكين أكيموف بطانيتين . وكان وجهه جادا تماما . وانصرف ولـكنه لم يلبث أن عاد ومعه زجاجة فودكا ثم اختفى ثانية . ثم عاد .

وسأله أكيموف « ماذا يمكننى أن أرتدى »

وكان باديكين قد فكر فى ذلك أيضا . . وقد أحضر معه ملابس داخلية وبنطلون بحارة وحذاء من المطاط .

وقال أكيموف مستفسرا « هل ستلائمنى ؟ »

« لقد احضرتها من عند كاشيفاروف قائد الدفة »

« وقال أكيموف وهو يبتسم : « ستكون مناسبة إذن »

وقال باديكين معلقا : « حسنا . إنها أول تعميد لك فى البحر؟ »

وتجهم أكيموف : « هل تسمى هذا تعميد البحر ؟ لقد ابتللت . وهذا كل ما فى الأمر . »

وقد اغتاظ من نفسه . وفكر فى أنه كان عليه أن يرسل البحارة إلى الماء بدل أن ينزل بنفسه . فلم يتصرف كضابط بل كبحار عادى .

لقد أشفق على رجال الاســـتطلاع بالطبع . . كان من الصعب عليهم أن يجففوا أنفسهم على الشاطىء . ولكن هل كان هذا هو دافعه الوحيد؟ الم يكن يريد أن يبدو لباديكين والبحارة فى مظهر ضابط الجيش الشجاع ؟ ومن المضحك أنه فى الجيش كان يشعر دائما أنه ضابط بحرى والآن وهو فى البحرية . . لا يمكنه أن ينسى أنه كان فى الجيش . .

نعم . كان عنده نوع من الرغبه فى الظهور والإعلان عن نفسه أمام رفاقه الجدد وأمام البرد وأمام البحر البارنتى المقبض الذى كان جديدا عليه أيضا . .

وقال وقد ارتبك قليلا . « إذا كنت القائد هنا . ولم أكن فقط تحت التدريب ما قمت بذلك . ولكنى بحالتى هذه كشخص تحت التمرين، بلا عمل خاص أقوم به فلا غضاضة فى أن أقوم بعمل حمال . .

ولم يبتسم باديكين ولو أنه كان متفقا مع ملاحظة أكيموف وعلى لأخص فيما يختص به .

وسمعت طلقة مدفع فى الخارج . . وتبعتهـــا أخرى ، وتسمر باديكين مكانه .

وقا « لقد لاحظونا . . أرجو أن يكون ليتياجين قد ابتعد . . سأذهب إلى غرفة القيادة »

وخرج . . وتزايدت الطلقات . وصعد أكيموف إلى السطح

وكانت ومضات المدافع ترى هنا وهناك على الشاطىء ..

وقال زيجالو : «أنها من فاردو»

وسمعت صيحة « طائرات وراءنا » خمس فوكيوولف — ١٩٠ ..»

ولم يكن عند أكيموف الوقت للإعجاب بدقة التقدير . فقد دق جرس الخطر وتبعه مباشرة دوى المدافع وازدادت «دافع الماكينة على المطاردة الصغيرة. وكان من الصعب عليه أن يحدد أيهم بدأ : تحـــذير رجل المـراقبة أم دقات أجراس الخطر أم إطلاق النار . وقد بدا أن الجميع قد تموا فى وقت واحد . وقد رأت عينا أكيموف المتفحصة معركة خاطفة بين طائرات الألمـان والسفينة السوفيتية الضئيلة التى تبدو مستحيلة الحماية .

وكانت سرعة الطائرات لاتصدق تقريبا . ومع ذلك فإنه يبدو أن الباخرة كانت لا يمكن طعنها . فقـــد أخذت الباخرة مظهرا خياليا على الأمواج المتقاذفة . بعد الأوامر القوية الشديدة التى أصدرها باديكين. وكانت تبدو وكأنها تقفز فتثب إلى جانبها الأيمن أو إلى الأيسر . ثم تستجمع نفسها فجأة وتغوص من المؤخرة . وكان أكيموف أحيانا يحس وكأنها ليست مبحرة فقط على الماء بل تتلوى وترقص كالثعبان . وكانت حركاتها محيرة لا يمكن توقعها .

ونظر أكيموف إلى باديكين . وكان من الصعب التعرف على القائد

القصير . كان يبدو وكأنه معبأ فى كرة تخرج منها رأس مستدير تماما بشكل مضحك . واستمر يلقى أوامره وهو يقلد حركات السفينة ، فينحنى أماما ، ويتأخر للوراء أو يتوقف وقد التوت سحنته . ويبدو أن كاشيفاروف قائد الدفة كذلك لم يعد رجلا فقد ارتبط على الدفة وهو يطيع بدقة كاملة أوتوماتيكية ، كل كلمة يقولها الشخص القصير الذى بجانبه . ولم يكن ينظر سواء إلى أعلى أو إلى أسفل أو إلى الجنب أو حتى إلى الأمام ، فقد كان ينصت وينفذ فقط .

وكانت السفينة تبتعد عن الشاطىء إلى البحر الواسع . وقد تعجب لذلك أكيموف الذى كان يظن أنه من السهل الابتعاد عن قبضة الطائرات ، إذا ساروا بجوار الصخور على طول الشاطىء .

وتذكر باديكين ـ وهو مسيطر على نفسه بشكل أدهش أكيموف ـ تذكر الشخص الذى يدربه واستدار نصف استدارة نحوه وقال :
« سيكون عندنا حرية أكبر لنناور هنا . »

وأسقطت الطائرات بضع قنابل عند ابتعادها ولكنها سقطت حيث كانت الباخرة قبل ذلك بنصف دقيقة . وكانت سرعة الحركة هى التى تقرر كل شىء . وكذلك إطلاق المدافع المضادة المستمر . وظل مدفعا الماكينة يجلجلان باستمرار . وكانت بعض القذائف من النوع الموجه . وقد ظهرت مهارة مطلقى المدافع ، فرغم الطريقة التى كانت تتمايل بها السفينة التى كانت تجرى تقريبا على جنبها أحيانا فإن تتابع القذائف

الموجه كان متجها إلى نفس المكان ، هناك حيث توجد الطائرة . ولم تكن تبتعد عن هدفها إلا قليلا . وكان المدفع الأوتوماتيكى فى المؤخرة ينطلق بلا توقف . وكان من الممكن أن يظن الإنسان أن المدفع قد تم حشوه ليقذف حممه على الدوام ، لو أن أحدا لم ير المدفعيين وهم يزحفون نحوه ثم يبتعدون عنه .

ومن الغريب أن نقول أن الطائرات الألمانية هى التى هزمت وليست السفينة الصغيرة ، فقد هبط الطيارون بطائراتهم هنا وهناك . وهم يحفون بسطح الماء محدثين زئيرا يصم الآذان . وينثرون الرصاص فى البحر ثم يختفون خلف الصخور . ليعودوا للظهور من جديد ليسقطوا من جديد قنبلة أخرى أو اثنتين فقط . ولكنهم لايجدون المطاردة الصغيرة حيث كان عندهم الأمل فى أن يجدوها . .

وأخيرا فقدت الطائرات الأمل فى القضاء على السفينة الصغيرة وطارت مبتعدة وآلاتها ترتجف غضبا . وعم الهدوء ثانية وكان صوت صفير الريح وزئير البحر المتوعد يبدو كأنه ثرثرة أطفال .. وترك قائد المدفع مدفعه الميكانيكى وانحنى على حافة المركب وتقايأ ..

ولم يكن أكيموف قد لاحظ حتى هذه اللحظة ان الجميع بما فيهم هو نفسه قد غطى برداء لامع من ماء البحر المتجمد . وكان كل شىء على ظهر السفينة مغطى بالثلج ويتألق بأضواء بيضاء فسفورية ماعدا ماسورة مدافع الماكينة والمدافع العادية الشديدة الحرارة .

— ٣ —

وقال باديكين « سأنزل لأنام » ..

ولم يفت أكيموف ملاحظة دهشة قائد الدفة والمدفعى وقد خمن ببساطة انه لم تكن من عادة باديكين أن ينام فى البحر . وكان يريد بالتأكيد أن يعطى له . لأكيموف ، فرصة قيادة السفينة بنفسه .

وعندما بقى أكيموف وحده فى غرفة القيادة تسلم السفينة . وقد تغلب سريعاً على إحساس التردد البسيط حيث لم تحدث فى رحلة العودة أية حادثة ليست فى الحسبان . وقد نفذ طاقم السفينة الصغيرة بلا مناقشة ومباشرة كل أوامره . وقد سر ذلك أكيموف . مع أنه أحس أن الفضل فى ذلك ليس له ، ولكن الذى سره تماما أكثر من أى شىء آخر ، أنه اكتشف تدريجيا ، أنه يعرف ويتذكر كل شىء بشكل رائع جدا ، وأنه لم ينس أبدا ـ كما كان يظن ـ كل كلمات الأمر فى الأسطول ، وأسس وعادات الحياة فى البحر ، والتعاون بين الأجزاء المختلفة فى السفينة . وحتى التفصيلات الصغيرة كانت تأتى لفكره بسرعة وبلا صعوبة ، كأغنية تظن أنك نسيتها . . وقد سعد أكيموف عندما أحس بذلك . ولكنه قرر أن لا يقول شيئا ليتفادى ظهوره بمظهر الواثق وثوقا تاما بنفسه ، وحتى يدرس الظروف المحليه تماما .

وبدأت تظهر فى الأفق منارات الميناء وصوارى اللاسلكى والمنازل الموجودة على التل ، ورست المطاردة الصغيرة بالميناء . وصعد باديكين على الظهر ثم نزل إلى الشاطىء ليقدم تقريرة لقيادة الأسطول . ونفخ البحار النوبتجي نفيره مناديا طابور المساء وتجمع البحارة على جانب السفينة . وقد سعد أ كيموف لرؤيتهم . وكان بينهم الكثير من وجوه البحر الصريحة السمحة . وعندما نظر أ كيموف اليهم حسد باديكين ، كما يحسد رجل بلا عائلة رب عائلة كبيرة ميسورة تكن له الحب . .

وصعد قائد النوتية ببطء إلى ظهر السفينة . وهو يضع كل شىء فى مكانه وسيطر الهدوء وعادت الحياة سيرتها العادية . .

وعندما عاد باديكين اتجه إلى غرفة القيادة وسأل أ كيموف . وكأنه قد نسى أنه قد سأله قبلا « أين قررت أن تنزل »

وأجاب أ كيموف أيضاً وكأن السؤال يلقى عليه للمرة الأولى « لقد تركت حقيبتى فى القاعدة فى الوقت الحاضر » .

وقال باديكين بعد صمت قصير . يمكنك أن تأتى إلى منزلى إذا أحببت. إن معى زوجتى فأنا رب عائلة .

وذهب أ كيموف معه . ومروا بالأبنية الكبيرة ولم يلبثوا أن وجدوا أنفسهم أمام منزل صغير على التل . وكانت غرفة الملازم حسنة

التدفئة . ويوجد على أفريز الشباك كل أنواع الزهور فى أصصها . ومن بينها الصبار من أقصى الجنوب .

وقال باديكين « إن عندنا منزلا صغيرا دافئا . وبالطبع ، لايمكن أن تتوقع أن ينمو كل شيء هنا نموا جيدا .

ودخلت امرأة سمراء البشرة ترتدى ثوبا صباحيا ذا ألوان زاهية..

وقال باديكين مبتسما «زوجتى» .

وحيت أكيموف بمودة وذهبت لتجهز العشاء .

وقال باديكين: «إننى أيضاً من الشمال وقد ولدت فى مورمانسك فى عائلة أحد الصيادين . ولكن نينا من الجنوب من جورجيا » . وخفض صوته وقال « إنها تتحرق شوقا للجنوب ، ثم واصل بلهجته العادية .. « لقد كنت فى هذه السفينة منذ تأسيسها ولم تكن نينا فى مورمانسك فى ذلك الوقت . وهل أنت متزوج ؟ »

وأجاب أكيموف بدون تفكير : « لا » ثم ضحك وصحح نفسه « إننى نعم متزوج ، تصور أننى نسيت زو ... » وبدت له كلمة زوجتى غير مألوفة . بحيث لم يقدر على استعمالها « إن أنيشكا فى الجيش ولم نتزوج لفترة طويلة بحيث أتعود على كلمة زوجتى . »

وكم كان الاختلاف بينا بين حياة باديكين الهادئة والحوادث التى

مرت منذ نصف ساعة أو ساعة مضت . وبينما كانت نينا تعد المائدة للطعام بهدوء ، كشفت رائحة الصابون والأدوية أن مهنتها التمريض . وخلع باديكين ثوبه ليرتدى معطفاً صباحياً من طراز قديم له أهداب . وكذلك خلع حذاءه ليرتدى بدله شبشباً منزليا وعلى وجهه تعبير الرضا الذى لم يره فيه أ كيموف قبلا .

وقد راقب أ كيموف باديكين وزوجته باهتمام بالغ أثناء الطعام وبعده وهو يتصفح كتاب « الملاحة فى البحر البارنتى » . وكان باديكين ينادى زوجته نينوزيا وهى تناديه ليوشنكا . وقد دهش أ كيموف لأنه لم يحس بأن هذه الكلمات مضحكة بالنسبة له كما كانت قبلا منذ شهرين . وعلى العكس فقد أحبهما ولم يكن ليضايقه أن يعيش مثل هذه الحياة مع أنيشكا . . وقد فكر فى أنه لو نادته زوجته بافليك أو باشنيكا أمام الناس ما اعترض كما كان من الممكن أن يعترض قبل معرفته لأنيشكا .

واستمر فى سلسلة تفكيره . . . وانتهى إلى أنه كان من الممكن أن تكون عنده فكرة مختلفة تماما بالنسبة لهذه الحياة السلمية والعادية . . . لو لم ير باديكين فى كابين القيادة أثناء المعركة مع الطائرات الألمانية . وتذكر كيف كان يندفع من مكان لآخر كدوارة الريح . . . ولم يكن منظره مضحكا على الإطلاق بل ثائرا وساخطا يبعث الرعب فى الآخرين . وقد فكر فى أنه لو حدثت صفارة إنذار الآن لألقى هذا

الرجل الممتلىء بعطفه الصباحى وشبشبه ولأصبح من جديد كما كان منذ ساعتين .

وتوجه أكيموف مع باديكين إلى الباخرة فى اليوم التالى — إذا كان من الممكن أن تسمى اليوم الداكن المزرق المستمر نهارا

وكانت معسكرات البحارة على الصخور تبدو مليئة بالحياة والمرح . وكانت الموسيقى تنطلق من مكبرات الصوت والأطفال يلعبون فى الشقوق البنفسجية فى الصخور التى تربطها جسور للمشاة أو ألواح غير مشذبة . . . نعم . . . لقد كان هناك أطفال أيضا وكان كل شىء يبدو بسيطا ، مريحا ، كامل المعدات . . . ولم يكن هذا المنظر — المنزل والأطفال ، والغسيل المنشور وكل الأعمال العادية — يبدو بعيدا إلا بعد أن تنزل بجوار مياه الخليج الداكنة الزرقاء . وكانت الغواصات والمدمرات والقوارب البخارية تسير ببطء بالقرب منك . وتضىء الإشارات ، وترفرف الأعلام مع الرياح . وكان الجو ممتلئا بالصفير وصوت النفير ، ورنين سلاسل الهلب .

وأيقظت صيحة عالية أكيموف من استغراقه فى التفكير . . .

« اكيموف . . بافل . يا إلهى . . نعم إنه هو . . . »

واستدار أكيموف . وقد أدهشه أن يعرفه أى إنسان بالاسم فى هذا المكان البعيد . . . ورأى ضابطا بحارا قصيرا ممتلئا يبرز

من بين مجموعة ويجرى تقريبا نحوه ، وقبل أن يفهم ما حدث أحس بنفسه محتضنا بين ذراعى الرجل الذى لم يتمكن من معرفته فى البداية . وعندما تأمل فيه أخيرا صاح متعجبا : «ميجينوف حسنا حسنا ..لم أكن لأتوقع أن أجد زميلا من البحر الأسود هنا ..»

وأجاب ميجينوف « إن هناك الكثير منا هنا . ليسكوف . ستيبانوف وكثير غيرهم . ولكنى لم أكن أتوقع أن أقابلك . . حسنآ كيف حالك ، وضرب أكيموف ضربة ودية على ظهره ولكنها كانت قوية أيضا . « لقد اصبحت قائدا الآن ألست كذلك ، حسنا انك ترأسنى بحق الله والآلهة» .

فأجاب أكيموف وقد أشرق محياه « إن للجيش الفضل فى ذلك . فقد رقونى إلى ماجور ».

وأخذ ميجينوف معه إلى الضباط الآخرين الذين كانوا لا يزالون منتظرين هناك وقال « هذا زميلى فى البحر الأسود . بافل أكيموف . وهو من عوامل هزيمة الألمان المقبلة »..

وعندما عرف ميجينوف أن أكيموف كان فى الجيش وأنه قد ترك الجبهة منذ وقت قصير ، هدأ فجأة وبدأ يسأله مختلف الأسئلة عن العمليات على مسرح الحرب الرئيسى . وكان يستقصى بين حين وآخر بنظرة حادة ما كان الإنسان ليظن أنه قادر عليها . . . « كيف الحال هناك ؟ أقاسية ؟ » .

ولم يتمالك أكيموف من أن يلاحظ أن البحارة يعتبرون ، فى كل الأسئلة ، أن الأسطول نوع من الخدمة المساعدة ، بينما الجيش هو القوة الرئيسية . وكان هذا جديداً على أكيموف . فنى وقت السلم كان البحارة يميلون إلى تفضيل أنفسهم على الجيش . ويرجع التغير فى نظرتهم العامة إلى الطريق الذى سارت فيه الحرب . ويوضح ذلك النظرة الوقورة نحو الحرب، لرجال البحرية الذين يجتمعون حول أكيموف الآن — ..

وقد أحس ميجينوف بالاهانة والغضب ، عندما أخبره أكيموف أنه قد وضع بمجرد تحت التمرين .

وقال : « إن الحال دائماً كذلك مع هؤلاء الزملاء السطحيين . ومن المؤسف أنك لست من رجال الغواصات . فلسنا من هـــذا النوع . . وأين عينت ؟ يجب أن تبتعد عن كل هؤلاء ، معشر المتزوجين » وألقى بنظرة جانبية إلى باديكين الذى كان واقفاً على مسافة قصيرة ولم يشترك فى الحديث . . « تعال واسكن معنا نحن الذين نعيش وحدنا . وسنجعل الحياة أبهى بالنسبة لك» .

وقال أكيموف ضاحكا « انك لم تتغير أبداً » .

وكان سعيداً بأن يجد بعض رفاق البحر الأسود ومن بينهم الكابتن ميجينوف العنيد. ووعد بأن يأخذ عرضهم فى اعتباره . وودعهم وعاد إلى باديكين .

وسأل أكيموف باديكين : « هل تعرف ميجينوف ؟ » .

« إلى حد ما » .

وقال أكيموف شبه ضاحك « إنه يمتع نفسه تماما بالحياة أليس كذلك ؟ » .

وأخبره باديكين بوقار : « إنه بطل من أبطال الاتحاد السوفيتى » .

« لا تقل ذلك . . لقد قمت بأحسن مما قام به »

واستمر أكيموف فى حياته مع عائلة باديكين . وكان ميجينوف غالباً ما يأتى ليراه وكان غيوراً إلى حد ما من الملازم الممتلىء ، وعمل ما فى وسعه ليجذب أكيموف بعيداً إلى العزاب . .

واعترف أكيموف وهو يضحك : « ولكنى أنا أيضا شخص متزوج » .

وتعجب ميجينوف : « متزوج .. أمتزوج أنت .. » ثم قال بصوت منكسر بعد فكرة مفاجئة « من الأحسن أن يتزوج الشباب . وأظن أنه سيأتى دورى قريباً » .

وكان أكيموف يقضى وقته على المطاردة الصغيره . يوجه ويمرن ويحضر كل الاجتماعات والتجمعات وسأل البحارة عن كل ما يعرفونه

عن البحر البارنتى ، وحصل على كل ما أمكنه من المعلومات عن الخلجان والمرافىء وطرق الملاحة .

ولم يكن يفكر فى غير ذلك — وخطابات أنيشكا . وكان فى حالة مستمرة من الانتظار المضنى . بحيث أن فكرة وصول خطاب منها لم تكن لتفارقه دقيقة واحدة ، مهما كان العمل الذى يقوم به . وقد خطر له فجأة أنه لا يعرف حتى خطها . وحاول أن يتصور كيف سيكون خطابها الأول . فهل ستسميه « حبيبى » ، « عزيزى » ، أو ما شابه ذلك ؟ وكان دائماً يحدد تواريخ ويؤكد لنفسه أن خطاباً سيرد فيها . وقد سخر من نفسه على الطريقة التى كان يعد بها الأيام من اليوم الذى كتب فيه خطابه الأول فى القاعدة إلى اليوم الذى ستتسلمه فيه . وحيث كان من المؤكد أنها سترد مباشرة ، كان ينتظر أن يصل ردها فى يوم معين . وعندما لا يتسلم الرد فى الحدود التى رسمها يرجع ذلك إلى بعد المسافة ، ويحدد تاريخاً آخر بقلب مكلوم ، ويؤجله إلى تاريخ آخر دائماً . . وهكذا .

وكان يعترض حياته الهادئة أحياناً مطاردات لغواصات الأعداء التى كانت تستكشف بالقرب من القاعدة . وبعد ثلاثة أسابيع قامت المطاردة الصغيرة برحلة ثانية إلى فارنجر فيجورد .

وكان أكيموف يقود فى هذه المرة . وظل باديكين فى أسفل السفينة ، وكان يصعد إلى غرفة القيادة فى فترات نادرة . وكان الملازم الممتلى

يفرك راحتيه ويسأل قائد الدفة أو رئيس النوتية : « حسناً . ما رأيك في زميلى ؟ هل أفلح فى القيام بالعمل » .

وكان قائد الدفة يجيب : « إنه يقوم بعمـــله بشكل رائع يارفيق الملازم » بينما كان رئيس النوتية يجيب باختصار « إنه بحار » .

وكان هذا أعظم مدح يمكن أن تسمعه من بين شفتى رئيس النوتية ، وقد سر باديكين من حكمه لأنه كان قد أعجب فجأة للغاية بأكيموف ، كما هى الحال دائماً مع المحافظين قليلى الصلة بمن حولهم . .

وكانت السفينة تقترب من المكان الذى كانت موجهة نحوه على الشاطىء فى أوامر العملية . ولم يكن هناك أى دليل حياة على الشاطىء ، وصعد باديكين إلى غرفة القيادة . .

وسأل : « هلا ترى شيئاً ؟ »

وكان رد أكيموف « كل شىء هادىء »

وظلوا حوالى أربعين دقيقة ، وهم يتحركون بجوار الشاطىء ، ولم ينبس أحد بكلمة .

وأخيرا فقد أكيموف صبره واقترح « ربما كان يجب أن أذهب وأبحث عنهم ؟ »

ورد باديكين بعنف « لا . ليست عندنا أوامر بذلك » .

وكانوا على وشك أن يرحلوا عند ما ظهرت الأضواء التى انتظروها طويلا فى السماء على مسافة أبعد جنوبا — وهى ثلاثة خضر واثنتان حمراوان . ثم سمعت طلقات من نفس النقطة .

وأمر أكيموف : «بأقصى سرعة إلى الأمام» .

وزادت وطأة الطلقات . ووقف كل فرد على المطاردة الصغيرة فى مكان قتاله . واتجهت الباخرة إلى الشاطىء ، وأمر أكيموف رجل الإشارة أن يعطى الإشارة المتفق عليها — سلسلة من الإضاءات الحمر . وكانت النتيجة المباشرة كما توقع أكيموف هو أن تتجه النار نحو الباخرة . ورد رئيس النوتية ، الذى كان قد أخذ مكانه عند المدفع الميكانيكى «النار فورا» .. وارتفع طائر بحرى يصيح فى السماء .

وسمع نداء أحسن من الشاطىء على مسافة قريبة جدا .. «هانحن هنا يا رفاق» .

ونزلت السقالة على الصخور محدثة صوتا مكتوما وانطلقت مدافع الماكينة بأسرع ما يمكنها .

وقال أكيموف بصوت منخفض من أعلى السقالة «تعالوا . أسرعوا ..»

وكان رجال الاستطلاع يتحركون ببطء جدا ، ويحملون شيئا على أكتافهم . ولم يكن عند أكيموف الوقت الكافى ليعرف ماهو . فقد

كان عليه أن يوجه النار من مدافع الماكينة ومن مدافع التومى مع البحارة ضد العدو الخفى الذى يطلق النار خلف ستار الصخور .

وسأل أكيموف رجل الاستطلاع الذى وصل أخيرا وهو يواجه الشاطىء ويطلق النار وهو يتقهقر نحو السفينة « هل الجميع هنا ؟ » وأجاب وهو ينظر حوله وينزل سلاحه « نعم » .

ورفعت السقالة . ولم يصدر أكيموف الأمر بإيقاف النار إلا عندما كانت المطاردة الصغيرة قد أصبحت على بعد أربعمائة ياردة من الشاطىء .

واتجهت السفينة راجعة إلى موطنها . واختفى رجال الاستطلاع تحت السطح فى الكابين الذى ترك لاستعمالهم كالعادة .

ولم يلبث ليتياجين أن ظهر فى غرفة القيادة وحيا أكيموف .

وأجاب أكيموف « لقد سرنى أن أراك . . كيف سـارت الأحوال ؟ » .

وأجاب ليتياجين « لقد نفذنا المهمة تماما . ولكن أنظر . . لقد فقد الصول خرامتسوف حياته لقد كان رجل استطلاع رائع . وقد قررت أن أحضر جثته معنا وندفنه فى أرض وطنه حتى لا يمثل به الأعداء . وكان من الممكن أن ندفنه بين (النرويين) » . وكان يطلق على النرويجيين دائما

(النرويين) « انهم شعب رائع فهم يكرهون الألمان . ويحمون رجالنا الذين يهربون من معسكرات الألمان . نعم كان من الممكن أن ندفنه هناك . ولكن كنا فى طريق عودتنا فقررنا أن نحضره هنا . ومع ذلك فالنرويين شعب طيب ساعدونا كثيرا » وصمت برهة ثم واصل بلهجة أجمل « لقد قمنا بالمهمة على خير وجه بطريقة رائعة . لقد حصلنا على تقرير سيكون مفيدا جدا لقيادتنا . معلومات هامة جدا » وابتسم ابتسامة شاحبة وقال « شكرا لأياديكم الموفقة » .

وأجاب أكيموف بابتسامة حزينه « بل إذا أردت الدقة ظهرى الموفق » وكان يحس بالحزن على الرجل الذى مات . ولو أنه لم يكن قد عرفه .

ويبدو أن ليتياجين كان لا يريد أن يترك غرفة القيادة . فقد كان يريد أن يقول شيئا ، بصوت كان يرتفع باستمرار ، كأنه يدفىء نفسه بعد الليالى الباردة التى قضاها على الشاطىء . فتكلم عن النرويجيين ومدحهم . وفى نفس الوقت لامهم لأن نشاطهم رغم ذلك لم يكن كافيا فى الكفاح ضد الغازى .

وعندما وصلوا للقاعدة نزل أكيموف إلى الشاطىء مع ليتياجين . وقد دعاه الأخير إلى حجرته . ولكن رغم حب أكيموف لضباط الاستطلاع ، إلا إنه اختلق عذرا ليرفض دعوته وجرى نحو قيادة الأسطول ليعرف أن كان هناك خطاب له . وكان هناك خطاب من

كوفروف من أمه . ولا شيء من أنيشكا . ودهش وخاب ظنه لأنه كان ينتظر خطابا فى هـذا اليوم على الأكثر . حتى لو منعها أى طارىء من أن ترد عليه فى خلال أسبوع من تسلمها خطابه . .

نعم ،حتى لو كانت قد انتظرت أسبوعا ، حتى لو ظلت هذه الفترة الطويلة قبل أن ترد على خطابه الأول فإن ردها كان سيصل حينئذ .

وفى طريقه إلى المنزل ليجفف نفسه ويتناول طعامه . فـكر فى الحياة المنزلية الهادئة والحب المتبادل الذى تحياه عائلة باديكين ، وعاد ، فقد أثارته الآن الراحة والحب .

وتمتم وهو يصعد إلى ظهر السفينة « هـذا هو الحال . ان الزوجة يمكن أن تجد لنفسها رجلا آخر ولـكن المرأة لا تنسى ابنها . وقد عرف الآخرون ذلك قبلك . والآن قد عرفته أنت أيضا » .

وكان نادرا ما يكتب إلى عائلته فى الفترة الأخيرة ، ولـكن الضغينة الحادة التى كان يحملها الآن لأنيشكا . ووخز الضمير لنسيانه أباه وأمه أثار فيه شعورا أليما جعله بائسا يائسا .

ونزل إلى كابين الـكابتن وكتب خطابا لعائلته . ووجد العزاء فى التفـكير فى المنزل الذى ولد فيه وفى أمه وأبيه وأخته . وقال فى نفسه : « إنهم لى . ولن يأخذهم أحد منى ».

ثم صعد إلى ظهر السفينة من جديد وكان الرجال يتناولون غذاءهم في الكابين .

وكانت أصواتهم المرحة واضحة . ولم يلبث أن ابتدأ كاشيفاروف في الغناء . وكان شيجالو وكليماشين يقفان في المقدمة بين الكابلات ، وكان الأخير يدخن ، ويتكلم بصوت خفيض .

« وعرفت أحد الأمريكان . وقال لها « أحبك . أحبك . أحبك » ولكنها ضحكت باستهزاء ثم قال « هل تتقبلين هدية مني ؟ » وأعطاها جوربا حريرياً . فردة واحدة . هل تتصور . وانفجرت ضاحكة وسألته ، ماذا يتوقع أن تعمل بفردة جورب واحدة . وهلا يعرف أن لها رجلين . وقال « ستحصلين على الأخرى فيما بعـــد » وكانت من النوع المرح . وبصقت في وجهه . وأحدث ذلك جلبة كبيرة وذهب أيضا لقائد المدينة ليشكو من أنها قد أهانته ».

وضحك شيجالو باكتئاب . .

وقال كلماشين وهو يهز رأسه متقززا « انهم مجموعة حقيرة ».

وقال شيجالو : « وونت إني »

وكان هذا هو الإسم الذى أطلقه شعب مورمانسك على الأمريكان الذين تعودوا على الوقوف فى الشوارع الجانبية وهم يبيعون الجوارب الحريرية ولفافات التبغ . وكانوا يسألون « وونت إني ؟ »

وهى تعنى هل تريد أن تشترى شيئا ؟ وكانت هذه الفقرة الصغيرة وهى تلقى بلهجة منخفضة سريعة هى شعار كل مغامر فى كل أنحاء العالم .

وانصرف كليماشين وبقى شيجالو وحده . وبدأ يكلم نفسه ويسعل، ثم لمح أكيموف . .

فقال مندهشا « هل لازلت هنـــا . . لقد ظننتك قد انصرفت »

وأجاب أكيموف « لا . إنى لازلت هنا » ثم سأل « هل كان من الصعب عليك أن تتعود على الحالة هنا فى الشمال ؟ » .

« لا . فالخدمة هى الخدمة فى كل مكان والمكان يبدو بغيضـــا فى البداية طبعا — فلا جمال فيه ، بل إنه على العكس تماما . ولكن عندما تعودت عليه ، لم يبد بهذا القبح . وفى الحقيقة فقد أصبحت أحبه تماما » ونظر نحو أكيموف متفحصا إلى حدما وسأل « وكيف الحال معك ؟ هل تعجبك الحال »

وقال أكيموف بسرعة « إننى لا أهتم . فلا بأس بها » ثم نظـــر للأمواج الغاضبة وأضاف « جوفاسد » .

وتنهد شيجالو وكأنه يحلم . .

وقال « لقد كان هناك وقت كنا لانبحر فيه إلا فى الجو الهادىء، ولكننا الآن لانهتم بالأمر مهما كانت حالة الجو . فهل تظن أنه كان من الممكن أن أخرج فى ريح هائجة كهذه بمثل هذه السفينة فى وقت السلم ؟

بلا خوف . . ولكننا الآن نفعل . . ولازلنا على سطح الماء . . وقد تصل إلى الظن أن السفينة نفسها تستطيع أن تفهم أن هناك حربا. وبالنسبة للرجال ! فليست عندهم الآن أفكار خارج العمل . وكل رجل يعمل كأربعة رجال ولا يئن إلا قليلا . على أية حال ، بين فترة وأخرى ، وغالبا ضد هتلر . . »

وصمت برهة ثم نظر إلى أكيموف فاحصا ، وقال « ربما أردت أن ترتاح هنا يارفيق القائد ؟ سنقيم لك سريرا هنـــا . ونحضر لك بعض الطعام » .

وقال أكيموف « سيكون ذلك رائعا . نعم . هذا ما سأفعله » .

وقد خجل من أن رئيس النوتية رأى حالة الحزن التى شملته وفكر بدهشة وغضب « ما كان ذلك ليحدث لى فى الأيام الماضية » .

ومنذ ذلك اليوم لم يكن أكيموف ليترك المطاردة الصغيرة أبدا . . وقد أجاب على تساؤلات باديكين المتكررة بأنه يريد أن يتعرف على مجرى الأمور وأن يتكلم مع البحارة . وأن ذلك يفيده تماما . وقد تأثر باديكين لذلك كثيرا ولكنه لم يعترض . .

الفصل السادس

البحر والبر

(١)

« لا أفكار خارج العمل » لقد بدت هذه الكلمات كأنها تعنيف لا كيموف رغم أن شيجالو لم يكن يعنى ذلك . وقد أثارته الكلمات وحاول أن يقلل تفكيره فى أنيشكا . ولعدم وصول أى خطاب منها ، فقد حدد لنفسه مدى ، وقال لنفسه أنه آخر ميعاد يحدده ، ثم يحاول بعده أن ينسى أنيشكا . ويجتث ذكراها من قلبه . وقد كان هذا مستحيلا بالطبع ولم يكن يعنيه فى الواقع ، ولكنه كان متأكدا من أنه يمكنه أن يحبس ذكراها فى أعماق قلبه ويخفيها بأفكار أخرى وذكريات أخرى . وبالأخص بالعمل الموكول إليه .

وقرر أن يكون يوم رأس السنة ، سنة ١٩٤٤ ، الحد النهائى .

وفى الليلة التى سبقت رأس السنة ، بينما كانت كل الثكنات على الصخور تستعد لاستقبال العام الجديد . وضباط التمرين يوزعون الفودكا ، والنساء تخبز الكعك ، ويزين الأطفال أشجار الموسكى القطبية

الضئيلة بلعب من صنعهم ، جاء الأمر لسفينة الملازم باديكين لتبحر مع قافلة من السفن ، وتدافع مئات من البحارة باكتئاب ظاهر إلى مرسى السفن .

وقررت قيادة الأسطول أن يظل باديكين على الشاطىء . ويقوم الضابط الذى يتمرن معه بقيادة السفينة وحده أثناء العملية . وقد صادف ذلك هوى من نفس الملازم القصير الذى كان يتمنى أن يقضى رأس السنة مع زوجته . ولكنه كان قلقا مع ذلك ، ولم يكن ليتصور أن سفينته تبحر إلى البحر بدونه . وقد راقب اختفاءها مع الآخرين فى الظلام بقلق وحنان .

وقد أمرت الوحدة بأن تقابل قافلة أمريكية وتحرسها إلى ميرمانسك .

وقد جعل الظلام تمييز السفن الأخرى مستحيلا . ولم يكن هناك شعور بالوحده ، بل على العكس ، كان يبدو أنه لا يوجد مكان للمناورة . وبين حين وآخر كانت تلمع لمبات إشارة فى الظلام ويتلقى عامل اللاسلكى إشارات من قائد القافلة ويسلمها إلى أكيموف فى كابين القيادة . وعند منتصف الليل انقشعت السحب واستضاءت السماء ببريق أضواء الشمال . وأمسك أكيموف بمكبر الصوت ليعبر للرجال على السطح عن تمنياته لهم بعام جديد سعيد . ثم أرسل لمن بأسفل السفينة بتمنياته خلال ماسورة الاتصال . وأبرقت إشارات التهنئة من سفينة إلى سفينة .

وأعلن أحد رجال الإشارة « دخان استاربورد . اثنين خمسة »

وظهرت القافلة الأمريكية على مرمى البصر . وكانت تتكون من حوالى عشرين سفينة من حمولات مختلفة . تحف بها وحدات أسطول صغير .

وتعرف البحارة على بعض السفن الأجنبية وقال أحد رجال الاشارة . « هذه الليدى جين » وقال كاشيفاروف « وهاهى جولدين ستيلا » وقد أومأ بذقنه ناحية السفن الأمريكية لأن يديه كانتا مشغولتين .

ولم يلبث أن تمكن البحارة من تمييز أشباح على السفن التجارية . وكانوا يقفون على سطح سفنهم التى كان يبلغ ارتفاعها مبنى ذا أربعة طوابق . ولوحوا بقبعاتهم لسفينة الحراسة السوفيتية المتقدمة نحوهم .

وأبطأت مدمراتنا ومطاردات الغواصات وسفن الحراسة وسفن الصيد من سيرها وانتظمت بالصورة التى كان قد اتفق عليها . وكان مكان أكيموف فى أقصى الجانب الأيسر للقافلة . وبعد مناورة معقدة أبحرت القافلة إلى مورمانسك . وكان التقدم بطيئا ، لأن السرعة كان يجب أن تتناسب مع أثقل السفن التجارية .

وعندما بدت فى الضوء شبه جزيرة ريباشى مثل جبل لامع مغطى بالجليد يبرز من الميـــاه القاتمة . برز للحظة منظار غواصة على سطح

الأمواج على بعد حوالى ستمائة قدم منهم ثم اختفى . وقد لاحظه أكيموف وبحارته وكان من المستحيل أن يضيعوا لحظة . وأمر أكيموف « اهجم بأقصى سرعة إلى الأمام . احضروا قنابل الأعماق » ثم عندما وصلت السفينة إلى النقطة التى برز منها منظار الغواصة . تذكر أن تكون الشارة مرفوعة على الصارى .

وانطلقت صواريخ الضوء حسب الاتفاق . وأسقطت قنابل الأعماق وارتفعت أعمدة ضخمة من الماء فى مؤخرة السفينة . وكانت المياه رمادية كالرصاص فى البداية ثم خضراء صافية .

واستدارت المطاردة ورجعت حتى أصبحت السفن التجارية ووحدات الأسطول من جديد قريبة منها . وأضيئت السماء بصواريخ إنذار بيضاء . ثم ارتفعت فى سماء شبه الجزيرة شعلات جعلتها مضيئة كالنهار . وكان من السهل رؤية أشباح ثائرة تجرى على سطح السفن الأمريكية القريبة .

وتمتم أكيموف كأنه يطمئن السفينة الأمريكية : « إن كل شىء عادى أيتها الفتاة العجوز . وسنؤمن وصولك سليمة » ، وامتلأت نفسه بكره للعدو المختبىء فى المياه الساكنة ، وامتزج الكره بقلق جنونى على السفن الأجنبية التى كانت حمولتها ذات أهمية حيوية للماجور جولوفين ، وما يبورودا ، وفايزولين ، وفيتا جوف ، وفيلكوف ، وأوريشكين ،

وكذلك أنيشكا . . وكان جرس الخطر لا يزال يرن بجنون . وأمر أكيموف « استعد » وألقيت من فوق سطح السفينة كمية أخرى من قنابل الأعماق . وارتفعت من جديد شلالات المياه الزمردية وسقطت عند مؤخرة السفينة . واستدارت الباخرة حسب أمر أكيموف واتجهت نحو وسط البحر . ووقف كليماشين عند المؤخرة وهو على استعداد لأن يلقى بمجموعة أخرى من قنابل الأعماق . وصاح راصد الغواصات من أسفل بصوت مختنق « اقذف من الجانب الأيسر . واحد ثلاثة خمسة » .

وألقيت كمية أخرى من قنابل الأعماق ثم استدارت مطاردة الغواصات من جديد . وتقـــدمت مطاردتان أخريان حسب أوامر قائد القافلة لتساعد أكيموف . وكانوا قد اقتربوا تمـاما عندما رفع أحد البحارة وجهه المشرق نحو كابين القيادة . وهلل فجأة .

وانتشر شريط ضيق من الزيت ببطء على مسافة قريبة ، على سطح البحر الهائج المائج . وعاد نفس الصوت فى صيحة النصر «هرا» .

وكان هناك بالطبع احتمال بأن تـكون الغواصة الألمانية فى محاولتها للهروب ، قد تظاهرت بأنها تعطلت بإطلاق بعض الزيت نحو السطح . وكان بود أكيموف أن يظل مستمرا فى المراقبة ولو ظل أسبوعا ليقضى عليهـا أو ليتأكد من أنهـا قد غرقت فعلا . ولـكنه تلقى الأمر

بالعودة إلى القافلة ونفذ ذلك ، تاركا مطاردتين صغيرتين أخريين لتخفرا المكان . وعزى نفسه بأنه قد اكتشف الغواصة وأنها لم تتمكن من أن تطلق طوربيدها المميت بسبب تصرفه الحاسم .

وبعد أن حرسوا القافلة حتى مورمانسك رجع أكيموف إلى القاعدة مع وحدات الأسطول الأخرى وربطت باخرته فى مرساها العادى بجوار المطاردات الصغيرة الأخرى من فرقة الحراسة .

وفى تلك اللحظة كان قارب البريد البخارى السريع ، الذى يعرف بلونه الأخضر الفاتح ، قد ظهر فى الخليج . وأشار إلى المطاردات الصغيرة « هناك بريد لكم هل اقترب منكم ؟ » واتجه كل البحارة إلى السطح فى كل المطاردات لينتظروا البريد .

وفى نفس الوقت . كان أكيموف يحكى لباديكين عن المغامرة مع غواصة العدو ، إستفاض فى التفصيلات . ومع ذلك فقد كان كل اهتمامه مركزا على حقيبة الخطابات التى كان يوزعها رئيس النوتية شيجالو . وكان بعضها ذا ظرف ملون وبعضها مجرد مثلثات بيضاء ولم يلبث أن بقى مع شيجالو خمسة خطابات فقط ثم اثنان.. وأخيرا واحد . وقد قلب شيجالو هذا الخطاب فى يديه وهو يكشر . ثم فتحه وبدأ فى قراءته .

وقال أكيموف : « هذا كل ما فى الأمر » .

وقال باديكين متعجبا « عمل عظيم أيها القائد . انها عملية جيدة » تطرب لها النفس، وكانت عيناه تشعان بالسعادة .

(٢)

وصعد إلى ظهر مطاردة الغواصات ملازم أول ذو وجه عريض فاقع اللون وعينين قصيرتي النظر وترمشان . وقال لأكيموف: «المراسل الحربي كوفاليفسكى »ثم أخرج مفكرته وبدأ يسأل مباشرة عن الغواصة الألمانية الغارقة .

وأجاب أكيموف باكتئاب : « إنها لم تغرق على الاطلاق »

وألقى كوفاليفسكى بنظرة حزينة إلى باديكين وقد أخذ تماما . وسأل « ماذا تعنى إنهم أخبرونى فى القيادة . . . »

ورد أكيموف : « إن القيادة لا تعرف على وجه التأكيد. ولا يعلم سوى الألمان »

ولكن كان من الصعب التخلص من كوفاليفسكى وفى النهاية كان على أكيموف أن يخبره بتفاصيل كل العملية وأخذه باديكين هو والمراسل إلى كابينه . ولم يكن يوافق على تواضع أكيموف . وظل يردد لكوفاليفسكى . . .

« أكتبها . أكتبها »

وكان من مميزات كوفاليفسكى قدرته على جعل الناس يتكلمون . وفى مثل هذه الحالات الصعبة . عندما يرفض الناس أن يتفوهوا بشيء. كان يتصنع تعبيرا من الإيلام واليأس يجعل الشخص يظن أن عدم إفضائه بما عنده نوع من الجرم .

وكان كوفاليفسكى يحب البحر والبحارة إلى درجة العبادة . وكان يخجل نوعا ما لكونه مجرد ضابط مراسل وليس ضابطا عاملا . وعندما كان يتكلم فى موسكو مع أناس قليلى الدراية ، كان يحاول أن يشعرهم أنه ضابط بالبحرية فى طاقم إحدى السفن . ولم يكن يعمل ذلك لأنه مخادع بطبعه . فقد كان على العكس رجلا شريفا . بل كان ذلك بسبب بعض الغرور . وقد كان يعتقد فى قرارة نفسه أنه بحار مجبول . ولم يكن بقاؤه على الشاطىء . إلا نتيجة لمعاكسة ظروف سيئة . وكان ملما بكل أنواع ودرجات وحدات البحرية . وكان يحفظ العدد الكامل لكل السفن الحربية أو حاملات الطائرات أو الطرادات الألمانية والبريطانية والأمريكية التى بنيت أو غرقت . ونادرا ما كان يتكلم دون أن يستعمل بعض التعبيرات البحرية .

وكان يحفظ مجموعة كاملة من القصص عن تفصيلات معارك الغواصات وزوارق الطوربيد والمدمرات وكان يعرف تماما كل ضابط أو بحار فى الأسطول الشمالى نال شهرة ما .

وقال لأكيموف : « على كل فلقد تعرفت بك الآن » وكان يسره أن يتبادل معه الحديث . ولكنه ارتبك لتجهم أكيموف . وتعبيراته الصارمة . وكان من السهل عليه أن يلاحظ أنه كان منصرف الذهن ، ثم ودع ونزل إلى الشاطىء . .

وسأل باديكين أكيموف : « وماذا ستعمل أنت ؟ تعال معى . لقد احتفظنا ببعض كعك رأس السنة لك » .

وقال أكيموف وهو ينظر بعيدا : « سامحنى حقيقة ياباديكين . فليس فى مقدورى ، فقد وعدت أن أذهب لرؤية ميجينوف » .

وقد ذهب حقيقة إلى ميجينوف فى سكنات رجال الغواصات . ولو أنه كان لا ينوى الذهاب إليه قبل ذلك بدقيقة » .

وكان ميجينوف قد رجع من الدورية منذ حوالى ساعتين . وقد أصابت غواصته مدمرة ألمانية من طراز « ليبريشت ماس » ولكنها لاقت المصاعب هى الأخرى فقد هاجمتها ثلاثة زوارق مطاردة بقنابل الأعماق .

وقال ميجينوف : « لقـــد تمكنا من مجرد الهروب . وقد تتبعونا ساعتين كاملتين . وقد ظننت أنه لا أمل لنـــا . وقد جاء هنا قائد الأسطول منذ لحظات ليرانا . وقال لنا « أن طائراتنا قد بلغت أن المدمرة غرقت ، وستكون هناك مكافآت على هذا العمل لقد سرنى

حضورك ياباقل . فلنتناول بعض الشراب لرفع معنوياتك . لقد ظهر عليك البؤس منذ أن عملت مع هذا الباديكين . إن وجهك يبدو كباب السجن . حقيقة » .

وقال أكيموف : « انني اظن ان الألمان يشعرون الآن بالزهو. لقد ظنوا انهم قداغرقوا غواصةسوفيتية . وإنني اراهن علىأن قيادتهم تكتب الآن التقارير .ومراسليهم يدبجون المقالات . . »

وقاطعه ميجينوف وقد وجد الموضوع مضحكا تماما : « وهذه احدى المهازل المضحكة » .

وذهب ليبادى رفاقه واعدت المائدة بسرعة . وكان رجال الغواصة لا يتكلمون إلا عن العملية الأخيرة . ومن الطبيعى ان كلامهم كان لا يخلو من بعض الغرور . وقد حاول ملازم ذو شعر فاتح ان يقنع أكيموف أن رجال الغواصات هم اهم رجال فى البحرية هؤلاء الذين يسببون اكبر خسائر للألمان . وكان أكيموف متعبا فلم يعارض بل عاكس رجال الغواصات قائلا « وماذا عن المدمرات ، هل لا فائدة منها ؟ » .

ولم يكن عند رجال الغواصات مايعترضون به على المدمرات. ولكنهم مع ذلك كانوا يصرون على أن الغواصات أهم من كل الوحدات الأخرى . ولم يعارضهم أكيموف ايضا ولكنه سألهم متعجبا « والطيران البحرى هل لا يساوى شيئا ؟ »

وقد قدروا الطيران البحرى حق قدره ولكن دون ان يغبنوا الغواصات »

وشرب أكيموف كثيرا ولكنه لم يظهر عليه اثر يذكر .

واصبح ميجينوف عاطفيا فجأة : فألقى نظرة حبيبة ومخمورة على كل من حوله وقال « كم انتم زملاء اخيار ، كلكم . . ولكنه هو — مشيرا إلى أكيموف — » خير زميل لى . وسيريكم كلكم قريبا . . فإنى أعرفه تماما . إنك شخص رائع يا بافل . فقط عندك عيب واحد — هو انك لست من رجال الغواصات . وهذا فى صحة بافل أكيموف »

وشرب الجميع نخبا ثانيا ثم اتفقوا على الذهاب إلى نادى الأسطول .

ولبست المجموعة المرحة معاطفها وخرجت . وفاجأتهم فى الطريق عاصفة ثلجية قطبية — سحابة من الثلج الحبيبى يصعب عليك فيها أن ترى من يسير بجوارك . وتنقشع سحابة وتظن أنه لم يكن هناك ثلج على الاطلاق ثم لاتلبث ان تأتى فجأة سحابة اخرى .

وكان يسمع على بعد أصوات الفالس . وتصور أكيموف فجأة . أنيشكا . وهى تسير فى الوادى بجوار اورشا فى هذا الليل الخريفى المظلم . وقد جذبتها الموسيقى فى خندقه . وأحس لحظة بشعور غريب .

وكأنه هو نفسه أنيشكا تسير فى الليل القطبى إلى حيث كان يعزف الفالس . وكأن أكيموف ينتظرها .

ثم انقشع الشعور الخيالى . ولم يعد يحس بالفتاة التى يحبها قريبة منه إلى هذا الحد . فعلى العكس كان يهاجمه اليأس والشك فى نفسه وفى أنيشكا . وأحس بأنه ضحية سوء حظ فظيع . . وأن انيشكا نسيته تماما. وحاول بسذاجة ان يستنتج السبب وظن انه لايستطيع ان ينتظر شيئاً آخر . لقد اعتقد فى البداية انها ستذكره وتحبه باستمرار ، ولكن ذلك كان وهما يدل على الغباء مثل اوهام الكيماويين القدامى الذين كانوا يدعون ان بإمكانهم ان يحبسوا اشعة الشمس فى أوان زجاجية .

وإذا كانت قد احبته بهذه السرعة . فما الذى يمنعها يا أكيموف من ان تحب شخصاً آخر !

وهناك عدد كبير من الأشخاص المناسبين فمثلا ، الكابتن شيرنيخ ، قائد الكتيبة الأولى الجديد ، فالجنود يحبونه وكذلك الضباط ، ويحبه جولوفين أيضا . وكان شيرنيخ حسن الهيئة ، هادئا . متحفظا ، وحاذقا ورشيقا فى حركاته . ولم يكن أخرق طائشا مثله . وكلما فكر أكيموف فى الأمر كلما زاد اقتناعا ان الكابتن شيرنيخ والكابتن شيرنيخ وحده هو الجدير بحب انيشكا . .

ولكنه جادل نفسه بسخط « ومع ذلك فلا زلنا زوجـــين »

وضحك من الفكرة فما قيمة أن يكون اسمه واسم أنيشكا قد كتبا متجاورين فى مكتب تسجيل كبير فى مكان ما على الجانب الآخر من الأرض تقريباً ؟ وما الذى يمكن أن تفعله المرأة المتوسطة السن ذات النظارات التى ارتعشت يداها قليلا عندما كتبت هذين الاسمين ؟

وأحس أكيموف بنفسه وقد مزقه الحزن . وتمتم من خلال أسنانه المطبقة للريح والثلج الذى كان يلطم وجهه كأنه يحييه : « ازدد شدة . . ازدد شدة . . ماذا يمكن أن تصنع مع أحمق سوى أن تضربه . . ؟ »

ثم احس بالحالة التافهة التى سيطرت عليه وناقش نفسه بوضوحه المعتاد . وعرف أن السبب هو الاجهاد والفودكا . . ولم يلبث أن استجمع نفسه من جديد .

وصاح لمجينوف « أين أنت؟ هل لازلت حيا ؟ » .

وصاح مجينوف هو الآخر : «حيا وقويا . . » وكان هزيم الرياح وصفير الثلج المتجمد حولهم يخفى صوته .

« شكرا لله على ذلك . . لقد كنت أعجب لعدم سماعى صوتك . فليس الصمت من عادتك . مارأيك فى أغنية ؟ » .

« فلنفرض أن بعض الضباط الكبار سمعونا ؟ سيقولون أننا قد سكرنا » .

« حسنا . هل تظن أننا واعون ؟ اننا طبعــاً سكارى . يجب ألا تخدع رؤساءك » .

وانفجر الجميع بالضحك . واقترب صوت الفالس . وأخيرا رأوا بناء ضخما وقد غطى درجاته ثلج سقط حديثاً . وكان سطحها المستوى يجعل الشخص يظن المكان مهجورا .

ولكنه كان مليئاً بالناس . وكانت تغطى سجاجيده الملساء وجدرانه ذات الأخشاب، الأضواء الكهربائية الهادئة والمتألقة نوعا ما . ولم يكن هناك ضباط الأسطول والطيران البحرى فقط ،بل عدد غير قليل أيضا من النساء ، موظفات اتصال وزوجات ضباط . وكان معظم النساء يرتدين ملابس سهرة حريرية . ويجلسن فى جماعات بجوار الجدار ويتأملن الضباط . وكان بعضهن يهمس ببعض ملاحظات ليس فيها من المدح شيئا كانت تجعل الأخريات يستغرقن فى الضحك . وكان المظهر العام يشبه تماما مظهر أى ناد بحرى فى أى مكان فى الجنوب فى ظروف أهدأ .

وبدأ الرقص من جـــديد . وكانت الملابس الطويلة تلتف حول السيقان الممشوقة للراقصات اللائى ينزلقن على أرض الحجرة . وكان بعض البحارة يلفون بسرعة مع زميلاتهم فى الرقص . وعلى وجوههم تعبيرات صارمة كمن يؤدى واجبا غير محبب إلى نفسه ولا مفر من تأديته . وكان يبرق أحيانا وجه شخص انغمس فى شراب زاد قليلا عن

المعتاد . وهو يحاول بمجهودات فوق طاقة البشر أن يبدو جادا ولكنه يتحول إلى تجهم بين الصرامة والصلف عندما تلتقى عيناه باعين بعض النظارة وكأن عينيه تقولان : «إن هذا بالطبع غباء . ولكن ماذا يمكنك أن تفعل ياصديقى ؟ » .

وكان من الممكن أن يبدو كل شىء كزمن السلم تماماً . لولا ذلك الصوت الآمر للضابط النوبتجى الذى يظهر وجهه الرزين بالباب بين حين وآخر ويصيح بأوامر مقتضبة : الملازم فلان يذهب لسفينته . القائد فلان يتوجه إلى الضابط القــــائد . جراح السفينة فلان مطلوب فى مستشفى السفينة . أو ربما طواقم بأكملها لتذهب إلى سفنها أو غواصاتها . وكان ينادى أحياناً على الكثيرين فجأة بحيث كانت الردهة تبدو فجأة نصف مقفرة . وكان أولئك الذين ينـــادى عليهم يتركون زميلاتهم فى منتصف خطوة الرقصة ويختفون مباشرة وربما بقيت النساء لحظة وأيديهن معلقة فى الهواء حيث كانت أكتاف زملائهن . وتظل الابتسامة الفاترة المترنحة قليلا تتراقص على وجوههن ثم يتسللن بحياء إلى مقاعدهن بجوار الجدار لينصتن إلى شىء ما فى الخارج ، وكأنه يمكن سماع أى شىء من خلال هزيم الرياح وهدير الأمواج .

وعندما كان أكيموف يتتبع هــــذا المشهد خطر له فجأة : « ربما أنيشكا قد قتلت أو جرحت ؟ » وتعجب لأن الفكرة لم تخطر له من قبل . ولم يتصور لمــاذا أهمل التفكير فى هذه الناحية . فقد فكر فى كل

شيء آخر ولكنه لم يتصور أبداً أن شيئاً قد حدث لأنيشكا . ثم عاد وأكد لنفسه : « من المستحيل فإن جولوفين كان سيخبرني » ثم اقشعر بدنه عندما أحس كم هو عديم الحيلة . فما كان ليستطيع أن يعمل شيئاً فلا يمكنه أن يذهب إليها . أو يستدعيها إليه . أو يرسل إليها برقية .

وقطع مجينوف عليه أفكاره الكئيبة . فقد رقص ضابط الغواصة الذى لا يقهر مع فتاة فاتنة فى الخدمات الطبية . حتى أصبح من المستحيل عليه أن يرقص بعد ذلك . ثم اتجـــــه نحو أكيموف وهمس فى أذنه : « فلنذهب إلى الفاليا فهناك بعض الفتيات الرائعات » .

وهز أكيموف رأسه واتجه نحو المكتبة حيث كان المكان أهدأ ولو أنه مملوء بالناس كذلك وقرأ الصحيفة ثم قرر أن يكتب لأنيشكا . .

وكتب : « عزيزتى انيشكا ، انى أكتب ثانية ولو أنى لا آمل فى الرد : وكان على أن أتوقف عن الكتابة إليك منذ زمن طويل . ولكنى يومياً وقتما أجد دقيقة أنفرد فيها بنفسى أجد من المستحيل على أن أتفادى الكتابة إليك . انى أحس التعاسة بدونك . ومع ذلك فإننى أقول لك الحقيقة الآن . انى لم أكن لأتصور أنه من الممكن أن تحب انساناً بحيث يستحيل عليك تمضية يوم بدونه . وإنى أحاول أن أتذكر كل شيء أراك تهتمين له ، لأخبرك عنه . ولم أحس ذلك قبلا ـــ وقد حاولت بكل جهدى أن أصل لأعماق أفكارى وتصرفاتى . وعنـــدما أصل لفكرة

بارعة — وإنى أصل إلى بعضها بين الحين والآخر — أحاول ألا أنساها حتى أحكيها لك كما خطرت لى تماماً ، عندما نلتقى ، لأظهر لك براعة زوجك . وإنى لا أعرف لماذا أكتب كل ذلك الآن . ومن المرجح أنك ستضحكين على . وفى وقت مضى لم أستطع أن أفهم كيف أحببتينى . ولكنى لا أفهم الآن كيف يمكنك أن تنسينى . . . » .

وعندما أنهى خطابه نهض لينصرف . وسمع فى الردهة صوت الضابط النوبتجى الجازم : « القائد أكيموف . يتوجه إلى القيادة » .

وظن أولا أنه لابد من أن يكون هناك ضابط آخر له نفس الإسم لأنه لم يستطع أن يتصور شخصاً يريد رؤيته . ثم رأى ميجينوف يعدو نحوه . .

وقال ميجينوف بسرعة : « انهم ينادونك . تعال . سأصحبك إلى هناك ان كنت لاتعرف الطريق » .

وأحس أكيموف بقلبه ينبض بالحب لصديقه . لأنه كان يعرف كم سيتحمل ليترك الرقص والفاليا ليعاون زميلا . .

وقال : « حسناً . ياصديقى . انه يمكننى أن أعرف الطريق . فلتعد لتواصل الرقص » .

ودفعه نحو صالة الرقص وارتدى معطفه . وخرج إلى الظلام حيث كانت الرياح لاتزال تعوى .

وكان هو المطلوب فعلا . . واستقبله ريرادميرال . وعينه قائدا لمطاردة غواصات أكبر وأحسن تسليحـــا من تلك التى كانت تحت قيادة باديكين .

وأحس أكيموف بالارتباك عندما فكر فى باديكين . فقد بدا له كأن باديكين قد أحط من قدره بينما رقى هو إلى مركز أعلى مما يستحقه وقد اجترأ وأعلن ذلك ، ولكن الرير أدميرال أجاب بشدة . « نحن نعرف أحسن ».

وعندما اقترب بعد ذلك من الرصيف حيث كانت سفينة باديكين راسية . عرف أكيموف كيف كان من الصعب عليه أن يتركها . وكان يمكنه أن يسمع من المطاردة الصغيرة صوت شيجالو وأغنية يغنيها كاشيفاروف .

وكانت الأغنية تقول : « لن تستسلم الفارياج المتشامخة للعدو أبدا ». ورغم أن إطلاق اسم « الفارياج المتشامخة » كان يبدو مبالغا فيه بالنسبة لسفينة صغيرة لم يكن لها اسم بل مجرد رقم . إلا أن ذلك لم يثر فيه أى شعور بالسخرية فى تلك اللحظة . وكان يبدو أنه يجد كلمات الأغنية متناسبة تماما مع المطاردة الصغيرة وقائدها .

واستلم السفينة التى كانت ستصبح سفينته ثم ذهب ليودع باديكين ولكن كانت سفينته قد أقلعت فى تلك اللحظة . . ولم يكن هنـــاك أى

شخص فى المنزل الصغير على التل . ووجد أكيموف المفتاح فى مكانه العادى . وعبأ حاجياته وخرج . وأغلق الباب ووضع المفتاح فى مكانه وبينما كان يبتعد ألقى نظرة وداع على الأزهار فى النافذة وقال بصوت مرتفع : « مع السلامة يا باديكين . مع السلامة يانينا » قال ذلك ثم اتجه نحو سفينته .

وصاح شخص ما عندما وصل القائد الجـــديد إلى ظهر السفينة « انتباه . . » ووقف كل البحارة بلا حراك، وتجولت عينا أكيموف فيهم . ثم حيا شعار البحرية السوفيتية وبحارة السفينة . وفكر فى أن كل همومه وأمانيه الخاصة قد أصبحت الآن فى ذمة الماضى . وعندما نظر إلى المياه القاتمة فى الخليج قال لآماله وسعادته التى كانت تبدو له الآن ضئيلة ، سلاما . ونادى عليهم « استرح » وصعد إلى غرفة القيادة ..

— ٣ —

وكانت أنيشكا لم تجب على خطابات أكيموف لأنه قد حدث فى حياتها تغيير كبير ومفاجىء وإلى جانب ذلك لأنها كانت قد تركت آلايها وحتى الجيش بأجمعه . لم يكن عندها عنوانه . وبالنسبة لكابتن شيرنيخ فإنها لم تكن لتعرفه ومن المرجح أنها لم تكن لتتذكر اسمه أو شكله وكانت بالطبع سيذهلها أن تعلم أن أكيموف غيور من رجل مثله « كان لا يعنى بالنسبة لها أى شىء إطلاقا .

ولم يكن قد مر أسبوعان على رحيل أكيموف عندما أعيد تكوين الآلاى فى منطقة بولوجيا ، وقد تلقت أنيشكا فى ذلك الوقت خطابين كان أكيموف قد أرسلهما من موسكو . ولكنها لم تتمكن من الرد عليه لأن عنوانه فى قيادة الأسطول فى موسكو كان مؤقتا . وكان هو نفسه قد نصحها بألا تكتب إليه إلا بعد أن تتلقى منه عنوانا ثابتا .

وفى أول نوفمبر . تلقى الآلاى الأمر بأن يستعد . وانضم لآلايات أخرى سافرت بالقطار إلى الجنوب . وكانت تجر القطار قاطرتان إحداهما من الأمام والأخرى من الخلف ونزلوا فى ٣ نوفمبر بجوار كييف عاصمة أوكرانيا . ومن هناك اتجهت الفرقة وبضع فرق أخرى غربا وانضمت للجيش الاوكرانى الأول الذى كان عليه أن يحرر كييف.

وكان يمكن أن تشعر من بداية الحملة بالتوتر فى كل مكان . وحالة الانتظار المحموم التى تسبق المعارك بعنف تام . وكانت الطائرات تشاهد دائما تقريباً وهى تحارب فوق الرءوس . لأن قوات العدو الجوية كانت تلازم جيشنا باستمرار وهى تفرقه بالقنابل ومدافع الماكينة لتؤخر الهجوم وتجعله أقل تأثيرا وذلك بإرهاب قواتنا . وكانت أمطار الخريف تجعل السير فى الطرق مستحيلا تقريبا . وغالباً مايضطر الرجال لسحب الكثير من العربات خارج الوحل . وكان الماجور جولوفين ، الذى كان يركب على ظهر حصان ، يائسا من الاختفاء التدريجى لحالة الأناقة والرضا التى فارق بها الضباط والجنود منطقة الراحة فى المؤخرة .

ولكننا كنا نتقدم . وبالرغم من الطرق السيئة ، والخطر المستمر ، فقد شجعنا رؤية الاندفاع القوى لقواتنا وعتادنا والسيارات والعربات الألمانية المحطمة والتى تركت على جانب الطريق ولا يزال بعضها مشتعلا . .

ووصل الآلاى إلى دينيبر حيث بدأ عبوره تحت وابل من القنابل وقذائف المدفعية وكانت التلال المرتفعة على الجانب الآخر صفراء من أوراق الخريف وسوداء من المبانى المحترقة فى كييف .

وما كان زئير المعركة الذى يصم الآذان . أوصيحات الانفعال العالية لآلاف الرجال ما كان ذلك ليهز من صمت أنيشكا المحير . وكانت حالتها تبعث الثقة بالمحيطين بها . وكان رجال الوحدات المصفحة التى تمر منطلقة ، يطلون من فوهات الدبابات ، يلوحون لها ، يظلون ينظرون وراءهم إليها إلى أن يختفوا فى الجحيم المستعر على الجانب الآخر من النهر وكان من المحير تماما أن ترى فتاة تتقدم أمام ثلة من رجال الاستطلاع الصامتين مطلقى الذقون وهم يرتدون قبعات تعمية . حتى أن الجنود المارين من فرق أخرى كانوا يصيحون بملاحظات أحيانا حبية وأحيانا بها تورية ، وكان رجال الاستطلاع يوقفون النوع الأخير من الملاحظات بصرامة قائلين : « كفى هذا . . . اذهب قبل أن تصفع على وجهك . »

وكان تأثير هذا التهديد مباشرا . فبعدها يسرع الجنود فى خطاهم

وقد ازدادت دهشتهم من تقدير رجال الاستطلاع للفتاة واستعدادهم للزود عنها كما بدا فى أصواتهم .

وكانت المدفعية تدوى طوال الوقت. وتنقض مئات الطائرات ذات النجوم الحمراء من كل مكان فوق الجانب الآخر من النهر وتلقى بقنابلها وتقفل راجعة . وكان اليوم التالى مناسبة تاريخية — الذكرى السادسة والعشرون لثورة أكتوبر — وجعلت هذه الظروف معركة كييف هامة ورهيبة .

وقد شعرت أنيشكا فجأة بوعكة خلال العبور . فشحب لونها وشعرت بالدوار . ولم تلق اهتماماً كبيراً لذلك فى البداية . وقد عزتها إلى حالة الخوف من الموت التى كانت تحلق فوق رءوس الألوف من الرجال على جسر الهجوم . ولكن بعد أيام قليلة من معركة كييف ، عرفت فجأة وهى مذعورة ماذا يعنى الأمر .

ومن العجيب أنها قد ارتبكت تماماً ورغم أنها لم تكن ساذجة ، فقد وجدت الأمر غير مفهوم ان لم يكن فيه بعض الحماقة والفظاعة فالليالى القليلة التى قضتها مع الرجل الذى أحبته فى القرية المجاورة لمحطة بولوجويا على خط سكة حديد أكتوبر — ليال لم تكن كلها لذة لها — سببت حياة جديدة لجنين فى أحشائها . ثم بدأت فى الاسترسال فى التفكير . ففكرت فى أنه عند ولادة الطفل ستتركه مع عمتها ناديا وتعود للجيش .

ولكنها أدركت أن ذلك هراء . فإنها لا يمكن أن تترك طفلها مع أى شخص . فإنه يجب أن يطعم ويربى ويعلم فهو ليس نوعاً من اللعب . بل بشر . طفل . طفلها . وكررت لنفسها « طفلى » وهى تضحك ولم يكن فى استطاعتها أن تصدق الأمر . وكانت فى تفكيرها المتواصل وبساطتها الواضحة تتعجب كيف حدث ذلك وبهذه السرعة . وكانت تظن أن الشيء الطبيعى أن يأتى الأطفال بعد مرحلة طويلة هادئة من الحياة الزوجية .

وأثناء تقدمها مع رجال الاستطلاع على طول الطريق نحو الجبهة — الطريق المزدحم بالجنود والعربات — تغلبت على حالة الغثيان وتمكنت من السيطرة على أعصابها . وكانت تفكر فى نفسها طوال الوقت . وقامت بكل ما كان يتوقع منها . ولكنها عند ما كانت تنظر للرجال حولها كانت تشعر أن حاجزا لا يرى ، ولكنه لا يقهر ، يفصلها عنهم . حاجزا نتج عن حالة الأمومة التى هى فيها . وكانوا يبدون بعيدين عنها جدا . كشيء يمت إلى الماضى . وسيطر عليها اهتمام جديد حل محل كل ما كانت تهتم به قبلا وكانت تظن أن السر الذى تحمله يجعلها أقل شأنا من كل الآخرين ، أقل من كل أولئك الذين لهم أهـــداف أوسع ومشاغل أهم .

وفى المساء عندما كانت ترقد فى الخيمه أو فى كوخها ، كانت لا تنام بل تستمع إلى أصوات الجنود الذين يتكلمون عن الحرب

والنصر . وكانت تكاد تبكى عند ما تشعر أن هذه الموضوعات الهامة بالنسبة للجمع تبدو إلى حد ما ثانوية وبعيدة بالنسبة إليها .

ولم تستطع أن تقرر هل يجب أن تحكى ما حدث لها أم تكتفى بأن تترك الحوادث تأخذ مجراها إلى أن تتضح حالتها بصورة لا حاجة معها للشرح .

وكان أشد ما ينغصها هو أنها قد بدأت تشعر مع نمو الطفل بداخلها ، بحنان قلق غريب . جعلها حريصة وبطيئة ورزينة فى كل حركتها . وكانت ترفض حتى ركوب الخيل مما كان يدهش كثيرا كل شخص ، لأنها كانت قبل ذلك لا تفضل على ركوبها شيئا .

وقد جرح الماجور جولوفين فى قدمه أثناء معركة الهجوم على كوروستين . وذهبت أنيشكا لزيارته فى الكوخ الذى كان يقيم فيه . وجلست بجواره . وأخبرها أنه سيبقى فى مركزه وسوف لا يذهب إلى المستشفى . وعند ذلك انفجرت فجأة بالبكاء وسألت ، « وماذا على أن أفعل ؟ » ثم حكت له كل شيء .

وكان الماجور أشد ارتباكا منها وتمتم « حسنا . ما الذى يمكن أن نفعله ؟ لا شيء » وفكر لحظة ثم قال : «من المؤسف أن عنوان أكيموف ليس معنا . وإلا كنت أرسلت إليه برقية تهنئة » .

وقالت : « ان كل شيء قد حدث فجأة . ولم يكن ذلك مناسبا بأية حال » .

وسأل جولوفين : « ولكن ماذا علينا أن نفعل ؟ » ثم أجاب ثانية : « لا شيء » ثم نظر إلى وجهها وشرع يساندها بمشاعر عميقة « لماذا تنظرين إلى الأمر بهذه الصورة فليس فى الأمر ما يشين . وليس الموضوع نتيجة الصدفة . فكل شيء على ما يرام ويجب أن تستعفى من الجيش وتذهبي إلى موسكو لتقومى بدورك كأم وهو واجب هام كما تعلمين . وإذا نظرت للأمر من الناحية الطبيعية يارفيقة بيلوزيوروفا ، فإنجاب الأطفال مهمة وطنية وهامة جدا كذلك » . وصمت لحظة ثم واصل متصنعا الخشونة « انى مسرور لذلك حقيقة . وكنت دائما فى خوف من أن تقتلى . فماذا كنت سأقول لأكيموف ؟ » .

وصمت كلاهما وقتا طويلا . وكان جنديان يتكلمان فى الخارج .

قال أحدهما « لا تكلمنى عن الرينيت والشافران . فإنى لا أجد هناك من يعلو على شخص من انتونوفكا » .

وأجاب الآخر بصوت غليظ : « أنك لم تذهب إلى كريميا . ولذلك فأنت مغرور بهؤلاء الانتونوفكيين » .

وقال جولوفين ببطء « ان لى طفلين كذلك وقد رحلا إلى اليانوفسك . ولد وبنت ، كاتيا وفانيا »

وارتعش صوته . ورأت أنيشكا ، لأول مره ، القائد فى حالة عاطفية قلقة .

واستدار جانبا وقال : « انها حالة عصبية » .

وبعد بضعة أيام تلقت أنيشكا أوراق تسريحها وذهبت إلى المزرعة حيث كان يعسكر قسم الاستطلاع لتوديعهم . ولكنها وجدت أن الأمر قد جاء لهم بالتقـــدم بينما كانت هى فى القيادة ولم يبق أى شخص فى المزرعة .

وكان الآلاى ممتداً على طول الطريق الأصفر . رجال ومـدافع وعربات تتحرك ببطء نحو الغرب . ولم تلبث أنيشكا أن أصبحت وحيدة بجوار غابة صنوبرية . والجنود يندفعون بجوارها . وأحست كأن كل شخص وكل شىء ، حتى الغـــابات والحقول ، تتجه غربا ولا سبب فى العالم يدعو للذهاب ناحية الشرق .

وقالت من خلال دموعها : « وداعا يارفاق » ثم حملت حقيبتها على كتفها وتحركت نحو الشرق .

وعلى مسافة وراء الجبهة كانت هناك طوابير من السيارات ينطلق بعضها شرقا وبعضها جنوبا والبعض شمالا . على طرق حربية عليها نقط مرور وعساكر مرور ، وأكواخ للراحة موزعة فى كل اتجاه . وكانت السكك الحديديه فى نشاط دائم . فتجرى قطارات تلو قطارات نحـو

الغرب وهى مليئة بالجنود ومتجهة نحو الجبهة ، وأخرى محملة بالخبز والقنابل وصناديق الماخوركا ، وعلب الذخيرة . وتتدفق إلى الأمام مطابخ الميدان ، وإرساليات من لفائف الساق وقبعات الشتاء ، والملابس الشتوية الداخلية ، ومخابز الميدان وفرق الدفن وعربات النقل للمستشفيات . وبينما كانت أنيشكا تتجه شرقا فى البداية بسيارة ثم بالقطار استغربت لرؤية كل هذا العدد من الناس فى كل مكان وكل يعمل شيئا يشتغل أو ينتظر . وكان الأطفال يجذبون نظرها بشكل خاص . وكانت تنظر إليهم باهتمام كأنها لم تر أطفالا من قبل .

وفكرت أنيشكا بألم : « لقد كنت أفكر فى أن أخدم بلدى» ولكن عندما اقترب من موسكو ورأت كم من الناس يقومون بأعمال عادية تبدو عديمة الأهمية بالنسبة للحرب ، شعرت بارتياح أكثر ويبدو أنها أصبحت تخالف النظرة المحدودة لجندى الخطوط الأمامية الذى يحتقر كل شىء خارج أرض المعركة أو غير مرتبط ارتباطا مباشراً بالحرب . وبدأت تفكر فجأة فى أنه بجانب المكان والتحرك نحو نقطة محدودة هناك الزمن . وأن الأمة العظيمة تسير مع الزمن وتطورات التاريخ . وأدركت وهى مندهشة أنها وابنها المقبل لهما مكانهما ـ وهو مع تواضعه يمكن الوصول إليه فى هذه الحركة التاريخية الهائلة التى لاحدود لها . ولكن كان المستحيل عليهما أن يجدا مكانهما لو تمسكت أنيشكا بنظرتها البدائية المحدودة لمستقبلها .

وكانت النتيجة العملية لتفكيرها المتزن هو قرارها بالاستعداد بمجرد الوصول إلى موسكو للدخول فى مؤسسة طبية لتبدأ دراستها مع الخريف وبذلك تصبح بمساعدة والدها جراحة ماهرة ودكتورة أطفال . وبمجرد أن اتخذت أنيشكا قرارها هذا ، شعرت بسيل من القـــوة وانبعاث للحماس كالذى جعلها تتطوع فى الجيش ، ذلك القرار الذى اتخذته منذ سنتين ، ولكنه مع ذلك كان قرار عقل ناضج .

— ٤ —

وكانت موسكو فى نهاية ١٩٤٣ لاتشبه إطلاقا موسكو فى بداية ١٩٤٢ ففى ذلك الوقت كانت مهجـــورة وعابسة يتركها الناس، البعض للشرق والبعض للغرب ، ولكنهم الآن يتدفقون عائدين ، وربما بعدد أكبر، يندفعون فى ازدحام مؤثر . وكانت المدينة تعيش حياة صاخبة متوترة ، بعد أن دبت فيها الحياة من جديد وامتلأت بالناس والعربات . وفى المساء فقط كانت تهدأ دقائق قليلة لتستمع لمكبرات الصوت تعلن انتصارات الجيش الأحمر وكذلك بعض تحيات المدفعية .

واندمجت أنيشكا ببساطة فى الحياة الصاخبة ، والمتوترة جدا والمليئة بالآمال العظيمة فى العاصمة الهادئة . وبدأت تنفذ قرارها بسرعة التصميم الذى غرسته فى نفسها فحصلت على مذكرات ومراجع وكتب دراسية من أصدقائها وبدأت دراستها .

وكانت أنيشكا تعتبر المذاكرة فى أيام المدرسة وأيام المؤسسة ، واجبا شاقا . ولكنها الآن كانت تميل إلى النظريات والمعادلات . ولم تكن عندها فى الماضى الشجاعة الكافية لأن تتعمق فى مسأله صعبة ، ولكنها الآن يسعدها أن تقوم بذلك . وربما كان المجهود العقلى خير راحة لها بعد التوتر الجسمانى فى الجبهة .وإلى جانب ذلك ، فقد كانت الرياضيات والطبيعة والكيمياء تثير فيها ذكريات جميلة عن أيام الدراسة التى كانت تبدو بالنسبة لها خير أيام حياتها . لأنها أصبحت فى الماضى الذى لايعوض . وكانت تقول : « إننى اتقـــدم فى السن » وكانت بهذا تترجم بدقة التغيرات التى شملتها . وقد أراحها وأسعدها شغفها بالدراسة ونجاحها ووصلت إلى نتيجة ، هى أن الدراسة يجب أن تواصل بعد أن يحصل الشخص على خبرة ما فى الحياة . لأن الشخص ،حينئذ فقط، يمكنه أن يقدر قيمة المعلومات الجديدة والصفة السامية للشخص الذى ينفق حياته فى الكشف عن أسرار الحياة .

ولم يلبث الأستاذ بيلوزيوروفا أن وصل إلى موسكو . فقد استدعى ليناقش فى نقله إلى مركز جديد فى قيادة السلاح الطبى فى موسكو .

وذهب للعمة ناديا وأخبرته أن انيشكا فى موسكو وتدرس بجـــد لتستعد للدخول فى مؤسسة طبية وقد سرته الأخبار . وأسرع إلى المنزل وسره أكثر ان وجد ابنته وبنتين أخريين والمراجع مكدسة حولهن .

وكان من الواضح أنهن منهمكات تماما فى عملهن بحيث أنهن لم يلاحظن دخول الأستاذ .

وكانت أنيشكا ترتدى ثوبا عسكريا كاكيا . وعندما استدارت نحو والدها رأى على صدرها العالى وسامين وميدالية الإقدام . وكان وجهها هادئا بشكل غريب . وقد استنتج الأستاذ أنه يدل على تعمق فى التفكير .

وقد سرت أنيشكا لرؤية أبيها ولكنها فى نفس الوقت خافت قليلا ، وأحست بابنها ، الذى عكس كل احساسات الأمومة التى كانت تصطدم فى داخلها . وقالت أنيشكا فى ذهنها لوالدها : «أنه حفيدك» وقد وجدت من المضحك أن يكون لأبيها حفيد وهو لا يعرف شيئا عنه .

وقد انبسطت أسارير الأستاذ لأن ابنته لم ينلها ضرر ، وفى نفس الوقت كانت فاتنة ورزينة . وقد شكرها ببعض الوقار وبعض المزاح على أنها شملت أخيرا الطب بعنايتها وذكرها بأنها كانت حرة فى اختيارها للمهنة ولمح بأنه أدرك أنه قد تصرف بتسرع وأنه آسف لسوء التفاهم الذى حدث بينهما .

وعندما انصرفت الفتاتان الأخريان ، وقد ارتبكا لحضور هذا المرجع العظيم فى الطب ، قرر الأستاذ أن يحتفل برجوع ابنته بزجاجة نبيذ ولكنه كان عليه أن يشربها وحده ، لأن ابنته وقد فكرت فى

طفلها ، خافت أن يكون النبيذ ضارا به .

وفى المساء أحضر الأستاذ تذاكر لمسرح البولشواى وذهب كلاهما ليريا بحيرة البجع . وكان الجو فى المسرح ، بالرسوم القديمة على السقف والقطيفة القرمزية ، وفوق كل هذا الرقص بموسيقاه الجميلة ورشاقة راقصة الباليه العظيمة بلانوفا ، كان كل ذلك منعشا لأنيشكا . وكان التباين بين جو المسرح وبين الماضى القريب لأنيشكا شاسعا — الأفق المغطى بالدخان ، وبطاريات المدفعية وهى تتخفى مغطاة بفروع أشجار خريفية ضامرة . وسيل الرجال الذى لا ينقطع بمعاطفهم ، وجلبة السيارات على طول الطرق التى لا تنتهى والتى غسلتها الأمطار . وقد بدا لأنيشكا أن إعجاب النظارة الطبيعى العميق بجمال جسم الإنسان والموسيقى التى خلقها الإنسان، كل ذلك كان مسوغا جديدا لتركها الاضطرارى للجيش .

ولم يكن يسع الأستاذ إلا أن يلاحظ الانتباه الذى تجذبه أنيشكا إليها والاهتمام الذى ينظر به الناس لكليهما . وشعر بفخرها بحيث كان من الصعب عليه أن يصدق أن مثل هذه الفتاة الجميلة النامية المشوقة هى ابنته .

ومرت الأيام ولم تستطع أنيشكا أن تقرر إبلاغ والدها بأهم شىء، وكانت تشعر أن ذلك بدون شك سيؤلمه وسيظهر أن شكوكه لها أساس.

من الصحة حيث أنه لا يعرف أكيموف وأنه ربما أيضا لا يعرفها هى على حقيقتها جيدا . . وكانت أنيشكا تشعر بالاضطراب عند ما تقع عينا والدها الزرقاوان عليها بهذا الفخر الصامت . ومع أنها لم تندم على ما فعلت إلا أنها استمرت تؤجل إبلاغ والدها عما حدث .

وكانت أنيشكا تستيقظ فى الصباح قبل والدها . وتقـــوم بشراء الحاجيات وتجهز الفطور ، الذى يتناوله معها . وكانت المناقشات على المائدة حامية دائما . وكانا مبتهجين عند اجتماعهما . ثم كان الأستاذ ينزل لقومسيرية الشعب لشئون الدفاع بينما تقوم هى بعمل المنزل فتنظفه وتحضر الغذاء أو تغسل الملابس . وتجلس دائما بقدرما يمكنها حتى لا تؤذى الطفل . ثم تأتى صديقتاها ويجلسن للمذاكرة سويا .

وقد سر الأستاذ التغير الذى لاحظه على ابنته . فقد حقق له الجيش أمنية كانت تراوده دائما وهى أن يرى ابنته تقوم بعمل يدوى . وقد تعلم خلال الحرب أن يحب الجيش . وقد زاد امتنانه وتقـــديره لهذا التغيير الطيب الذى أحدثه لابنته .

وعندما اقتربت سنة ١٩٤٣ من نهايتها تلقت أنيشكا أخيرا مجموعة كاملة من الخطابات من أكيموف . وكانوا معبئين فى جريدة . وكتب العنوان بخط الـكابتن دروزد غير المنسق .

وقد قرأتها أنيشـكا كما وجدتها بلا نظام . وكان كل خطاب يرفع من

إعجابها بذكاء أكيموف ، وقوة تعبيره ، والعاطفة التى يحملها . وكان سرورها لاحدله بعد مارأت أنه شخص ماهر وفى الوقت نفسه يستطيع أن يعبر أيضا عن نفسه ويوضح على الورق . ولم تلاحظ إلا الآن فقط أنها لم تتخل بعد عن العادة المتعالية التى اكتسبتها فى المؤسسة ، وهى تقدير الناس حسب علمهم . وأنها كانت ستتألم لو أن الرجل الذى اختارته رغم كل البطولات التى اشتهر بها فى الحرب كان قليل الثقافة .

وكتبت ردا طويلا وجرت لترسله مباشرة . وعندما رجعت لم تستطع الاستقرار مع كتبها . فقرأت الخطابات من جديد المرة تلو المرة ثم رغبت فى أن تكتب من جديد وكتبت . وكان الخطاب الثانى أطول من الأول . وقد أرسلته هو الآخر مباشرة .

وقرر الأستاذ بيلوزيوروفا أن يحتفل هو وابنته برأس السنة مع صديقه القديم الجنرال سيلاييف الذى عادت عائلته توا من الهجرة . وكان هذا المساء أيضاً حفل وداع لأن الجنرال سيلاييف كان قد عين فى مركز فى الجبهة . وقد ظل طويلا يبذل جهده للحصول على هذا النقل . فقد أقلقه أنه ربما لا تتاح له فرصة رؤية قتال حقيقى . وبذلك يحرم من ثروة الخبرة الحربية التى يكتسبها الجنرالات فى الميدان .

وعندما رجع الأستاذ إلى منزله متأخراً نوعاً ما فى ليلة رأس السنة دفع ابنته على أن تسرع فى ارتداء ملابسها لتخرج معه . وقررت أن تنزع لباسها العسكرى وترتدى ثوباً جديدا من تصميمها . وكان ثوبا

صوفيا طويلا أسود عالى الرقبة ذا حزام عريض وياقة مستديرة صنعت من شرائط متتالية من حرير أسود وأبيض لامع وتصل إلى حافة كتفيها. والأكمام طويلة وعريضة ولها أساور ضيقة من نفس نوع الياقة . وقد بدت أنيشكا فى هذا الثوب أنيقة جدا وأكبر سنا من حقيقتها : وكان شعرها قد استطال ثانية وتدلى برشاقة على كتفيها على ياقتها الحريرية اللامعة .

وكانت لاتصدق أنها هى هـذه الصورة الرشيقة التى تظهر فى المرآة . وفكرت فى نفسها . إن مترجمة الجيش بيلوزيوروفا كانت فتـاة مختلفة تماما .

وكانت فى الواقع لاتريد أن تخرج لأنها كانت لاتزال تحت تأثير الخطابات التى تلقتها من أكيموف . سعيدة ومرتاحة . ورأت فى الخارج الثلج يتساقط فى شظايا كبيرة وثقيلة فى رأس السنة وكانت المدينة بأكملها تبدو فى ثوبها الشتوى كأنها تترقب الأمل بقلق واشتهاء .

وكانت تنظر بين حين وآخر إلى المائدة التى وضعت عليها الخطابات. وتبتسم لها فى كل مرة .

ودخل أبوها . وقد بدا أن مظهر ابنته فى ثوب سهرتها الجديد قد استوعب انتباهه فجأة . وقد صدم بشىء فيها لم يستطع فهمه ، شىء جديد. أنوثة كاملة لاتناسب فتاة مثلها .

وشحب وجهها عندما لاحظت نظرته . ثم اتجهت نحوه وقالت بلا خوف بل بلهجة جادة تماما « نعم يا أبي إنني سأنجب طفلا » .

وطبعا لم تكن هذه هي الطريقة التي تعلن بها الخبر وكان من حسن السياسة أن تقول : « أبي . لقد تزوجت ، ثم بعد ذلك ، ربما في اليوم التالي كان يمكنها أن تخبره ببقية الموضوع . ولكن لم تخرج من فمها سوى هـــذه الكلمات ولا شيء غيرها لأنها كانت أهم كلمات، ولم تكن تريد أن تقول أي شيء لا داعي له . وقد كانت تظن أنه لا يناسب كرامتها أن تحاول أن تكون سياسية مع ابيها .

وقد سدت الطريقة التي استقبل بها الأستاذ كلماتها ، الطريق على كل شرح آخر . ويبدو أن عينيه قد أصبحتا ثقيلتان ولا تريان واختفت دماثته . ونظر إلى ابنته بغضب ورعب . وقد استنتج مباشرة أنه كان محقا منذ البداية ، وأن سبب انضمامها للجيش لم يكن خدمة الوطن . وظن فيها مباشرة أسوأ الظنون .

وفكر : « هل يمكن أن تكون هذه ابنتي ؟ » وقد نسي فجأة جولات شبابه . أو ربمـــا لم ينسها بل على العكس كان ذلك بسبب تذكره لتصرفاته غير اللائقة مع النساء ، مما جعله بلا وعي يحتقر ابنته ويقيس أكيموف الذي لم يكن يعرفه بمقياس نفسه . وبعض الآباء يظنون أن الرجال الذين يحبون بناتهم أوغاد، ربما لأنهم كانوا هم أنفسهم أوغادا في ظروف مماثلة .

وقد شك الآن حتى فى رغبتها لدخول المؤسسة الطبية . وظنها خدعة لتتملقه وتصالحه ولم تكن هناك سفالة فى العالم يستبعد أن ينسبها إلى ابنته فى هذه اللحظة .

وربما لو كانت أنيشكا قد حاولت أن تتكلم معه وتخبره بالحقيقة كلها بهدوء ، لأمكن أن يرى موقفها فى الضوء الحقيقى . ولتغلب على شعوره الذى كان غالبا نوعا من غيرة الرجال . ولكن أنيشكا قرأت أفكاره واشتعلت من الغيظ والكرامة المجروحة والمهانة وقالت بازدراء : « إنه على كل حال شىء يهمنى وحدى . ويمكنك أن تحتفظ برأيك لنفسك » .

وذهبت إلى غرفتها . وبعد أن وقفت بلا حراك بضع دقائق . خرج أبوها إلى الممر ولبس قبعته ومعطفه وخرج . ولم يذهب بالطبع للجنرال سيلاييف . وفى ٢ يناير رفض بإصرار وظيفته الجديدة فى موسكو . وعاد إلى مكانه الأول فى الجبهة .

— ٥ —

وحتى لا تعيش أنيشكا على نفقة أبيها ، اشتغلت فى مكتبة الآداب الأجنبية . وكان عملها الذى يقوم على كتابة قوائم للكتب ، يبدأ فى الصباح الباكر . ولكنها كانت غالبا ما تستمر بعد انتهائه وهى تدرس بعناد المستعد للمؤسسة الطبية .

وكانت تكتب خطاباتها إلى بافل فى المكتبة . وكانت دائما مرحة

ومنتعشة وتتضمن أحداثا مسلية كان من المفروض أنها حدثت لها .
ولكن الاختلاف بين خطاباتها وحياتها اليومية كان فظيعا حتى أنه كان يؤلمها لدرجة البكاء . فكانت تكتب عن المسرح وكأنها كانت هناك بنفسها . وتخبره عن الخطط والوسائل التى اتبعها الممثلون فى القيام بأدوارهم وذلك من ذاكرتها منذ خمس سنوات . ولم تكن لتنسى أن ترسل له تمنيات أبيها وعمتها ناديا والأقارب الآخرين . وكانت تتكلم عن عملها فى المكتبة كأنه أكثر تسلية وبهجة وأجرأ من أى عمل آخر ، مع أنه كان فى الحقيقة مجرد عمل آلى .

وكانت تتلق يومياً تقريباً خطاباً من أكيموف . وأرسل لها استمارة تخول لها صرف الف روبل شهريا . وبذلك أمكنها أن تعيش عيشة أكثر ترفا .

وكانت تعجب من نفسها لشغفها بالجيش الملىء بالمصالح المشتركة وبإحساس الحماية ضد الحوادث السائدة فى هذه العائلة الكبيرة من الناس النامى النمو . وهم جميعاً مسلحون وأشداء العزم . وكان أملها أن تذهب إلى أكيموف . وكان من الممكن أن تجد الوسيلة إلى ذلك لولا طفلها . وكانت تفكر أحياناً . ألم يكن من الخير لها أن تكون بلا طفل . ولكنها كانت تستبعد الفكرة مباشرة . وكانت تقنع نفسها كما يقتنع السذج . ربما أصبح رجلا عظيما كلينين أو بوشكين ؟ أو مجرد طفل آخر » .

وأرسلت ليافل قائمة بأسماء أولاد وبنات ليختار من بينها اسما، واختار أندريا إن كان ولداً أو بيكاترينا إن كانت بنتاً .

وجاء ميعاد ولادتها فى يوليو وذهبت بهدوء إلى بيت الولادة فى بولشايا مولشانوفكا . وفكرت فى حالتها فيما لو لم تتشاجر مع والدها ولم تتمنع متشامخة عن أخذ الخطوة الأولى نحو الصلح ، لكان هناك سيارات ، وأساتذة ، وممرضات ، وبرقيات ، ولربما طار أبوها من الجبهة ليأتى إلى موسكو بنفسه .

ولم تتعسها هذه الأفكار ، وكان موقفها الحالى . ليست كابنة أستاذ بل امرأة عادية لها كل هموم النساء ومسئولة أمام العالم عن تصرفاتها . وتعتمد على نفسها ،كان كل ذلك مما يلائم ويطرى غرورها .

وكان هناك عدد قليل من أمهات المستقبل فى البيت خمسة فقط فى جناح كبير من المستشفى فالحرب لا زالت مستعرة .

وفى الليلة التالية أنجبت أنيشكا فتاة . وفى نفس الوقت أنجبت امرأة أخرى ولداً .

وفى صبيحة اليوم التـــالى كان سرير المرأة الأخرى مغطى تقريباً بالورود والخطابات . ولكن لم يحضر أى شخص ليرى أنيشكا . وقد أحست فى أعماقها بذلك وكانت إلى حد ما مستاءة كذلك لأنها أنجبت فتاة بدل الولد الذى كان يرغب فيه أكيموف .

وعند الظهر تلقت أربع باقات زهور دفعة واحدة — ورود ، وفيوليت ، وفلوكس . . . وكذلك بنفسج . وقد تدلت ورودهم على سرير المستشفى ومنضدته وهى تذكر أنيشكا بنزهاتها فى القرية وبالحدائق ذات الظلال خارج موسكو وفوق كل هذا بشىء آخر من الصعب تحديده ولكنه يبدو ذا أهمية بالغة لها . وتذكرت أخيراً . إنها الأسماء المستعارة للوحدات بجوار أورشا فى ذلك النهار الخريفى أثناء معركة الاستطلاع المدمرة عندما قابلت أكيموف لأول مرة . وقد ذوى منظر قاعة المستشفى ووجه الممرضة العجوز المجعد والشجرة الكبيرة التى تطل فروعها المورقة من خلال النافذة المفتوحة أمام منظر تخيلته لميدان حرب ملىء بالوحل ، وخنادق ضيقة للانتقال . وأودية لا تنتهى والغاب يهتز مع رياح قوية والمطر المنهمر على حافة المجرى .

ولم يلبثوا أن أحضروا لها خطابات . وكان أول خطاب فتحته أنيشكا من أكيموف وكاد يغمى عليها عندما فكرت فى أن أكيموف موجود هناك بالضرورة . ولكن لم يلبث أن جاءها التفسير . وكانت رسالته تقول : « حبيبتى . إننى أرسل لك هذه السطور القليلة مع الرفيق كوفاليفسكى مراسل جريده فى موسكو . وهو ذاهب إلى العاصمة . وأنا أحسده بعنف على أنه سيمكنه أن يراك . يجب أن أسرع فإن القارب البخارى ينتظره . وسيخبرك بكل شىء عنى » .

وكانت هناك رسالة من كوفاليفسكى أيضا « عزيزتى الرفيقة

بيلوزيوروفا . ذهبت إلى منزلك وأخبرنى جيرانك عن مكانك . تهانى القلبية ، ، وإنى أرسل لك باقة باسم أكيموف وأخرى باسمى» .

وكانت هناك أيضا رسائل من العمة ناديا وتانيا نوفيكوفا . والفتاتين اللتين كانتا تذاكران مع أنيشكا والكابتن دروزد . وقد اتضح أنه أرسل إلى أكاديمية حربية فى موسكو منذ شهر وقرر فى هذا اليوم بالذات أن يبحث عنها

وكانت أنيشكا لا زالت ضعيفة من آلام الوضع ومن حالة الانفعال فلم تتمكن من أن تجيب على هذه الرسائل . ولذلك سألت الممرضة أن تشكر عنها كل المستفسرين وتخبرهم أنها فى صحة جيدة وتشعر بالراحة .

وفى نفس الوقت كانت العمة ناديا فى الطابق الأسفل فى حجرة الاستقبال وقد وضعت كوفاليفسكى تحت اختبار تفصيلى ودقيق عن أكيموف : أى نوع من الرجال هو ، ما مظهره . كم عمره . ما هى رتبته . هل يفهم مسئولياته . . وهلم جرا . .

وكان دروزد يقف على مسافة غير بعيدة صامتا ومكتئبا . وكانت تانيا نوفيكوفا والبنات الأخريات يفحصن كل شىء حولهن باهتمام فضولى لأم المستقبل . وهم يسترقون النظرات إلى آباء المستقبل الذين كانوا يجلسون هناك ونظراتهم بائسة كأنهم قد أخطأوا بعنف نحو زوجاتهم المحبوبات

وعندما خرجت أنيشكا من بيت الأمومة ، خضعت لرغبة العمة ناديا وذهبت لتعيش معها . والحق يقال أن العمة ناديا قد انضمت إلى جانب أنيشكا ضد الأستاذ ، ومع أنها كانت تقدس أخاها فإنها كانت تتكلم عنه بالنسبة لهذا الموضوع بكلمات بعيدة كل البعد عن المدح .

فكانت تقول : « كم هو أحمق . كل الرجال حمق »

وكان كوفاليفسكى يذهب كثيرا لزيارة أنيشكا : وكان يحكى لها عن أكيموف كيف برز مباشرة تقريبا بمجرد وصوله إلى الأسطول الشمالى وأعطى قيادة مطاردة غواصات كبيرة ثم فصيلة كاملة من مطاردات الغواصات . وكان يتكلم عنه بالحماس الذى كان يتكلم به دائما عن البحارة . وقد أعطى لها ، بغير قصد ، فكرة غير حقيقية تماما عن علاقته بأكيموف . ورغم أنه كان لايكاد يعرفه . وقابله عرضا . تكلم عنه كأنه خير صديق له فى الأسطول الشمالى.

ولم يكن عنده أية نية لخداع أنيشكا لأنه وهو فى موسكو قد تصور نفسه كأنه حقيقة صديق عظيم لأكيموف . وكان مقتنعا تماما بكل ما قاله لها . وكان يكرر بلا وعى كل ما سمعه عنه وكأنه رآه بعينيه . وأحضر مرة قصاصات من الجرائد كتب فيها عن أكيموف أنه مثل لغيره من الضباط .

وكان كوفاليفسكى يكن إعجابا عظيما لأنيشكا . يراقبها ساعات فى

صمت وهى جالسة على الأريكة . شاحبة وأنيقة . وتقرأ بتركيز عظيم وتأخذ ملاحظات أو تحيك ملابس لطفلها . وكانت أحيانا تلق إليه ابتسامة صدوقة وتسألة : « هل لم تمل ؟ » أو تقترح عليه أن يذهب إلى مكان أكثر تسلية »

وكان يعرف أنها تعتبره مجرد صديق فقط لأكيموف ولكن هذا لم يغضبه ولم يكن له أى حق قبلها وكان يحب فقط وجوده معها . ويحب أن يراها ويعجب بها ويتعجب كيف تتغلب على عدم النوم المتواصل — فقد كانت نادرا ما تحظى بالقدر الكافى من النـــوم بسبب ابنتها — فكانت تواصل الدراسة أو تعتنى بابنتها .

وكان اسم الطفلة فى شهادة الميلاد ياكاتيرينا بافلوفنا أكيموفا يبدو طويلا مضحكا وجديا بالقياس إلى هذا الشيء الصغير الدقيق . وكان الكثير من حركاتها يحير ويضحك . وأشد ما كان يحير هو أن وجهها وبشكل خاص عندما تنام ، يبدو دائما كأنه يعبر عن مشاعر فوق قدرتها كالغضب والاحتقار ، وعدم الاهتمام ، والشرود ، والغطرســـة ، والاستخفاف والجدية — وهى مشاعر وحالات عقلية ربما أصبحت يوما ما مميزات لشخصيتها .

كان هذا المخلوق الضئيل هو كل العالم بالنسبة لأمه . وقد ارتبطت

أنيشكا بها بحيث كان لا يمكنها أن تتصور كيف عاشت قبل ذلك بدون كاتيا الصغيرة . ولكن ذلك كان منذ زمن بعيد . فكل شيء يتعلق بالحرب أو السلام أو كيف سيعيشون بعد الحرب كانت تنظر إليه فقط في ضوء مستقبل الطفلة .

وكانت أنيشكا تعتبر نفسها أكثر أهمية بعد أن أصبحت أما . وأكثر مسئولية وقيمة . وكانت مأخوذة لأن جسمها قد أتم هذه المعجزة وهي ولادة طفل ، وزادت عنايتها بنفسها . وكانت تخاف من مجرد عبور الطريق بسرعة حتى لا تعرض حياتها للخطر . تلك الحياة التي أصبحت الآن لا غنى عنها . وعندما كانت تستعيد في ذهنها كيف كانت تعرض نفسها للموت في الجبهة ، كانت ترتعد من فكرة أنه ما كانت لتوجد كاتيا على الإطلاق .

وكان كوفاليفسكي ينظر بتعبد إلى أنيشكا وطفلتها نظرة عبادة ، وفكر أنه لم يكن عبثا أن شغلت صورة الأم والطفل مكانا ملحوظا في كل الأديان . وكانت تهزه إلى حد البكاء أن أبا الطفلة كان يحارب من أجل مستقبلها بعيدا في شمال روسيا .

وكان الوقت إذ ذاك صيفا في الشمال وكانت الشمس لا تكاد تغرب إطلاقا . وقد حل النهار الدائم محل الليل الدائم . ونما العشب الأخضر بين الجرانيت في الصخور . وكانت تنطلق سحابات ذات ألوان خيالية

تتراوح بين الأبيض اللبنى والأرجوانى القاتم من البحـــر إلى البر . وأحيانا تنخفض بحيث تغطى التلال الصخرية بضباب رمادى يجعل كل المكان يبدو وكأنه أرض منخفضة رطبة مضببة . ثم تقذف به الرياح بعيدا بخفة كأنه الدخان. وتظهر من جديد قمم الصخور وصوارى السفن فى الخليج .

وكانت الشمس الكبيرة الحمراء تنحدر نحو البحر كأنها على وشك أن تختفى . وتبدو كأنها تحن إلى تبريد حرارة رأسها فى الماء . ولكن قوة خفية غريبة تمنعها وتبقى وكأنها قد تسمرت فى الفلك . وتنزف منها جداول من الدم والأرجوان .

وقال كوفاليفسكى لأنيشكا : « إن المكان جميل هنـــاك الآن . وخذى كلامى ، أنه ليس مكاناً سيئا لنعيش ونحارب فيه فى هذا الوقت من الســـنة . وأنا فى شوق للذهاب إلى هناك فسيبدأ الهجوم قريباً ».

وكان فى الحقيقة يطلب دائما الذهاب إلى الشمال ، ولكنه لم يتلق الأمر حتى سبتمبر ، وجرى مباشرة ليرى أنيشكا ، وجهزت لفافة لأكيموف وكتبت له خطابا وضعت فيه صورة للطفلة .

وترك كوفاليفسكى موسكو ، وهو لا يزال تحت تأثير زياراته لأنيشكا ، وقد غرق إلى أذنيه فى حبها فى سريرته ، وامتلأ بحسد برىء

لأكيموف . وظل أياما قليلة فى مورمانسك وعندما وصل إلى قاعدة الأسطول كانت أول فكرة خطرت له هى أن يذهب ليبحث عن أكيموف ، فقد كان يعرف أن هناك تفاحا فى اللفافة وخاف عليه من الفساد .

ولكن أكيموف كان قد ترك مكانه القديم . فقد نقل من مدة وجيزة إلى كتائب البحرية فى شبه جزيرة ريباشى ، ولما كان كوفاليفسكى يرى فى كل شىء تأكيدا لفكرته عن هجوم مضاد وشيك ، فقد فكر فى أن الخطوات التى أخذتها قيادة الأسطول لتدعيم كتائب البحرية بعناصر مدربة هى إشارة جديدة إلى أن أمورا هامة ستحدث فى القريب العاجل .

وكانت هناك دلائل كثيرة على أن الساعة الحاسمة ليست بعيدة . فقد طار قائد الأسطول مرات عديدة إلى قيادة الجيش فى كاريلين . وكان يرى مرارا جنرالات من الجيش فى قيادة الأسطول . وقد جلبت وحدات من الجيش لتدعيم الرجال والعتاد . وكانت السفن ترمم بسرعة ووسعت الغواصات والطيران البحرى مجال عملياتها لتقطع وتحطم الاتصال البحرى لجيش هتلر العشرين المتوغل .

وقد شغل كل ذلك كوفاليفسكى حتى أنه لم يصل إلى شبه جزيرة ريباشى إلا فى أوائل اكتوبر .

الفصل السابع

على الشاطئ

— ١ —

كانت الاستعدادات لتحطيم دفاع العدو على طول جبال موستا تتورى على أشدها . وكانت خطة العملية الكاملة قد أعدت بكل تفصيلاتها الدقيقة وحددت لكل وحدة البقعة التى ستهجم عليها . وكانت البحرية والمشاة فى أشباه جزر ريباشى وسردنى تتلهف للحدث العظيم . وفى نفس الوقت صدرت الأوامر لكتائب البحرية فى الجناح الأيسر أن تستعد لتسليم قطاعها .

وكان الرجال يعيشون من شهور ، بل من سنين ، فى المستنقعات والكهوف بين الصخور ، وفى ثنايا الحجر الجيرى أو فجوات فى الأحجار الاردوازية يتساقط عليهم وابل من المتفجرات والقنابل يوميا . وكانوا يحسدون بعنف عمليات الهجوم المضاد التى يسمعون بها فى الجبهات الأخرى . والآن وقد جاء الوقت لهجوم مضاد فى القطاع الوعر كذلك ، فقد استدعوا فجأة .

وقال الجنرال القائد فى الجزر لقائد الكتيبة : « لاحظ يا أكيموف ، لا تنبس بكلمة إلى الجنود إلا عند إعفائهم فعلا ، وسيكون ذلك أفيد للعملية » .

وابتسم قائد الكتيبة ، ولم يستسغ الجنرال ذلك بوضوح فقال بجفاء « هل هذا واضح ؟ » .

وأجاب الآخر : « تماما » . ولكن الابتسامة كانت لاتزال على محياه . ثم سأل — « هل تعرف أين سيرسلوننا يارفيق الجنرال ؟ » .

ولم يجب الجنرال وكأنه لم يسمع السؤال . وترك أكيموف خندق الجنرال وذهب إلى كتيبته مباشرة فى الأرض الأمامية .

وسار يصفر مبتهجا ، كما كان طفلا يذهب ليصطاد الطير فى الغابات مع رفاقه وكانت عادتهم أن يأخـــذوا معهم صفائح مملوءة بالخنافس والديدان الحيـــة والشراك التى صنعوها بأنفسهم . ويختبئون بين شجيرات الصفصاف ويستمعون للعندليب ، الذى — ينتعش بكل أنغامه ، وكانوا يسمون كلا منها اسما ، المرتعش ، المهتز ، المتغير ، المندفع ، المتسلسل .

وكان يحس دائمـا بأنه أصغر سنا منذ أن تلقى الخطاب الأول من أنيشكا . وما كان ليتصور من قبل أن صفحات قليلة من يد أنثى يمكن أن تقوم بمثل هـذا التغيير فى مزاجه وحتى فى حالته الجسمانية . وقد شعر

حقا بأنه أصغر سنا وأحسن صحة من الآخرين. وكان يدهشه أن شعوره نحو الآخرين الصدوق ، فقد كان دائما دمث الأخلاق لطيفا .

وقد قرأ خطابه الأول على ظهر السفينة بعد عودته من رحلة « روتينية » . وكان يظن أن أحدا لا يلاحظه وكان لون وجهه يتغير بين الإحمرار والشحوب على التوالى عندما ترسل كل كلمة شحنات من السعادة فى جسمه . وعندما انتهى منه قرأه من جديد ثم وضعه فى جيبه. وظل لمدة ثلاث دقائق كاملة واقفا بلاحراك إلى أن أرجعه إلى الواقع صوت صديق يقول بلهجة يصعب عليك أن تعرف إن كانت إستفسارا أو تأكيدا ، « وعلى هذا فإن كل شىء على مايرام فى بيتكم يارفيق القائد »؟

وتلفت أكيموف حوله . وكان المتكلم ما يتوخين وهو بحار من كرونستاد ذو وجه مستدير ومغطى بنمش كبير أسمر وكان يروق لأكيموف أن يرى تعبيرالسرور الذى يشع من هذا الوجه . وأظهرت كلمات مايتوخين لأكيموف أن قوة ملاحظة البحاره أكبر مما كان يتصور .

وتلقى أكيموف فى اليوم التالى خطابا ثانيا وبعدها توالت الخطابات بانتظام ، وغطت سعادته فى البداية على كل تفكير آخر ، ولكنه لم يتمالك فيما بعد من أن يكبت نفسه باستمرار ، وقد فكر فى نفسه « كم أنت شخص حقير خسيس لتظن فى أنيشكا مثل هذه الظنون » . وقد فكر

فى أن يكتب لها ليعرفها أنها قد أحبت شخصا متعفنا ممتلئا بأقبح العيوب وغير جدير بحبها .

ولم يكن يفهم القوة العارمة العمياء التى سيطرت عليه وجعلته على وشك أن يتبرأ منها ولكنه شعر فجأة وبوضوح تام أنه على الرغم من كل ظنونه المسمومة فإنه كان مقتنعا فى أعماق نفسه بأنها مخلصة ولا لوم عليها . ولكن هل كان من الممكن أن يبقى هذا الاعتقاد بجانب هذه الشكوك القطعية .

وأحب ما يتوخين وعندما انتقل إلى مركز البحرية فى شبه جزيرة ريباشى أخذه كمراسل له .

ومع وصول خطابات أنيشكا أصبح أكثر تساهلا وتقديرا لمن حوله ، وبدأ يهتم بحياة البحارة الخاصة . وكان الجنود يقولون عنه قبل ذلك أنه حازم عادل ولكنهم أصبحوا يقولون عنه أنه شخص لطيف .

وأحس بهذا التغيير فى نفسه وكان يسأل نفسه باستمرار أى مبادىء النظام أحسن ، عندما يكون القائد شديدا أم عندما يكون دقيقا ورحيما فى نفس الوقت وكانت النتيجة التى وصل إليها هى أن رجال الباخرة فى الحالة الأولى كانوا يطيعون كلامه بدافع من الواجب أولا وبدافع من الخوف منه ثانيا ، أما فى الحالة الثانيــــة ، فكان بدافع من الواجب والخوف من أن يجرحوا شعور قائدهم .

وكان المبدأ الثانى من النظام أحسن .

وكان مركز قيادة الكتيبة فى كهف فى صخرة جيرية . وانفرج وجه مايتوخين عن ابتسامة عريضة عند ما رأى ضابطه يقترب . ونهض ، ولكن انخفاض سقف الكهف منعه من أن يقف فى وضع انتباه .

وقال له أكيموف فى لهجة فيها صداقة ودعابة : « اجلس ، لاداعى لأن تخبط رأسك فى لهفتك » ثم دخل الكهف .

والتفت مايتوخين باستفسار نحو ضابطه ولكنه أحجم عن أن يسأله عن سبب استدعاء الجنرال له . وكان قد درس شخصية أكيموف تماما ولذا عرف أن أقصى اجابة يمكن أن يتوقعها هى دعابة لا معنى لها مثل « إن نظم الجيش ليست للثرثرة »

وكان يسعد ما يتوخين كثيرا أن يسمع أكيموف وهو يتكلم عن المعارك فى الجبهة الرئيسية وعن الجنود الذين يحاربون ،هناك فقد كان أكيموف يستلقى أثناء فترات الراحة ويقص ذكريات معارك إلينا أو سمو نفسك أو الأيام العصيبة فى القوقاز سنة ١٩٤٢ .

وكان مايتوخين يسأله أحيانا : « ولكن أى مكان تفضل الجيش أم البحر ؟ »

ويجيب أكيموف وهو يبتسم بتفكير كأنه خطر له خاطر مفاجىء

« حسنا ، إنه من الصعب أن تحدد . فإن الحرب على البر أكثر إمتاعا فالأرض على الأقل تحتك لتحفر لك فيها خندقاً وتتوارى فيه . وهناك أيضا غابة هنا وشجيرات هناك أو حقل شعير — وتتربص منتظرا الأوامر ولكن ماذا يمكن أن يعرف شخص مثلك ، بحار تربى فى البلطيق ؟ حيث لا يوجد غير البحر والميناء. ولكن مع ذلك ، ماهو البحر؟ إنك إذا فكرت فيه وجدته كمية من الماء المالح ولكن المناظر متعددة على البر من جبال وتلال ومروج ، ثم هناك الأدغال التى تقربنا من الغابات ! التى تتمتع الأعين بالنظر إليها ! » وكان ينهى كلامه دائما بأن يضحك ويقول : « وكل مكان أجمل ماعدا البقعـــة التى نحن فيها . ومع ذلك فسنفخر دائما بأن نذكر كل شىء » .

وتلفت مايتوخين حوله فألقى نظرة سريعة على الكهف كله ، الذى سيصبح قريبا جزءا من الماضى تفخر بالتفكير فيه وحاول أن يخمن بينما كان ينظر من جانب عينه إلى قائد الكتيبة « ولكن ماذا أخبروه فى القيادة هل ستهجم قريبا ؟ »

ووصلت الإجابة سريعا عند قدوم ثلاثة ضباط من الجيش من الوحدة التى كانت ستحل مكان كتيبته أكيموف ، وكانت فرقة هجوم من سلاح المهندسين

وتلفت رجال سلاح المهندسين حولهم بدهشة فضولية . لقد كان

الكهف عميقا فى الصخرة ، عندما تتكلم كان الصوت يبدو أجوف بغرابة ويبدو الصدا مشوها بشكل شاذ عندما يصطدم بالنتوءات والجدران. والرفوف الطبيعية كانت تبدو كأنها حفرت خصيصا فى الأحجار الجيرية، وتصطف عليها مجموعة منظمة من كل حاجيات الجيش كأوانى الميس ، وكمامات الغازات السامة ، وقنابل يدوية وهلم جرا . وبجوار الجدار سرير منكل فى حالة طيبة ، وهو سرير قائد الكتيبة،و يتدلى من الجدار بارومتر ومزولة المانية منمقة بإتقان . والأبسطة المطاط على الأرض والمائدة والكراسى تبدو بوضوح أنها نقلت من سفينة .

وكانت توجد فى داخل الكهف مراتب لرجال قيادة الكتيبة ليناموا عليها ومصباح مصنوع اليد يتأرجح ضوؤه على أشباح تتحرك فى الظلام . ورغم عدم وجود فاصل بين الكابين وغرفة الميس — وهو مكان الجنود — وبين مكان الضباط إلا أنه كان يوجد تقسيم اعتبارى . ولم تكن البحارة القادمون من الداخل المظلم ينسون أن يستأذنوا قبل أن يخترقوا الحدود الغريبة .

وسأل أكيموف بعد أن لاحظ دهشة المهندسين : « لقد أعجبكم كهفنا ، أليس كذلك ؟ لقد بذلنا جهدنا لنجعله مريحا ، وأن مراسلى — وأنتم تسمونه يازملاء الجيش ، مرافق — مختص بمسائل التأثيث »

وصب مايتوخين الشاى من ابريق قصديرى ضخم فى كيزان ليست

صغيرة ، وصوب نظرات حذرة وعدائية إلى حد ما نحو الضباط المهندسين، وتمتم أثناء رنين الأكواب « لقد حضروا ليجــــدوا كل شيء معدا لهم » .

وهز أصغر القادمين ، وهو كابتن رفيع ، رأسه باستغراب .

وسأله أكيموف : « انها أول مرة تحضر فيهـــا هنا لريباشي . أليس كـذلك ؟ » .

وأجاب ليفتنانت كولونيل بدل الكابتن : « إنه لم يتوغل شمالا قبل ذلك ، فلم يصل إلا إلى شمال موسكو ومن حظه السيء أن يأتى لمثل هذا المكان القاتم السواد » .

وقال الكابتن « نعم إن المكان غريب جدا . وقد يبدو ذلك طبيعيا تماما فى الكتب ، أما على الواقع فإنه إلى حد مايبـــدو من غير المعقول .

وقال أكيموف بضحكة قصيرة : « إن الأمر غالبا مايكون على العكس » . ثم تفحص الكابتن وأضاف : « لاتتبرم ، فإنك ستحب المكان بعد أن تتعود عليه . ألم تصلك أية خطابات من أهلك ؟ .

واحمر الآخر بتعجب وقال : « لا »

ومع أن أكيموف كان يبدو منطلقا تماما أثناء حديثه مع المهندسين

إلا أنه كان مشحونا بالقلق ولم يتمكن من أن يدرك فى البداية ماذا يقلقه، ولكنه خطر له بعد ذلك أن السبب ربما كان ذكريات تسليم العمل منذ سنه فى أورشيا .

وقال بغير اكتراث . « إن كل اثاثنا هنا من كاسحة الغام المانية . لقد أصابتها قوارب طوربيدنا وقضت عليها مدافع الشاطىء ، واغرقتها على مسافة قريبة منا . فجهزنا حملة استيلاء سريعة . والتقط رجالى من قاع البحر البارتى فى البداية حقيبة سفر ثم مقعدا وسريرا ، وهــــذه المزولة أيضا . وكان هناك طبعا الكثير من المهمات التى لاقيمة لها . وقد اختار طبعا صديقنا مايتوخين احسن الحاجيات . والتقط أيضا برميلا من خمور الأخشاب ويبدو أنه كان يرغب فى أن يعدلى وليمة ، ولكنى جعلته يصبه فى البحر ؛ وأنى أراهن أنه قد قتل كل السمك » .

وأحمر وجه مايتوخين إلى منبت شعره وضحك كل الآخرين . وظل أكيموف ينظر خلسه بينما كان يتكلم إلى الليفتنانت كولونيل متوقعا منه أن يقول فى أية لحظة « إن كل هذا رائع ولكن ليس عندنا فكرة واضحة أى وحدات للعدو موجودة هنا ؛ وما مدى قوته ونريد أن تقوم لنا بمعركة استطلاعية » .

ومع ذلك فان الليفتنانت كولونيل قد ضحك فقط ضحكة

بشوشه ، ونهض فجأة وقال : « حسنا ، شكرا أيها القائد أكيموف . ستسلم العمل من الآن ، وستحضر الساعة السادسة كما تنص الأوامر » .

وتمتم القائد : « أنه من المستحيل عليك أن تحدد الوقت هنا » .

وأطلق أكيموف تنهيدة ارتياح عندما انصرفوا .

وبقى فى الكهف هو وضابطه فقط — مساعده السياسى الليفتنانت كروماندر مارتينوف ، — وقواد الفصائل ، الملازم كوزلوفسكى ، وفيلتيزوف ، ومينيفيش .

وسأل مارتينوف : « أين تظن سيرسلوننا ؟ » وجلس الآخرون مكتئبين وهم يهزون رؤسهم بعدم ارتياح . فلم يكن فى استطاعتهم أن يفهموا الأمر الفجائى بتسليم المكان ، وكان من الصعب عليهم أن يعتبروا هذا الأمر عادلا .

وأجاب أكيموف : « انى فى الحقيقة لا أعلم . وليست عندى أقل فكرة . وهل تظنون أنى لم أسأل الجنرال ؟ لقد سألته ، وتملص من الاجابة . وربما لا يعلم هو أيضا ، وكل ما علينا أن نعمله هو أن نسير فى طريقنا ونقول وداعا ياريباشى . وتمموا على كل شىء إلى آخر شريط . وراقبوا نظافة كل الأسلحة ، على أن يحلق كل الرجال ذقونهم . » .

وابتسم لنفسه وهو يرى وجوه ضباطه العابسة . وطمأنه كثيرا

شعوره بأنه سوف لا يرحل وحده بل سيرحل مع الرجال الذين أحبهم خلال الفترة البسيطة التى عاشوا فيها سويا . وكان ذلك أحسن كثيرا من تركه آلاى الماجور جولوفين ، ومطاردة باديكين الصغيرة أو مجموعة المطاردات التى كان يقودها إلى وقت قريب .

وكان يعجبه جنود البحرية أكثر من الجنود العاديين والبحارة العاديين ، وربما كان ذلك تفكيرا خاطئا . والسبب الحقيقى هو أنهم كانوا جنودا وبحاره فى نفس الوقت ، فلهم روح خاصة من التماسك والإقدام ، فخورون بحبهم للبحر ، وكانوا نظيفين ولامعين فى الظاهر والباطن كالبحارة تماما ، وعندهم فى نفس الوقت شجاعة الجنود وثباتهم المعروف ، وكان اعتقاده الذى يفخر به أن التقدم على الأرض هو العامل الفاصل فى الحرب .

وعند قدوم أكيموف منذ شهر ونصف كان عليه أن يعترف أنه لم ير فى حياته ظروفا أصعب من ظروف هذا المكان ، ومع ذلك فقد كان هناك نوع من التفاخر بجنود البحرية . لقد كانوا رجال معارك مطبوعين ، يتحملون الجو فقد نفذ الماء المالح إلى أعماقهم ، وارتبطوا سويا بصداقة بحرية لا توهن ، وعندما كانوا ينطلقون فوق الصخور أو البندورا الواسعة ،كانوا يسيرون بنفس المشية المتهادية كأنهم على سطح سفينة .

وكان مارتينوف الذى ينتسب إلى عائلة من البحارة فى لينتجراد ، طويلا رفيعا ، ذا أكتاف عريضة مستوية ومرتفعة قليلا وكان يحمل دائما غليونا فى فمه . وكان متحفظا صامتا ، أنيقا حليق الذقن دائما . وكانت معدات زينته محط إعجاب الجميع ، ففيها الكثير من الفرش من كل الأنواع والأحجام ، وأيد ومقابض للأسفنج والصابون من النيكل أو العاج اللامع . وأناقته التى كانت مضرب الأمثال ، تتناقض تماما مع الإهمال المقصود الذى لاحظه أكيموف فى الطريقة التى كان يلبس بها ريميزوف . ومع ذلك ، فقد وجد شيئا فى مارتينوف ذكره بريميزوف — وهو الاخلاص التام غير المشروط للهدف المشترك والقدرة على الاحتمال فى صمت .

وكان كوزلوفسكى قصير القامة ولكنه حسن المظهر ، ذا وجه شاب أسمر البشرة ، وأعين براقة ، ورأس صغير فوق رقبة طويلة شابة . وكان فينتسوف من الناحية الأخرى ممتلئا عريض الأكتاف قوى العضلات ، وعيناه بلا حواجب وله شفاه الرجل الهادىء الغليظة . أما وجه مينيفيش فكان عصبيا لطيفا ، يهتز باستمرار ، اهتزازات عصبية ، وله شارب أسود ولحية جانبية قصيرة متأنقة .

وكانوا يرتدون ملابس الجيش ككل جنود البحرية ، ولكن فيهم شىء خاص يدلك على أنهم فى البحرية . وكان حلمهم الدائم أن يعودوا إلى الباخرة ، ولكن إلى أن يتحقق حلمهم كانت شبه الجزيرة والكهف

والعالم كله هو باخرتهم . وكان مينيفيش يضع على قبعة الجيش شارة بحرية ذات هلب ذهبي .

رجع الضباط إلى فصائلهم بعد أن شربوا شايهم . وأراد أكيموف ومارتينوف أن يذهبا كذلك ولكن أخرهم قدوم الليفتينانت كوماندور سيليزنيوف من القطاع المجاور ، فقد سمع برحيل أكيموف الوشيك وكان تعبير وجهه المكتئب يعبر تماما عن قلقه لهذا الأمر . وفوق ذلك ، فقد بدأ يلتقط من معسكر أكيموف كل ما يمكن أن يكون ذا فائدة وقد قرر ألا يترك شيئا ذا قيمة للمهندسين .

وقال أكيموف : « حسنا ، يمكنك أن تتجول لترى ما تريد ، وأنا ذاهب إلى فصائلى » .

وكانت الخطوط الأمامية على طول حافة الصخور ، وكانت النقط المهمة مرتبطة ببعضها بممرات على ارتفاعات شاهقة تمر عليها أسلاك التليفون ويمتد حبل غليظ عليها ، وهناك العديد من هذه الحبال الغليظة على طول الجبهة ، لأنه كان من المستحيل أن تجد طريقك بدونها فى الليالى القطبية المظلمة .

وكان الوقت منتصف النهار ، وهو الفترة القصيرة التى تذكرك أن ضوء النهار موجود على أية حال . وبينما كان أكيموف يقف على

حافة الجبل سمع أصواتا فى المنخفض بين الصخور فقال . « إنهم يعرفون » .

وعند ما سمع البحارة اقتراب خطواتهم وعرفوا فيها قائد الكتيبة ومساعده السياسى صمتوا .

ونادى أكيموف : « تيليا كوف ! »

وأجاب الصف ضابط تيليا كوف وقد أدار وجهه الجاد ذا الحواجب الكثة إلى الضابط « نعم يا رفيق القائد ! »

« هل تضايقتم ؟ »

« قليلا يارفيق الكابتن . فمن المؤسف أن نرحل قبل الهجوم بقليل ، كما تعرف . لقد احتفلت بعيد ميلادى ثلاث مرات هنا فى هذه الجبال الصخرية . ويمكن أن أقول أننى قد امضيت جزءا من حياتى هنا » .

وتدخل الصف ضابط من الدرجة الأولى بيجوروف « لقد ظللت أنا أيضا ثلاث سنوات » وأبرقت عيناه وقال بحمية غير متوقعة وهو يشير فى اتجاه الأعداء « عليكم اللعنة ؟ لقد حلمت ثلاث سنوات باليوم الذى ألتقى فيه بكم لأجعلكم تدفعون ثمن كل ذلك .. » .

وكانت يداه الخشنتان الكبيرتان منقبضتان بعنف ، ثم ارتخت وسقطت إلى جانبه . ونظر إلى أكيموف وقال بابتسامة خجولة : « لقد

عرفت كل عاداتهم هنا — وانني لاعرف أكثر من ذلك..
أعرف أشكالهم ».

وسأل الصف ضابط من الدرجة الثانية جينيامين من مكان ما فى الظلام « هل تعرف إلى أين سيرسلوننا ؟ . . هل للاحتياطى أو ما يشابه ذلك ؟ ».

وكان فى السؤال قلق حقيقى بحيث لم يتمالك أكيموف من أن يبتسم وقال : «ليس هناك ماتخافون منه يارفاق ، فلن يرسلونا فى نزهه ».

وضحك الجميع . .

وقال يوجوروف . « هذا هو المهم ».

وكان الفخر يطل من أعين البحارة وهم ينظرون إلى هيئة ضابطهم القوية . فقدأحبه الجميع وكثيرا ماكانوا يتباهون به بين جنود الكتائب الأخرى قائلين . « لقد حارب ضابطنا فى الجيش بجوار موسكو وسمولنسك ، وسنكون فى أمان تام معه ».

وواصل أكيموف سيره ، وتوقف عند منحنى وصوب نظره نحو خطوط الألمان الأمامية وكانت سلسلة جبال موستا تورانتى ترتفع ممتدة علىجوانب البرزخ والكتل القوية من الصخور تبدو له منيعةوهو على هذه المسافة . وكان يمكن له أن يرى بالعين المجردة الاستحكامات

التى تتكون من صفوف عديدة من الصخور وقواعد مدافع مصنوعة من الخرسانة .

وبينما كان ينظر إلى هذه الاستحكامات القوية تذكر أكيموف كيف نظر من خلال الكوة منذ سنة بجوار أورشيا إلى أرض روسيا البيضاء التى يحتلها الالمان وكيف حلم بأن يتقدم إلى الأمام وإلى الأمام باستمرار حتى يحرر أوروبا من نير الغزاة . وكيف كان يبدو ذلك حلما بعيدا فى ذلك الوقت . ولكن قواتنا تتقدم الآن نحو وارسو فى الغرب وتحارب من أجل رومانيا ويوغوسلافيا والمجر فى الجنوب . فهل يأتى دور النرويج فى الشمال .

وسأل أكيموف فجأة مارتينوف . « أين تظن سيرسلوننا ؟ » ولم ينتظر الإجابة بل حملق نحو زميله وقال : « أظن أننا سنقوم بالهجوم على البر » .

وسأل مارتينوف بانتفاضة مفاجئة : «ما الذى يجعلك تظن ذلك ؟»

«إلى أى مكان آخر يمكن أن يرسلونا وإذا لم أكن مخطئا . فإننا سنكون فى ذيل هذه الطيور . . طيور البترول والستيرمارك البحرية بعد يوم أو اثنين . »

وقال مارتينوف بلهجة قلقة . « أحقيق هذا » وصمت دقيقة ثم قال . « من الخير ألا تخبر رجالك بافتراضك » .

وقال أكيموف مكررا وهو يلوح بيـــده . « الرجال ! انهم سيستنتجون بأنفسهم ، ان لم يكونوا قد استنتجوا بعد . ولا يمكن أن تخفى شيئا عنهم » .

وكانت هناك أصوات خافتة على طول الجبهة : فالأسلحة تقعقع والصف ضباط يصيحون بقلق . وكان الجنود يسرعون فى انهاء عتادهم خلال الضوء ، الذى كان قد بدأ يتلاشى . وأظلمت الدنيا بسرعة كبيرة وفى ذلك الوقت كان أكيموف قد رجع إلى كهفه حيث التف كل شىء فى ظلام دامس .

وكان سيليزينوف على وشـــك الرحيل . وقال له أكيموف ، « خذ المزولة » .

« لماذا » ؟

« إنها من نوع جيد ، ومن المؤسف أن نلقى بها بعيدا وستكون بمثابة تذكرة لك » .

« حسنا وشكراً . سأرسل بعض رجالى لأخذ الحاجيات كلها » .

« لا تتأخر كثيرا ، وإلا أخذها المهندسون »

وسأل مايتوخين بغيظ : « ماذا عن السرير ، يارفيق القائد ؟ ان نتركه ، أليس كذلك »

« يمكنك أن تأخذ كل ماتريد ولكن تذكر أنه عليك أن تحمل كل ذلك بنفسك » .

ورأى ما يتوخين أن التحذير معقول وألقى نظرة وداع حزينة على السرير المشكل وكل الأشياء الأخرى التى كان قد جمعها بصعوبة كبيرة . وكان ذلك قد أصبح جزءا من الماضى ، يزيد عن مجرد ذكرى. وكان يرقد أمامهم المستقبل المجهول .

(٢)

وعندما عاد كوفاليفسكى فى اليوم التالى ، كان المهندسون قد احتلوا كهف أكيموف : وكان المراسل الصحفى مرهقا تماما ، بعد أن تسلق بصعوبة الصخور طوال الطريق من المكان الذى وقفت السيارة وهو اللفافة التى تحوى التفاح .

وتكدر تماما عندما سمع أن كتيبة أكيموف قد رحلت الى جهة غير معلومة . وقبل أن يترك المكان شعر بميل نحو المهندسين وبعد حديث قصير معهم جلس على السرير الذى استولى عليه من كاسحة الألغام ليكتب عنهم . وفكر بعواطفه وهو يملأ بسرعة صفحات مفكرته « أن هؤلاء المهندسين أشخاص شجعان بشكل رائع رغم أنهم ليسوا بحارة » . ثم انطلق نحو الوحدة البحرية المجاورة . وقابلته قذائف كثيرة وكان عليه أن ينبطح نصف ساعة على الأرض قابضا بيده على لفافة أنيشكا . ووصل لحسن الحظ سالما . ثم قابل بعد ذلك صف ضابط . بطل من أبطال الاتحاد السوفيتى اشتهر اسمه فى كل البحرية وكان يتمنى من فترة طويلة أن يكتب عنه .

وكان على وشك أن يتركه بعد حديث استمر معه ثلاث ساعات وبعـــد أكلة بقسماط وشوربة خفيفة فى أحد الآلايات ولكنه سمع أن بطارية شاطئية قريبة قد أغرقت حديثا صندلا ألمانيا للنقل ذا محرك داخلى، وظن هذا الخبر يساعد على إخراج طبعة هامة من الجريدة، فذهب ليراها . وفى طريقه إلى هناك مع الجندى الذى رافقه قوبلا بوابل من نيران المدفعية الميكانيكية حتى لقد ظن أنه لن يخرج منها سالما .

ومما كان يفزع كوفا ليفسكى كثيرا ، اعتقاده فى نفسه أنه جبان للغاية : لقد كان قلبه يسقط إلى قدميه آلاف المرات فى اليوم . ولكنه كان دائما يزحف بإصرار إلى حيث يسمع عن وجود اجتماع هام، أوحيث يوجد حديث هام أوأى شىء يمكن أن يكون قصة مهمة ، وكان يجلس القرفصاء وهو لايزال شاحبا مرتعشا ، حيث يجلس الجنود ويأخذ المذكرات ويوجه الأسئلة ، ويحسدهم على هدوئهم دون أن يلاحظ الإعجاب فى عيون الجنود .

وكانوا يقولون : « إن هذا المراسل رفيق شجاع . ومن العجيب أنه يأتى إلى الخطوط الأمامية إلينا » وكان كوفاليفسكى يظن أن بإمكانهم أن يقرأوا قرارة نفسه . وربما استطاعوا ولكن كانوا أبعد من أن يلوموه ، كانو يكنون له التقدير والإعجاب ، وكانوا يعجبون فى أنفسهم « أنه يسمع الأخبار هناك ولكنه يأتى مع ذلك إلينا » .

وبعد أن أنهى كوفاليفسكى مهمته حمل صندوقه وبه التفاح على كتفه من جديد، وواصل سيره إلى حيث تقف السيارة فى انتظاره . وعندما وصل أسفل الصخور على مسافة بعيدة تماما من الخطوط الأمامية، اختفى خوفه وانتعش قليلا ، وأخبره بعض الضباط الذين — كانوا فى طريق عودتهم من اجتماع خاص لقواد الأسطول أن هناك هجوما سيشن فى اليوم التالى لإحداث ثغرة فى خطوط الأعـــداء فى جبال الموستا تيونتورى . فعاد مباشرة بعد أن ترك التفاح فى مخازن إحدى وحدات الأسطول . واستعد للمراقبة وأخذ يدون المذكرات وهو ساكن .

وكانت الخطوط الأمامية ترقد فى الظلام والصمت. وفجأة قفز الجميع . فقد سمعت قعقعة المدفعية غير بعيد فى الشمال الغربى ، وتختلط أصواتها مع جلجلة مدفعية الماكينة .

وسأل كوفاليفسكى ، ولم يعد يقدر على أن يتمالك مشاعره : « أين ذلك الضرب ؟ »

واختطف القائد سيليزينوف خريطته ونظر إليها وقال : « هنا فى ماتيفيوتو فجورد لابد أن قواتنا قد نزلت هناك . وأراهن أن أكيموف بينهم ! »

وانقبض قلب كوفاليفسكى . فقد كان يعرف ماذا يعنى النزول الهجومى خلف خطوط الأعداء ، ولم يتمالك أن يفكر فى أنيشكا وابنتها.

وعندما أحس الألمان فى موستا تنتورى بالمعركة خلفهم بدأوا يلقون القنابل بوحشية وجزافاً على مراكز السوفيت فى شبه جزيرة سيريدنى . ولكن مدفعيتنا هناك ظلت صامتة تماما كأن كل فرد قد نام . ولم تبدأ المدفعية المركزة على شبه جزر ريباشى وسيريدنى فى فتح نيرانها إلا بعد ساعات قليلة من تأكد القيادة من نجاح النزول إلى البر .

واستمر إطلاق النار ساعة ونصف ثم بدأت آلايات حملة البنادق ووحدات الأسطول فى الهجوم . ولم تبد قوات الجبال تحت قيادة الجنرال رندولتزاى مقاومة خطيرة ولم يلبث أن غطى الجنود السوفيت موستا تنتورى فتعلقوا بالصخور البارزة وزحفوا إلى أعلى . وكانت ومضات القنابل اليدوية تضىء كل المكان ، ويتردد صدى صيحات النصر التى تصم الآذان فى كل مكان .

وقد أخبر ضباط الهيئة الذين وصلوا بعد ذلك من قيادة القوات ، كوفا ليفسكى أن القوات التى نزلت قد قطعت الطريق إلى بوروفارا وخلقت بذلك ارتباكا بين الألمان وكفلت نجاح العملية .

وكان ذلك فى ١٠ اكتوبر .

وتدفقت قواتنا نحو الغرب خلال الثغرة فى خطوط الأعداء ، واخترق كوفا ليفسكى طريقه بصعوبة بالسيارة التى أعطيت له من قيادة الأسطول خلال سيل اللوريات والعربات المتراصة والمدافع خلف الوحدات المتقدمة .

ولم تنسه الحوادث المثيرة رسالة أنيشكا ، فقد سأل كل شخص قابله عن مكان أكيموف . وعرف أن كتيبة أكيموف قد نزلت فى ماتيفيونو لجورد ، ولكن أحدا لا يعرف مكانها الآن . وكانت الإشاعات تتردد عن أن الأسطول قد أنزل قوات أخرى بجوار قاعدة الأسطول فى لينا هامارى خلال مساء ١٣ أكتوبر . وقد استولت هذه القوات على الميناء وبذلك منعت قيادة الألمان من سحب قواتها عن طريق البحر . ومن المحتمل أن أكيموف كان من بين هذه القوات .

وكان تقدم القوات بطيئا لأنه كان عليها أن تخترق هضبة قاحلة تتناثر فيها أكوام الصخور وتمتلىء بالبرك والمستنقعات . وسارت فى المقدمة وحدات المشاة وتبعها المهندسون وهم ينظفون الطريق للعربات والمدافع فوق البرارى الثلجية المقفرة المليئة بالمستنقعات .

وكانت العربات غالبا ما تتوقف فى الوحل فيجرى تفريغها سريعاً ويحمل الرجال القنابل إلى المدافع التى تكون قد تقدمت إلى الأمام ثم تسحب بالأيدى خارج الوحل . وكان المطر والثلج ينهمران دون توقف ، كما كان الجو باردا رطبا . وعندما كانت عربة كوفا ليفسكى تتوقف ، وقد حدث ذلك عدة مرات ، كان يصيح فى صفوف الوحدات المارة طالبا العون . وكان الجنود لا يتحمسون لأول وهلة لمساعدته . فلم يستطيعوا فهم سبب ركوب ملازم أول لعربة مدنية . ولكن عندما كان يخبرهم بأنه مراسل صحفى كانوا يبذلون أقصى جهدهم لمساعدته على مواصلة السير ، فقد

كان يسرهم أن يرى شخص من خارج الجيش الأوقات العصيبة التى تمر بهـم وأن ينقل أخبارهم إلى الجمهور فى الجنوب . وكانوا يعتبرون موسكو نفسها على مسافة بعيدة عنهم فى الجنوب .

وبحث كوفاليفسكى عن فرقة التلغراف وأرسل إشارة مليئة بعلامات التعجب ، وكانت تبتدىء بالكلمات الآتية : «ان عربتى تسير إلى جانب القوات المتقدمة . وبيشينجا على مرمى بصرنا » .

وكانت بيشينجا التى يطلق عليها عادة الاسم الفنلندى بيتسامو ، على مسافة قريبة تماما . وكانت الأرض المنخفضة التى يغلفهـا الضباب تهتز مع طلقات المدافع . وأحضر ثلاثة أسرى ألمان بالسيارة وهم مطأطئوا الرءوس ، ويبعثون على الشفقــــة ، وقد أتوا من التيرول ودربوا فى جبال الألب تحت قيادة تشورنرو ديتل . وكان منظرهم مؤسفـا إذا قورن بحالتهم عند بداية الحملة التى يشار إليهـــا فى وثائق الجنرالات الألمان بـ «الثعلب الأزرق» .

وتكلم معهم كوفاليفسكى ثم كتب رسالة أبرق بها مباشرة إلى موسكو وكانت تبتدىء «هاهم أبطال كريت ونارفيك يسيرون بصعوبة ورءوسهم مدلاة .»

ووصل كوفاليسكى الى باتسمو فى اليوم التالى للاستيلاء عليها . وعقـد الأحاديث مع الجنرالات والجنود ، وثرثر مع البحارة وجنود البحرية .

وبدأ يفكر كيف أن أنظار العالم تتجه الآن نحو الشمال .

باتسمو ! لقد كانت مركزا لعمليات سفن الألمان ، ومنها انطلقت الطائرات لتقذف مورمانسك التي قاست الكثير . هذه المدينة التي كانت شوكة في جنبنا والتي كانت تبدو وكأنها لن تنهزم أصبحت الآن في أيدينا .

واستقر كوفاليفسكي بجوار قياة أحد الألوية وبدأ يكتب . وكانت بداية المقالة الأولى : « أن عربتي تسير ببطء خلال الشوارع ببيشينجا ، التي حررتها قواتنا منذ قليل » . والحق يقال أنه لم يكن هناك شوارع في بيشينجا على الإطلاق ، بل وتتناثر المباني الخشبية على الجانبين هنا وهناك على مسافات بعيدة .

ونسى كوفاليفسكي كل شيء عن لفافة أكيموف . وقد وخزه ضميره عندما تذكرها ، وتوجه مسرعا إلى ضابط اتصال البحرية في المدينة ليعرف منه أخيرا كيف يتصل بأكيموف . وأخبروه أنه من المرجح أن يكون في منطقة ليناهاماري وتوجه إليها مباشرة . وعرف بعد ذلك أنه لا أمل في الحصول على التفاح فقد رحلت وحدة جنود البحرية التي ترك معها كوفاليفسكي اللفافة منذ أمد بعيد في اتجاه حدود النرويج . وصاح كوفاليفسكي متعجبا « أي حظ سيء » ، أن هذا التفاح كان كابوسا حقيقيا . لقد كان يرغب بشدة في توصيله إلى أكيموف ، لأنه يعرف كم كان سيسره ويسعده . تصور تفاحا طازجا في أقصى الشمال !

وقد كان كوفاليفسكى يتصور فرح أكيموف ، وراحته النفسية المشوبة بالحسد عند ما يخبره عن أنيشكا وابنتها الطفلة ، ونجاحها فى امتحان الدخول وحبها العظيم لأكيموف .

واعتقد أخيرا أن الأخبار أهم بكثير من التفاح ، ولذلك اتجه فى العربة نحو ليناهاماري ولكنه لم يجد أكيموف هناك كذلك فمنذ بضع ساعات رحلت عن طريق البحر وحدات نزول هجومية لمكان غير معلوم .

— ٣ —

ورحل جنود البحرية فى مركب هجومية لنزول جديد فى مؤخرة جناح الألمان — وهو النزول الثالث فى الأيام القليلة الماضية — وكان النزول هذه المرة فى أراضى النرويج .

وكانت الخطة كما يلى ؟ تبحر قوات المقدمة فى عشر مطاردات وغواصات ، وتتبعها على مسافة عشرة أميال فرقة من عشر سفن للحراسة .وعشر كاسحات الغام مع حراسة أخرى على بعد عشر أو أثنى عشر ميلا إلى الوراء ،وتم الرحيل فى سرية تامة ،وكان الصوت الوحيد هو صرير السقالات وخشخشة الأسلحة .

وقبل أن تصعد القوات إلى المركب ،تجول قائد الأسطول يصحبه

ضابط هيئة أركان الحرب على الشاطىء من كتيبة إلى أخرى ومن فصيلة إلى أخرى . وكانت المشاعل تضىء هنا وهناك لتنير للأدميرال طريقه .

وعند ما وصل إلى كتيبة أكيموف سأل بصوته الأجش الذى يعرفه تماما كل شخص حتى أصغر طباخ فى سفن الأسطول الشمالى : « من سيرحل على ظهر السفينة هنا ؟ » .

وأجابه أكيموف الاجابة المناسبة ، وسار الأدميرال وإلى جانبه أكيموف بين جنود البحرية وتحادث معهم . وكان على وشك أن يتركهم عند ما أضاء بطاريته فجأة فى وجه أكيموف . وكانت ملامحه الواضحة التى أثر فيها الجو مشدودة قوية . وسأله الأدميرال : « ألا تحب أن تعود إلى باخرة ؟ » .

وحير السؤال أكيموف . ففى مكان ما منذ أمد طويل تذكر أن شخصا قد سأله نفس السؤال فى الليل أيضا ، تحت ضوء البطارية . ولم يتصور هل هى حقيقة أم خيال من تصوراته .

وأجاب متملصا : « حسب رغبة القيادة »

وأطفأ الادميرال بطاريته وعاد الظلام مباشرة للمكان . وبعد صمت قصير قال الأدميرال . « حافظ على سرية هذا الكلام يا أكيموف .

عند ما تنتهى من هذه المهمة سأعيدك للأسطول من جديد . لقد قمت بقتال كاف على البر . موافق ؟ » .

وأجاب أكيموف . « نعم » . وأحس فجأة بالأسف من أجل الأدميرال الذى أحس فى صوته بالإنهاك والقلق، فأضاف ، « لا تقلق يارفيق الادميرال ، سنقوم بواجبنا على خير وجه » .

وصافح الأدميرال أكيموف بشدة . وواصل سيره على طول الشاطىء دون أن ينبس بكلمة أخرى . ولم تلبث أضواء بطاريات الجيب أن اختفت فى الأفق .

وصعـــد أكيموف إلى ظهر مطاردة الغواصات التى عينت له ، وكانت فصيلة كوفاليفسكى ستصعد إلى نفس السفينة وقد رحل الآخرون قبلهم مع الفريق الأول .

وتم الصعود بسرعة كبيرة . وكان البحـــارة على ظهر المطاردات يصدرون توجيهاتهم لجنود البحرية فى أصوات خفيضة ليتجهوا نحو الكبائن . وسمع صوت رقيق يقول « لا تنس أن تعطيهم طاسات وجرادل وإلا ملأوا الباخرة بالقىء بسبب دوار البحر فإن البحر هائج اليوم » .

وأجاب أحد جنود البحرية بنفس الصوت : « لا تخف فلن نتقايأ ، ولقد رأينا سفناً أسرع من سفينتكم » .

« لقد رأيت ، أليس كذلك ؟ حسنا ، فلتطفىء هذه السيجارة والا سترى شيئاً آخر » .

وقهقه البحارة . .

وبعد أن صعد أكيموف على السقالة توقف قليلا ليرى رجاله وهم يختفون فى عنابر السفينة فى طريقهم إلى الكبائن ، وصعد إلى كابين القيادة ليقدم نفسه لكابتن المطاردة : فالعلاقات الطيبة مع ربان سفينة الإنزال تلعب دورا كبيرا فى نجاح العملية .

وبمجرد وصوله إلى كابين القيادة اصطدم بأحد البحارة وعندما تأمله وجده شيجالو .

وصاح متعجباً ، وهو لا يصدق عينيه « شيجالو ، هل أنت هنا ؟ » .

وأجاب شيجالو : « القائد أكيموف ! هل حقيقة أنت ؟ » وصافح اليد التى امتدت إليه بحرارة وقال : « إن قائدنا سيسعده ذلك ! »

وأسرع أكيموف نحو كابين القيادة واحتضن الملازم القصير الذى هزه الموقف بحيث توقفت الكلمات فى حلقه . وكل ما أمكنه أن يقوله : « هل تصدق هذا ! »

وقبل أن يبدأوا الحديث أعطيت الإشارة للإبحار .

كانت الريح تهب عاتية فتهتز لها المطاردة الصغيرة كالريشة فى مهب الريح . وكان البحر البارنتى بلا شك يريد أن يشعر البواخر الصغيرة كيف يمكن أن يكون قاسياً، فكان يدقها بشدة ويصاحبها بريح تصرصر عاتية .

ووقف أكيموف فى كابين القيادة بجوار باديكين ، وهو يمسح بين حين وآخر الماء من على وجهه وينظر إلى الكابتن القصير الذى يقف إلى جانبه وفى عينيه بريق طروب . ويجيب عليه الآخر بابتسامة كان أكيموف لازال يذكرها جيداً تجعل وجهه يبدو ألطف مما هو .

وصاح باديكين : « لقد أصبحت نحيفاً »

وسأل أكيموف الذى لم يسمع بسبب صفير الريح : « ماذا ؟ »

« لقد هزلت » .

« لقد حرمت من طبخ نينا ! »

« ها . . ها ! »

وصاح أكيموف « تهانئ » .

« على ماذا ؟ »

« على ترقيتك ، يارفيق ملازم أول . فلم ألاحظ ذلك من قبل »

وأجاب باديكين مبتسما : « شكرا » .

« ماذا ؟ »

« شكرا ! »

وقال أكيموف ضاحكا : « إنك لقدير فى هذا الجو » .

وصاح باديكين ليرتفع صوته فوق الرياح : « أيهما أحسن ؟ هنا أم فى الجيش ؟ »

وقال أكيموف وهو يضغط على أسنانه : « فى كل مكان » ثم انحنى وصاح فى اذن باديكين : « يمكنك أن تهنئنى كذلك ، لقد انجبت ابنة » .

« ماذا !! » .

« طفله ، إبنة ، كاتيا . »

« تهانئى ! »

وجعلت موجة عالية المركب تميل على جانبها الأيمن . وصاح أكيموف فى رجاله الذين تجمعوا على السطح : « تماسكوا يارفاق ! » وعلا صوته القوى فوق صفير الريح وارتفعت الوجوه المبتلة نحوه وقد اطمأنت . واستدار كاشيفاروف لحظة تاركا الدفة ليرى أكيموف الذى تذكر من جديد طفولته ، وربت على كتف كاشيفاروف . الذى ابتسم وقال شيئا لم يسمعه اكيموف . واستطاع أكيموف أن يخمن وهو ينظر إلى رجاله الواقفين على ظهر السفينة ، الوجوه المعروفة له تماما من تحت قبعاتهم السوداء . تيليا كوف ، ما يتوخين ، جينيافين ، يوجوروف

وغيرهم . وأحس مع بعض الحسد أن رجاله ليسوا بأى حال أقل من رجال باديكين وأنه يمكنه أن يقوم بأعمال عظيمة بهم .

واسترعى حد الشاطىء المألوف انتباه أكيموف . ولم يكن هناك بين الصخور السحيقة الانحدار القائمة التى تطل على البحر ما يمكن أن يميزها عن تلك التى رآها من قبل ومع ذلك فقد كانت لها ملامح خداعة خاصة بها . وهم الآن فى مدخل فارنجو فجورد وهو المكان الذى أبحر إليه قبلا على نفس المطاردة الصغيرة وهو تحت التمرين مع باديكين . وهناك على مسافة قريبة أنزلوا ليتياجين ومجموعته الاستطلاعية . وتذكر باديكين الموضوع أيضا . وربت على كتف أكيموف وأشار نحو الشاطىء وقال أكيموف : « نعم : »

واسترجع فى ذاكرته كيف أشفق على رجال الاستطلاع للوقت القاسى الخطير الذى ينتظرهم فى هذا الشاطىء البارد الوعر. ان عليه الآن أن ينزل بنفسه ومع ذلك فلم يعتبرة شيئا فظيعا . وفكر كيف سينزل على الشاطىء الغريب حيث شعبه — حلفاؤه — يقاسون من أحكام الاحتلال الشديد ، وجعلته الفكره ينتفخ فخرا لقوة وعظمة الأمة والقوات المسلحة التى ينتمى إليها . وكان فخورا بأن الجيش السوفيتى من البحر البارنتى إلى البحر الأسود قد حرر بلاده ، ولم يصبح واجبه بعد الآن مجرد الدفاع عن شعبه، بل تحرير غيره ، وهى مهمة تستحق العمل وبإمكانهم القيام بها وهم أهل لها .

وعندما كان فى جماعة الشـــباب الشيوعى كانت تملؤه الأحلام الخيـــالية ، المجردة إلى حد ما ، ولـكنها حماسية رائعة عن تحرير كل العالم من الطغيان والاضطهاد . ولـكن هذه الأحلام قد أصبحت حقيقة وأخذت شكلا محددا . فايست كأحلام شبابه تماما ولـكنها ليست أقل روعة . نعم ، ها هى الحقيقة ، فالعلم السوفيتى يهتز على ساريته ، وتخفق آلة المطاردة الصغيرة ، وتومض الأضواء بإشارات متفق عليها ويسيطر التوتر الصامت على المجموعة التى ستنزل برا ويدق قلبه الذى لازال شابا دقات ثائرة ويظهر الحد القاتم للشاطىء الأجنبى حيث الشعب شغوف بالتحرر .

وزاد اقترابهم من ذلك الشاطىء . وظهرت حدود الصخور التى تبدو شاهقة بشـــكل واضح . وأصبحت المدمرات الصغيرة بين قمتى صخرتين فى المدخل العميق الضيق إلى الخليج .

ورغم أن السفن كانت تبحر بلا أضواء أو إشارات لاسلكية وتحولت الآلات إلى العوادم تحت الماء ، فلم يلبثوا أن أكتشفوا على الشاطىء ، وظهر وميض واضح ، وسمع صوت مدفع وانفجرت قنبلة فى البحر على مسافة قريبة ، وكان إطلاق النار من جانبى الخليج .

وتطايرت القنابل فوق الرءوس وهى تصفر صفيراً خافتا . وكانت عشرات الطلقات تنطلق فوق الخليج ثم تغطس فى الماء .

وأمر باديكين أن يطلق ستاراً من الدخان ، وحذت حذوه السفن الأخرى واتجهت كلها نحو الشاطىء وبذلك اتسع بساط الدخان . ولم يلبث أن غطى الخليج بسحب مائجة من الدخان حجبت الرؤية تماما . وكانت بطاريات الشاطىء الألمانية تطلق النار بلا انقطاع وجزافا . وكان يبرق أحيانا الوميض المعتم للانفجارات خلال الدخان وترتفع أعمدة من الماء باهرة الجمال وتعلو فوق الخليج .

وكان باديكين يعرف الشاطىء جيدا — ولم يكن من الصعب عليه أن يقود سفينته بلا صعوبة إلى البقعة المحددة على الشاطىء . ولكنه كان قلقا على أكيموف ، ويشعر بالأسف لرفيقه الذى عليه أن ينزل بالقوة ثم يتقدم فى هذه الأرض القاحلة التى ليس فيها مكان ترتاح فيه وتجفف نفسك وتنال بعض الدفء . وبدأ يفكر فى نفسه وهو يزيح الماء المالح الذى تجمد على وجنته : «إن الأمر يختلف معنا نحن البحارة . وكان يجب ألا يذهب ليحارب على البر » .

وأعطيت إشارة النزول .

وكانت المطاردات الصغيرة قد وصلت إلى جوار الشاطىء . وكانت المدافع الكبيرة ومدافع الماكينة فى السفن تطلق النار لتطهر الشاطىء من الاعداء . وارتفعت طلقات الألمان المحمومة وحلقت مرتعشة فى السماء . وبدا فى أضوائها البحر الهائج ، والأمواج التى ترغى وتزبد، ووجوه البحارة المتحمسة وهم يقفون بارزين شجعانا فى مواجهة

الأشباح الباردة العميقة كهواة تصوير المناظر غير المفتعلة .

وانفجرت قنبلة على مسافة قريبة وتناثرت الشظايا فى كل اتجاه . وانزلت مدافع الماكينة الثقيلة على السقالة . وانفجرت قنبلة ثانية فوق أحد الرجال وسقط آخر فى الماء وانطلقت الأشباح المظلمة لفرق النزول على السقاله وتفرقت على الشاطىء وانفجرت قنبلة ثالثه على مسافة قريبة تماما .

وأمر باديكين فى صوت أجش . « أدوات الأطفاء ! »

وفكر أكيموف : « أن المطاردة قد أصيبت لم يكن عنده الوقت للتفكير فى ذلك الآن . لقد كان ذهنه على الشاطىء مع رجاله الذين دخلوا المعركة . ولم يودع باديكين ، ربما لأنه نسى أو لأنه حدث ما منعه . ولكن بمجرد أن وضع قدمه على السقالة سيطر على نفسه شعور بالخطيئة لأنه أجبر على ترك صديقه وقت الحاجة .

وعندما وصل الشاطىء قذف به أحد الإنفجارات جانبا ، وعندما سقط فى الماء أمسك بصخرة بارزة . وكانت أذنه تطن . وبدا له فجأة أن جوا لاذعاً يحيط به وعندما استدار خلفه رأى المطاردة الصغيرة وقد دبت فيها النار . وتمالك نفسه ليمنعها من أن تعود إلى المركب . وتماسك وازدرد لعابه بألم وتسلق طريقه نحو الشاطىء . وكان آخر ما رآه من المطارده الصغيرة هو شيجالو رئيس النوتية وهو واقف بجوار مدفعه

الميكانيكى يطلق النار فى ضربات متوالية نحو مواقع الألمان الحصينة على الشاطىء ، وخلفه لخيح اللهب والانفجارات تمزق الجو .

— ٤ —

وظل أكيموف يردد مشجعاً بصوت منخفض بينما كان يتسلق « إلى الأمام ، إلى الأمام ! » وكان بجانبه ماتيوخين وسار خلفه مراقبون من البحرية يحملون جهازاً لاسلكياً صغيراً لتوجيه إطلاق النار من السفن نحو الأهداف على الشاطىء .

وكاد صدر أكيموف ينفجر من هياج حاد بارد . وحاول جهده ألا ينظر خلفه ، ولكن الرائحة غير المألوفة للأرض الأجنبية التى كان يشمها وهو يزحف القرفصاء ، ما كان لها أن تطلمس رائحة الدهان المحترق الذى تدفعه الريح من الخليج . . وكذلك هزيم المدافع وزئير الأمواج وأصوات البحارة الذين يزحفون حوله وأصوات مدافع الماكينة على الجانبين ما كانت لتمنعه من سماع الخشخشة والرش والانفجارات الصغيرة وصيحات التحذير القادمة من المدمرة الصغيرة التى تغرق .

وكرر بصوته الخفيض ، وهو يزحف نحو قمة قرر أن يقود منها المعركة « إلى الأمام ! إلى الأمام ! » ووصل إليها فى النهاية ووجد الملازم كوزولوفسكى قد وصل إليها قبله . وراقب أرض المعركة التى ترتفع

بانحدار أمامه وتزحف عليها القوات التى نزلت .

وكان أكثر المتقدمين من بينهم قد وصل على بعد ستمائة قدم من الماء ولكن إطلاق النار المضاد جعلهم يرقدون ممددين على الأرض ، وقد استولوا على نقطة ارتكاز على شكل نصف دائرة . وكانت الحرب تدور بعناد جهة اليسار حيث كان تيليا كوف يطلق النار من مدفع ما كينة بلا توقف . وكانت بطارية الشاطىء الألمانية المحصنة تماماً عند سطح الصخرة يحميها المشاة بلا شك ، لأن النار المصوبة من هناك زادت حدتها كثيراً .

وأمر أكيموف مراقبى الأسطول أن يبلغوا مدفعية الأسطول عن معقل الألمان ثم زحف نحو المقدمة حيث ينبطح جنود البحرية على الأرض .

وقال فى صوت منخفض « أمستعدون ! » وعندما سمع جنود البحرية كلمة القيادة البحرية المألوفة وهى تخـــرج من بين شفتى قائدهم هزوا رءوسهم ليظهروا أنهم قد فهموا . وتساقطت قنابل من مدافع الأعداء الهاون المختفية ، بانفجار يصم الآذان ، وكانت فى البداية فى شريط على طول الشاطىء ثم بدأ يقترب بالتدريج من جنود البحرية وأجهد أكيموف أذنه وسمع فى النهاية مدافع السفن وقد بدأت تعمل ثم رأى شيئاً ما ينفجر وتضطرم فيه النار فى الجناح الأيسر .

وأضاء اللهيب المتأجج لمدة دقيقة كل ما حولهم — من صخور مملة بطحالبها وحشائشها وصفصافها القصير وأكواخها القائمة على قمة الصخر .

وقال أكيموف وهو ينهض واقفاً ويخرج مسدسه من جرابه : « فلنتقدم » .

ورفع ماتيوخين مسدس الإشارة وأطلق ثلاث طلقات مضيئة على التوالى .

ونهض الرجال جميعا بعد أكيموف وفتح الجميع أزرار قمصانهم كأنهم ضجوا من الحر . وأخرج ماتيوخين قبعة البحارة من جيبه بهدوء وادتداها ووضع قبعة الجيش بنفس الهدوء فى معطفه .

وكم من مرة نهرهم مارتينوف على هذا العمل ، وكان الندم يبدو فى أعينهم ثم يعودون إلى نفس العمل فى الحملة التالية مباشره .

وكانت تلك اللفتة التهديدية من البحارة تعنى أكثر من مجرد الرغبة فى إظهار قمصانهم المخططة ـ وهى شعار البحار الذى لا يعرف الخوف ، فهى تعنى استعداد البحارة للتضحية بأرواحهم واستخفافهم بالموت .

وصاح أكيموف بصوت أجش وهو مأخوذ برهبـــة الموقف « إلى الأمام ! »

واندفع الجميع إلى الأمام متسلقين المنحدر دون أن يصيحوا كالمشاة.

بل بصمت وفى خطوات متعرجة لا تقاوم . وعندما وصلوا إلى القمة اندفعوا فوقها إلى الهضبـــة . وكان الظلام مخيما، وقد توقف وميض الطلقات ، فربما فر الألمان الذين كانوا يطلقونها . وتوارى البحر عن الأنظار ، فقد أخفته الصخور عن الأرض ، أخفت كل ما فى البحر ، سفنهم المحبوبة ، وأخوتهم البحارة ، وعلم بلادهم ، وبدت لهم إمكانية العودة بالبحر مستحيلة وبعيدة المنال .

وانتظر أكيموف على القمة حتى لا يفقد الاتصال بالأجنحة والخليج وأقام رجال المراقبة البحرية أجهزتهم اللاسلكية من جديد . وأطلق ماتيوخين طلقات ليحدد مقدار التقـــدم وكان الكل يتنفس بعمق . والجرحى يزحفون عائدين إلى البحر . ويأتى العداؤون من كل الإتجاهات ليقدموا تقاريرهم ثم يختفون فى الظلام من جديد . وسيطر السكون ، ولكنه كان يبدو سكونا خداعا ، يخفى التوتر وينذر بالخطر ثم أضاء وميض الطلقات المكان .

وقال أكيموف معلقا . « لقد بدأوا من جديد »

ووصلت شدة إطلاق النار من الألمان ذروتها .

وظهر شخص يعدو من اليسار وهو ينحنى أحياناً ، وتلمع عيناه فى ضوء الطلقات وميض إما من الخوف أو من التحدى وعندما وصل إلى مسافة غير قريبة صاح بصوت بدا سعيدا « لقد اشتدت هجمات الألمان

أولاد . . . » وعندما رأى قائد الكتيبة ، وقف فى وضع انتباه كأنه فى أرض استعراض وقال « لقد بدأ هجوم الألمـان المضاد يارفيق القائد . ويطلب تيليكيا معونة . »

ونظر أكيموف إلى البحار لمدة نصف دقيقة دون أن يتعرف عليه لأن وجهه كله كان ملطخا بالوحل والدم .

وسأله وهو ينظر إلى الأمام نحو ظلال الأشجار المتمايلة : « كم بقى من الرجال؟ » ولكن البحار لم يجب وقد ظن أن السؤال موجه لشخص آخر فى الأمام . فقال أكيموف « إننى أتكلم معك أنت »

وتلفت البحار حوله ثم اقترب من أكيموف حتى أذنه تقريباً وقال « لم يبق غير القليل » .

فقال أكيموف لكوزلوفسكى : « خذ عشرة رجال وتوجه إلى هناك » .

وتوجه الملازم إلى المنحدر على رأس رجاله . وكانت فوهات المدافع تلمع فى الضوء وجرى البحار بوجهه الملطخ أمام الملازم ، وهو يقفز بطريقة عجيبـــة ويتمتم لنفسه . وعند ذلك فقط عرف أكيموف أنه يوجوروف .

وبدأت فترة سكون جديدة . وكانت قنابل الالمان تنفجر بجوار الماء

وفكر أكيموف فى نفســه « ماذا حدث ! » . وفى تلك اللحظة سمع دبيب أقدام كثيرة خلفه . ثم نادى شخص ما من أسفل التل ، وبعد بضع دقائق وصل البكباشى مارتينوف وهو يكاد يسقط وأنفاسه متلاحقة من الجرى وقال : « ها قد وصلنا » .

ولم يلبث المكان أن بدا وقد امتلأ بالرجال . وترددت الأصوات والصياح . وألقى أكيموف نظرة وداع إلى البحر والسفن التى تقف على الشاطىء ، وهو يودع فى نفسه كل الأصدقاء ، الأحياء والأموات ، وسار إلى الأمام فى مقدمة كتيبته . وبدأ هدير الأمواج ، يختفى فى الأفق وحتى الوميض أصبح كأنه لمعان باهت . وامتدت الكتيبة على طول الطريق الصخرى متوغلة فى الممرات الجبلية الضيقة لهــذه الشواطىء المجهولة .

وخلال وقفة قصيرة دعا أكيموف القـادة سويا وسألهم . « ماذا حدث ليوجوروف ؟ هل جرح ؟ » وأتت الإجابة : « نعم ولكنه رفض أن يغادر من الميدان » .

« وبيوكوف ؟ »

« جرح ورفض العودة »

« وسيميونوف »

« قتــل »

« وليفاشوف ؟ »

« قتـــل »

« وسوتيكوف ؟ »

« جرحت رأسه ورحل . »

« وبويشنكو ؟ »

« جرح ورفض أن يبقى فى المؤخرة » .

واغتسل مارتينوف ، وحك يديه بعناية بفرشاة أظافر بيضاء ذات مقبض عاجي . وكان موسى الحـــلاقة موجودا على حجر مستو وماء الحلاقة يسخن على نار قريبة . وقال : « أن كل من أظهروا اقداما فى المعركة يجب أن نطلب لهم جوائز . »

ونظر أكيموف نحو البحـــارة الذين يرقدون متجاورين وقال وعلى وجهـــه ابتسامة خبيثة : « ليسوا الآن فى حاجة إلى جوائز بل إلى النوم . » ونهض وهو يبدو عليه الإنهـــاك ، وقال « فلتسرع فى حلاقتك . وأعطى الأوامر للاصطفاف ، فسنتوجه نحو كركينز » .

الفصل الثامن

على الشاطئ

(تكملة)

— ١ —

كانت مدينة كركينز قد اختفت تماما فقد نسفها الألمان وأحرقوها بيتا بيتـــا بطريقة منظمة قبل أن ينسحبوا . وكانت أكوام الفحم على الشاطىء وقد أشعل فيها الألمان النيران ، تلمع وتتأجج بضوء أزرق على مرمى البصر. وكانت تخترق الأنف فى كل مكان رائحة النيران والتخريب الحادة . هذه الرائحة التى تمزق القلب والتى عرفها أكيموف فى أرض سمولنسك وروسيا البيضاء والتى لا يمكن أن تنسى .

وكان سكون الموت يخيم على كل مكان . تمزقه أحيانا أصوات بعض القنابل التى يلقيها الألمان الذين لا يزالون يسيطرون على الجزيرة الصخرية المواجهة للمدينة ، كل نصف ساعة بطريقتهم التى تدل على الغباء وعدم الادراك :. وكانت القنـــابل تنفجر محدثة صدى فارغا فى الشوارع المحترقة .

وتجول أكيموف ورجاله فى المدينة المهجورة بصمت . وقد خمنوا أماكن الشوارع ببقايا المداخن التى تبرز هنا وهناك من خلال الأنقاض. ومن أسوار الحدائق ذات الشباك الحديدية المنسقة . وحيث كانت الشوارع الأنيقة النظيفة الرائعة ، وكانت تنتشر مجموعة متشابكة من أسلاك التليفونات الألمانية المفككة من كل الألوان . وكانت توجد على الخريطة كنيسة حيث تبرز الأرض فى البحر ومنها جاء اسم المدينة ومعناه رأس الكنيسة . ولكن الكنيسة كانت قد دمرت كذلك. ولم يبق غير جزء من سور بناء الكنيسة .

واتجهوا نحو اليسار ناحية مصانع السد فارينجين . وكانت إحدى المداخن العالية لم تزل قائمة ولكن لم يبق غير ذلك سوى كومة عالية من الأحجار . وكان الصمت جاثما هنا أيضاً ولا يوجد أى أثر للحياة .

وقال أكيموف : « هذا هو ما صنعه الألمان هنا كما صنعوا باورشا من قبل . فالأمر واضح وتبدو أيديهم من خلال كل شىء هنا » .

وأضاف مارتينوف متجهما وقد التقطت أذنه صوت انفجار كمية أخرى من قنابل الألمان : « نعم . نفس ما حدث فى لينجراد » . وتكلم أكيموف إلى القيادة باللاسلكى . وتلقى الأوامر بأن يتوجه إلى قرية بيجورنيفاتن وينتظر أوامر أخرى . وترك مينيفيج وسريته وتموين طعام وذخيرة لثلاثة أيام بجوار الشاطىء . وقاد بقية الكتيبة خلال

الشوارع وفوق أكوام الأنقاض نحو الطريق الذى يقع خلفها .

وكان الطريق يتجه جنوبا . وإلى جواره فوق التندورا المليئة بالمستنقعات والتى تتناثر فوقها الثلوج يمكن رؤية قضبان سوداء لسكة حديد ضيقة . وعليها هنا وهناك عربات متروكة يعلوها الصدأ ويغطيها الثلج .

وكانت بيجور نيفاتن قد عانت أقل من كركينز . وكان العلم النرويجى بصليبه الأزرق ذى الحواف البيضاء لا زال مرفرفا فوق ساريات عالية بجوار المنازل . وخرج السكان وحيوا الوحدات السوفيتية بابتهاج يبدو فيه الخضوع . وكانوا يعيشون فى المناجم والكهوف فى أطراف القرية . ونظر الجنود والبحارة بإشفاق الى وجوه النرويجيين المجهدة المغيظة .

وأسكن أكيموف رجاله فى مبنى خشبى طويل يبدو كأنه حمامات . وكذلك ثلاثة منازل كان يشغلها الألمان حتى آخر لحظة ومن أجل ذلك لم تنسف . وكانت توجد بها أسرة حديدية وأغطية جيش صوفية .

ورقد كل الجنود ، عدا القائمين منهم بالحراسة ، ناموا غير منتظرين طباخى الكتيبة الذين كانوا يعدون لهم وجبتهم ، ولأنهم لا يحسبون الوقت ، لم يدروا هل يسمونها فطورا أم غداء أم عشاء .

وبعد أن أسكن أكيموف كل رجاله سمع عندما كاد يرقد ، رغم

فصف الصمم الذى أصابه من انفجارات أيام متوالية ، صوت طفل يبكى غير بعيد . فخرج إلى الشارع وتبعه ماتيوخين الذى لم يستطع النوم ، رغم الانهاك المميت ، عندما رأى ضابطه يخرج . وتوجه أكيموف نحو المنجم وسمع من مكان بداخله امرأة تحاول ان تهدىء من بكاء الأطفال .

ودخل الى الممر المظلم تحت الأرض وعندما رأى الأطفال ، احس لأول مرة بأنه هو أب أيضاً كما عرف سماعا . وكانت وجوه الأطفال تبدو شاحبة بشكل مرعب فى ضوء مصابيح الفحم بحيث امتلأ قلب أكيموف بالشفقة والقلق على ابنته التى تعيش بعيدا فى موسكو . ولم يعد الرجال الذين يقفون صامتين بجوار الجدران بالنسبة له مجرد آدميين سلبهم الغزاة كل شىء . فقد كان هناك شىء مشترك بينه وبينهم ألا وهو أنهم آباء يخافون على أطفالهم .

وكان كل الرجال تقريبا طوال القامة ذوى شعر أشقر ولهم وجوه الصيادين وسكان الشواطىء التى لوحها الجو . وكان معظمهم بما فيهم النساء يرتدون بلوفرات وسراويل انزلاق صوفية ملونة .

ووقف أكيموف صامتا حائرا وهو يفكر ماذا يفعل . إلى أن ظهر له من داخل أعماق المنجم رجل يرتدى الزى السوفيتى . عرف فيه ليتياجين واندفع نحوه ..

وقال ليتياجين وقد أبرق وجهه الشاحب بالسعادة : « أنت هنا أيضا؟ » ثم أشار إلى الناس الذين حوله وقال بنغمة حزينة « أنظرما يحدث هنا ؟ لقد دمر الألمان كل شيء وأخذوا معهم مراكب الصيد والزوارق البخارية حتى استحال عليهم أن يذهبوا لصيـــد السمك — إنهم يموتون جوعا » .

وفكر أكيموف لحظة ثم قال « يمكننى أن أطعم مائتين منهم كبداية — إن مطبخنا يعمل الآن » .

وأبرق وجه ليتياجين وقال كلمات قليلة للنرويجيين . الذين اختفوا فورا فى الكهف لينادوا على النساء والأطفال . وظهر الجميع بعد لحظات واتجهوا خلف ماتيوخين إلى المطبخ . ولاحظ أكيموف مسرورا أن الرجال لم يذهبوا مع النساء بل بقوا حيث هم .

وقال : « دعهم يذهبون أيضا » ثم ضحك وأضاف « إنهم يقولون أن المسيح قد أطعم فرقة بأكملها بخمسة أرغفة . وإن ظروفى أحسن منه . فإن عندى تموين أكبر فقد حاربنا يومين ولم نتذوق شيئا تقريبا » . وغيمت سحابة على وجهه عندما أضاف بعد تفكير : « وإلى جانب ذلك فلم يعد هناك عدد كبير فى الكتيبة الآن »

وتبع النرويجيين أكيموف وليتياجين إلى المطبخ . وكان ديريابين الطباخ الذى كان يعمل على المدفع خلال المعركة ، وهو رجل سمين رقيق

القلب وعليه مظهر طباخي السفن . قد أخذ معه ماتيوخين ليساعده في تجميع أواني الميس من البحارة النائمين ، ليقدم فيها للنساء والأطفال عصيدة ذرة بسيطة ولكنها سميكة ومشبعة . وعندما رأى قائد الكتيبة سأله : « ما رأيك بالنسبة للخبز يارفيق القائد ؟ » . . فأجاب أكيموف « أعطهم بعضا منه »

وقد أسعد أكيموف كثيرا لقاء ليتياجين . وكان ضابط الاستطلاع كتوما ولكنه كان يعرف كل المعلومات عن شمال النرويج . وكان يتكلم لغتهم بطلاقة . ويبدو عليه كأنه يشعر بأنه في وطنــــه بينهم . وكان النرويجيون يعاملونه بطريقة خاصة مليئة بالحب وتبدو عليهم الثقة فيه . وكان الكثير منهم يعرفونه منذ أن كان يعمل معهم خلف الخطوط الألمانية وقد غيروا اسمه إلى « ليتجيجر » وهي تعني « قناص الأسطول » وهي توضح فكرتهم عنه .

وسأله أكيموف « أين تتناول طعامك ؟ »

وكان جوابه بابتسامة : « في أي مكان » .

« أو ربما لا تتناول على الإطلاق ؟ تعال وتناول طعامك معي »

وقال ليتياجـــين : « شكرا » ثم استدار وقال : « ها هو القائد قادم » .

وصل القائد وهو كولونيل ذو شعر أشيب مع ملازم أول .

وتأمل النرويجيــين وهم يأكلون ثم سأل أكيموف . « هل أنت القائد هنا ؟ »

« نعم » .

قال : « لقد عملت خيرا بإطعامهم »

وأضاف مقدما الملازم أول : « ليجينوف ، مترجم »

وكان ليجينوف صغير السن ويرتدى نظارة سميكة الحافة ووجهه وسيم ممتلىء بالحياة . وتأمل الكولونيل النرويجيين من جديد كأنه لم ير من قبل أناساً يأكلون ثم أعطى الأوامر لكل وحدات الجيش فى القرية وحولها لتطعم الجماهير المحيطة بها إلى أن يأتى تموين جديد ويوضع نظام ثابت .

ولم يلبث ليجينوف أن أحضر معه العمدة وهو رجل طويل أشقر مثل كل النرويجيين الآخرين ولكن كان يبدو خائفاً . وكان مختبئا فى الأنقاض ولا يعرف شيئا مما يدور فى الكركينز والأراضى المحيطة . وقد تمكن لوجينوف من أن يجده بعد بحث طويل وبشىء من الهيبة عين ممثلا مدنيا لسلطة الحلفاء .

واقترح ليتياجين أن يمر العمدة مع القائد ليروا الجماهير التى تعيش فى المناجم وتمتم كأنه يحاول أن يبرر اهتمامه بهم : «إنهم شعب رائع هؤلاء النرويز لقد ساعدونى مرات عديدة »

وبعد أن تأمل أكيموف من جديد الأطفال المرتعشين والنساء الشاحبات والآباء اليائسين قال متنهدا : « يجب أن نسلمهم المنازل ، على كل » ثم أضاف وكأنه يعتذر عن أنه كان رقيق القلب : « إن على رجالنا أن يعيشوا من جديد فى الكهوف والخنادق . فلا مفر من ذلك »

واعترض الكولونيل بخشونة : « إن رجالنا يحتاجون للراحة فهم آدميون أيضا » وبعد لحظة رفع يديه وظهر على وجهه الجاف تعبير يائس وقال بصوت يدل على الألم : « أظن أنك على حق ياماجور . إنه من الغلظة ومما يتنافى مع العدل أن نترك الأطفال هنا . نعم ياليجونوف أكتب أمرا بإخلاء كل المساكن السليمة . وهذا هو الوضع السليم » .

وأخبر ليجينوف العمدة فورا بقرار القائد وتغلب العمدة على تحفظه بدرجة أظهرت ارتياحه المشوب بالاستغراب .

وعاد أكيموف الى كتيبته . وكان رجاله الذين أسكنهم فى المنازل وفى المبنى حيث كانت توجد الحمامات يرقدون فى أعجب الأوضاع . وهم غارقون فى النوم ويتنفسون بعمق ، وأخذت رجل الحراسة سنة من النوم نهارا بجوار موقد حديدى ساخن . ولم يحس سوى بوجوروف بقدوم قائد الكتيبة . ففتح عينيه ونهض قليلا وقال بلهجة تأنيب : « يجب أن ترقد يا رفيق القائد وتنام » .

وقال أكيموف سارحا : « سأنام فورا » .

وأشار بوجوروف إلى صديرية البحرية وقال مبتسما : « انها أول مرة أخلع فيها ملابسى منـــذ حوالى سنتين ونصف فأشعر بالراحة التامة » .

واحمر وجه أكيموف واستدار وقال متسائلا : « هل تريد سريرا من الريش وزجاجة ماء ساخن ؟ » ثم هز الجندى النوبتجى وقال له : « أيقظ الجميع » .

وصاح الجندى النوبتجى : « نهوض » . وقفز الجميع وأسرعوا يرتدون ثيابهم .

وشرح لهم أكيموف فى كلمات قليلة لماذا أيقظهم ثم أشعل لفافة تبغ وأراد أن يخرج ولكنه لم يقدر . وتمهل قليلا . ونظر بحذر إلى وجوه رجاله الذين كانوا يرتدون معاطفهم ويلفون ملاءاتهم دون أن ينبسوا بكلمة . لقد كان يحاول أن يجد أية علامة سخط . ولكنه لاحظ مما أسعده أنه لا توجد أية بادرة ولو صغيرة تدل على الغضب أو الميل للتذمر . ومما لاشك فيه أن الرجال قد تلقوا الأوامر كشىء طبيعى تماما .

وكان المبنى الوحيد الذى تركه أكيموف لكتيبته هو المكان الذى كانت به الحمامات فى الماضى . وهناك كان يوجد المطبخ وصالة الطعام . ومكان يشبه النادى ومكتب الكتيبة . وأخلى المنازل وسلمها للنساء والأطفال وعجائز الرجال .

وقال أكيموف وهو يتلفت بإيمائة ساخرة فى الخندق الذى انتقل فيه مع ضباطه : « ان هذا هو المكان المناسب لنا . رتب كل شىء يا متيوخين » .

واعد ديريابين للضباط سمكا مقليا وقال مبتسما : « انه طازج تماما . فقد اصطدته فورا » .

وأكلوا واضطجعوا ليناموا وسيطر السكون لأن البحارة قد ناموا أيضا . كلهم عدا ماتيوخين الذى خرج وعاد ومعه منضدة صغيرة وقليل من الكراسى ومصباح فحم ووعاء غسيل . وقطعة باهتة من سجادة سلم فرشها فى المدخل . ولم يلبث الخندق أن بدا كحجرة طعام منظمة فى الخطوط الأمامية وابتسم المراسلة بارتياح وكان على وشك أن ينام أخيرا عندما وصل المترجم ومعه نرويجى عجوز .

وقال ما تيوخين لهم محذرا بغضب : « شش . ان القائد نائم ولم ينم منذ أسبوع »

وقال ليجينوف فى لهجة اعتذار : « انه أمر ضرورى . انى أريده . أريده مخلصا »

وقد ظهر أن النرويجى هو قس الإقليم وقد جاء ليستأذن فى إقامة الشعائر الدينية فى مبنى الحمامات وهو المكان الوحيد فى القرية الذى يتسع لذلك .

حك اكيموف جبهته ونظر إلى ليجينوف والنرويجى نظرة نائمة . ولم يفهم أين هو أو المطلوب منه . وفهم الموضوع أخيرا وقال : «طبعا نحن فى النرويج وأنت تريد إقامة الشعائر » .

وعندما سمع ذلك مارتينوف فتح عينيه وقفز وقال بغيظ ؟ لا يمكن أن نوافق على ذلك اقدقمت بتزيين المكان بالرسوم والشعارات وهل تتصور الطقوس الدينية مع صور قادة الحزب والحكومة خلفها؟»

وضحك أكيموف . وكان مما يسلى أن ترى النظرات الذابلة التى يوجهها مار تينوف إلى القس المصلح الذى أنزوى فى ركن الخندق مرتبكا .

وقال مارتينوف غاضبا : « ليس هناك مايضحك فى هذا : « لايمكن أن أسمح بطقوس دينية تقدم فى نادى الأسطول الأحمر » .

واستمر نقاش قصير حول الموضوع وشرح ما تيوجين فكرته فى أنه يجب « أن نتركهم يواصلون صلاتهم فالحزب لا يمنع أحدا من أن يصلى ولكنه يمنع إهانة الشعب »

وقال أكيموف ضاحكا: « ان صوت الجماهير من صوت الله» .
وفى خلال ساعة بدأ النرويجيون يتجمعون فى النادى . واتخذوا اماكنهم بطريقة منظمة على المقاعد وكتب الصلاة فى أيديهم . ولأن

المقاعد كانت قليلة فقد ظل الكثيرون منهم واقفين . ودخل القس فى ثوبه الطويل الفضفاض . وكان وجهه الضامر الذى لوحه جو البحر والذى يشبه وجوه الصيادين يبدو عليه تعبير وقور ومكتئب قليلا كوجوه رجال الدين فى كل بلاد العالم عندما يقومون بشعائرهم الدينية . وفكر أكيموف فى أنه يشبه تماما الأب فاسيلى باباكوفروف . وقد تذكر طفولته .

وجلس ليجينوف ليستمع إليه ثم أخبر أكيموف بعد ذلك ان أى محاضر سياسى ما كان يمكنه أن يقوم بأحسن من ذلك . فقد شكر القسيس القوات السوفيتية وقيادة الجيش السوفيتى وحض الناس فى موعظته على التعاون معهم والصلاة من أجل تحرير كل النرويج والهزيمة النهائية لجيوش الألمان الكفرة . ثم انشد المصلون ترنيمة وعلق مارتينوف : « لا بأس » ثم أضاف « ولكنى لا أفهم سبب إدخاله الله فى هذا الموضوع » .

وبعد الصلاة توجه القس ومعه العمدة واثنان من النرويجيين ويبدو أنهم من ذوى النفوذ فى القرية الى أكيموف وشكروه على سماحه لهم بأن يقيموا صلاتهم وعلى عطفه على الجماهير .

وقال المترجم بالروسية مقدما الحاضرين : « أولسين . ناظر المدرسة، وفيكولا مزارع غنى وهو وغد دنىء كان متعاونا مع الألمان . يتاجر بالجملة فى سمك الحوت والسلامون ويملك كل متاجر الاقليم » .

وكان صوته رزيناً عالياً وحاول أكيموف بكل عزيمته أن يمنع نفسه من الضحك فى وجه فيكولا المتعجرف والقلق للغاية والذى لم تكن تتحرك فيه غير العينين المراوغتين الصغيرتين .

ولم يكن أكيموف دبلوماسياً بأى حال وقد رفض أن يصافح الرجل ولم يتبادل معه غير إيماءة من الرأس ثم وجه نظره إلى عينى فيكولا وارتجفت جفنا التاجر بعصبية .

وسأل أكيموف : « هل تمتلىء بطنك بالأرباح أيها العجوز ذو الكرش ؟ » وابتسم ليجينوف قليلا ثم ترجم بسرعة « ماذا يمكن أن أفعله لكم ؟ » .

وتكلم النرويجيون كل بدوره . فتكلم العمدة فى البداية ثم القسيس ثم الناظر وأخيراً فيكولا وتكلم أكثر من الآخرين . وكان صوته هادئا ولكن عينيه ظلتا تتجولان بخبث .

وترجم ليجينوف كلامه فقال «إنه يرحب من كل قلبه بالقوات الروسية المنتصرة . وأن شعب كركينز مسرور لقرب انتهاء الحرب وأنه سينفذ أوامر جلالة الملك هاكون والحكومة النرويجية فى لندن وقيادة القوات المسلحة السوفيتية » . وقال بجرأة « أنه سعيد لتحرره من ظلم الغزاة أكبر الأنذال » .

ومن الصعب أن نقول هل فهم فيكولا ما قاله المترجم . ولكنه

على الأرجح قد قرأ فى عينى أكيموف شعور ابن وحفيد النساج نحو المستغلين الكولاك . وعلى كل فقد انحى إلى أسفل وباحترام عندا انصرافه محاولا أن لا تلتقى عيناه بعينى الضباط السوفييت .

وقاد أكيموف وليجينوف النرويجيين خارج الخندق . ولاحظا أن القرية قد ارتفعت روحها المعنوية بشكل واضح . وكان الرجال والنساء مع الأطفال وهو يدفعون العجلات أو يحملون صناديق السفر عائدين من مأواهم فى الغابات أو الفجوات فى الهضبة . وابتسم أكيموف عندما رأى الفتيات الصغيرات وقد ارتدين ملابس أنيقة نسبيا وقبعات مشغولة تزينها خصلات من الريش وهن ممسكات بأيدى أمهاتهن أو آبائهن أو ممسكات بمقعد الدراجة . وكن يسرعن تقريبا ليسايرن خطوات آبائهن الواسعة وليتفحصن الروس الى ان يغبن عن الأنظار .

وعندما راى أكيموف اللهيب الأزرق لاكوام الفحم المشتعلة نحو الشمال استدار نحو ليجينوف وسأله « لماذا لا يطفئون الفحم ؟ من المؤسف أن نراه يحترق بينما لا يجد الناس ما يدفئون به منازلهم » .

وقال ليجينوف كلمات قليلة الى العمدة الذى قال بعد فترة صمت وتفكير وجيزه « ديت ايرايك فارت »

وترجمها لوجينوف : « أنه ليس ملكنا » ثم ضحك ضحكة لطيفة مجلجلة وشرح ان الفحم ملك الهيئة الحاكمة فى المدينة . وانهى كلامه

بقوله علينا ان نستخدم جنودنا لإنقاذه لهم

وانصرف النرويجيون وكان ليجينوف على وشك الانصراف عندما دخل رجل عجوز إلى خندق أكيموف مباشرة. وعنــدما رأى قائد الكتيبة، توقف على مسافة قريبة وحملق فيه. ويبدو أنه كان يقنع نفسه بشيء ما — لا يعرفه غيره — واقترب ورفع قبعته مظهرا شعرا أشيب انحدر فورا فوق جبهتـه العالية وتكلم بصوت رزين رتيب حزين وقد تثبتت عيناه اللامعتان على بقعة بين أكيموف وليجينوف.

وأحمر وجه المترجم عندما كان الصياد العجوز يتكلم ثم ترجم: «يبدو أن رجالنا قد سرقوا قاربه البخاري. انه صياد اسمه كيربيدرسين» فقد قال «إنى تمكنت من إخفائه عن أعين الألمان ولكن الروس أثبتوا أنهم أبرع منى فقد وجدوه، إنها لفضيحة، وهو أمر مشين. مشين تماما..».

واشتعل وجه أكيموف غضبا وقال: «لا تتعجل بالفضائح والعمل المشين هلا تعرف أن هناك حربا؟ وأن مدنا بأكملها تحترق. فما السبب فى احمرارك خجلا كأى فتاه لأن قاربا قد فقد. هل تظن أن أمراً خطيرا قد حدث وأن فى ذلك نهاية العالم. أو أن ذلك سيفضحنا أمام الانسانية بأكملها»، ولكن مظهر الرجل العجوز الذى ظل صامتا بلا حراك وقبعته فى يده قطعت حبل تفكيره وقال بلهجة حادة: «أخبره

أننا سننظر فى الأمر ».

وعندما انصرف ليجينوف وبيدرسين العجوز دخن أكيموف قليلا وغرق فى أفكاره ثم ذهب إلى الخنادق حيث توجد الفصائل .

وكان الجنود لا يزالون نائمين فلماذا يوقظهم من أجل قارب قديم لايفيد أى إنسان وظل هناك دقيقة وهو ينظر متسائلا ليوجوروف الذى كان نائما بحذائه ومعطفه . ثم استدار لينصرف . ولكنه توقف وقال للجندى النوبتجى « أيقظهم »

وعندما استيقظوا سأل أكيموف : « من أخذ القارب »

ولم يجب أى إنسان لمدة دقيقة . وأخيرا تقدم للأمام الصف ضابط الممتاز تيلياكوف وسأل ببرود : « عن أى قارب تتكلم يارفيق القائد ؟ » « لقد أخذت قارباً » .

ولم يصدق أكيموف أذنيه وسأله : « لماذا ؟ »

وبعد فترة قصيرة من الارتباك أجاب تيلياكوف : « للذهاب للصيد » .

« الصيد ؟ لمـــاذا ؟ » .

وأجاب تيلياكوف فى صوت خفيض . « لك يارفيق القائد »

وشحب وجه أكيموف : « لى ؟ هل تظن ذلك ياصف ضابط ؟ ايه »

هل أنت آسف من أجلي ؟ ولتسعدني سخرت بنفسك وبي أمام كل إنسان ؟ أين القارب ؟ » .

« لقد أعدته حيث وجدته . »

وقال أكيموف للبحارة « استريحوا . انصرفوا . »

واختفى الجميع بارتياح في خنادقهم وظل تيليا كوف وحده مع قائد الكتيبة .

وأمره أكيموف : « أرني المكان » .

وتقدم تيليا كوف أولا . وبعد أن ساروا مسافة طويلة وصلوا إلى برزخ صغير ناحية اليمن . وتقدم تيليا كوف على الشاطىء بلا تردد . وبعد أن توقف قليلا ليفكر نزل إلى حافة الماء وهناك كان القارب موجودا في فتحة بين الصخور .

وسأل أكيموف : من أين أخذته ؟ « هل من هنا ؟ » .

« نعم . أظن أنه كان هنا . »

ونظر أكيموف حوله . وعلى بعد ثلاثمائة خطوة أمكنه أن يرى خيمة صياد . واقترب منها فوجد شباكا منشورة لتجف على السور . وتخطى السور ودق الباب الذي انفتح مباشرة وأجابت فتـــاة ببضع كلمات نرويجية .

فسألها أكيموف : « بيدرسين ؟ »

وأجابت الفتاة : « جا » وفهم أكيموف معنى الكلمة من الألمانية .

وأصر على السؤال من جديد : « كير بيدرسين ؟ »

وأجابت الفتاة بصوت غريب أدهش أكيموف لمشابهته لطريقة جنوب روسيا فى الكلام « دين جامل مان أيريوت أى سيجون » *

وحك أكيموف أذنه وقال : « الرجل جامل . من هو ؟ إن علينا أن نرسل فى استدعاء المترجم » .

وشرح له تيلياكوف بابتسامة مبهمة : « إنهــا تعنى بالنرويجية (الرجل العجوز) » .

وقال أكيموف بلهجة غاضبة وفيها استهزاء « أنت تعرف النرويجية . أليس كذلك ؟ بارع . ألست كذلك ؟ ولكنك كنت ستكون أبرع لو لم تأخذ قارب الرجل جامل » .

وأومأ إلى الفتاة وقادها إلى الصخور حيث يرسو القارب . وقد خافت فى البداية ولكن عندما رأت القارب هللت بسعادة .

واستدار أكيموف نحو تيلياكوف وقال « فى المرة القــادمة إذا

---

* وترجمتها أن الرجل العجوز قد خرج إلى البحر .

أردت أن تستعير شيئاً فاطلبه من المالك ورده له شخصياً . أواضح ذلك ؟ » .

« نعم » .

« سنرى إذا كنت ستفعل هذا » .

وعادوا إلى أرض المعسكر . ولم ينبس أكيموف بكلمة لفترة طويلة . ثم استدار نحو تيليا كوف وقال :

« إنك ستضعنا فى مشاكل دولية . وعلى مولوتوف أن يكتب ويعطى توضيحات ، ومن أجل خطأ من ؟ كل ذلك لخطأ الصف ضابط إيليا تيليا كوف المولود سنة ١٩٢٠ وعضو منظمة الشباب الشيوعى . مظهر سىء . يا تيليا كوف . أغرب عنى » .

ولم يكن أكيموف منصفاً تماما فى توبيخه لتليا كوف . فهو لا يمكن أن يلومه من قرارة نفسه ، وقد أخذ القارب طبعاً ، ولكنه أرجعه بعد ذلك حيث وجده تماماً . وكان لا يمكنه أن يسحبه حتى كوخ الرجل.

واتضح السر بعد ذلك بقليل . فقد كان أكيموف يتناول غذاءه مع ضباطه عندما دخل ليتياجين ودعى ليشاركهم الغذاء ، ثم دخل بيدرسين العجوز مسرعا فى الخندق .

وكان فى حالة من الغبطة والفرح الشـــامل . وعيناه اللتان كانتا

لا تتحركان من قبل حزناً ويشع منهما التأنيب قد تجعدتا بطريقة مضحكة وتلألأتا بالسعادة . وكان موقفه من أكيموف والضباط الآخرين موقفاً ودياً وفيه فوق ذلك نوع من الملاطفة الأبوية . وكان يعاملهم كأنهم شباب عادى ، أصدقاء له ، رغم أنهم يرتدون زى بلد آخر . وقد هز هذا الإعلان غير المنتظر عن العرفان العميق بالجميل المشوب بالخضوع أكيموف وأطربه كثيراً .

وطلب من ليتياجين أن يسأله عن القارب. واتضح أن أرض الخليج مقسمة إلى أجزاء صغيرة لكل منها مالك . وقد أخذ تيليا كوف القارب من قطعة صغيرة يملكها الصياد العجوز وتركها بجوار أرض رجل آخر . وقد وضح بيدرسين أنه ليس له الحق أن يذهب فى البحث عن قاربه فى أرض شخص آخر وأن كل مالك لا يسمح لأى شخص بالدخول فى ملكه .

وقال ليتياجين « نعم . هذا هو الوضع هنا » .

والأرض ، حتى على الجزر ، مقسمة إلى ملكيات ضئيلة والكثير منها عليه لافتة مكتوب عليها ادجانج فوربيدت — وهى تعنى « ممنوع الدخول » ولكل مالك ممره الخاص الذى يؤدى إلى قطعة أرضه الصغيرة البائسة حيث يسكن محاطاً بشجيرات بتولا ضامرة وخطوط قليلة من الكرنب الصغير وسلخة من أرض الحشائش الهزيلة . وتحيط بكل ذلك أرض بلا أصحاب وهى مساحات قاحلة من الهضبة حيث تنطلق صغار الرنة ترعى طوال الصيف .

ودعا الضباط الصياد العجوز لتناول الغذاء معهم . وقد أظهر شهية لتذوق كل شيء بما فى ذلك خبز الشعير الأسود . الذى تنطلق عليه إشاعة بين النرويجيين بأنه مخبوز فى الزبد . وقد صاح أكيموف متعجباً عندما سمع بالنبأ « حسناً . حسناً . كم تبالغ تصورات الجماهير . . »

وقد أيد قوله الرجل العجوز الذى سأله بحذر هل سيبقى الروس حقيقة إلى الأبد . ويهزمون كل النرويج ويستولون على كل الزوارق والأرض والغابات والبهائم وكذلك النساء . ثم سأل بغمزة لئيمة من عينه الزرقاء الباهتة « طبعا الصغيرات منهن . أظن ذلك ؟ »

وقال ليدياجين بصوت حزين بعد حديث طويل غاضب مع الرجل العجوز: « كل هذه تلفيقات مغرضة . وهى من ادعاءات فيكولا وأشباهه . » ثم نظر نحو مارتينوف الذى أثاره الحديث وحذره : « ولكن هذا لا يدخل فى اختصاصنا يارفيق البكباشى . إن هذا من اختصاص الحكومة النرويجية . وهذا ما تنص عليه التعليمات الواردة من موسكو »

ولم يلبث الرجل العجوز أن أنهى طعامه وانصرف . ولم يلبث أن نهض ليدياجين كذلك فقدحضر رجال الاستطلاع لينادوه .

وسأله أكيموف « هل ستذهب بعيدا ؟ »

« سأعود فى مدى يومين . »

« فلتحضر إلينا فورا عند ذلك »

«حمدا وشكرا . إن عندك رفاقا رائعين هنا . »

وودعه أكيموف . .

وقال ليتياجين : «إلى اللقاء يا أكيموف » وكان رجال الاستطلاع ينتظرونه فى الظلام المخيم فى الخارج .

« أتمنى لك حظا سعيدا »

وكان ليتياجين على وشك أن يرحل ولكنه عاد فجأة وقال لأكيموف «إنك تتذكر باديكين أليس كذلك ؟ »

« نعم . . ؟ »

«طبعا . فقد كنت على سفينته . لقد غرقت مطاردته الصغيرة وهى تنزل فرقة هجومية وجرح جرحا خطيرا . . »

وقال أكيموف : « هل جرح حقا ؟ »

واختفى ضابط الإستطلاع ورجاله خلف انحناءة فى الطريق . وشعر أكيموف فجأة بملل يسيطر عليه ، يشبه المرض . وكان كل ما يطلبه هو أن يرقد وينام بأسرع ما يمكن . لا لساعة واحدة فقط ولكن لمدة طويلة . بحيث ينسى أشياء كثيرة عندما يستيقظ ومنها الهزيم الذى لاينقطع والذى لازال يرن فى أذنه . وعندما مر بجوار المنازل ، لاحظ

أن النرويجيين قد استقروا فيها فعلا . وكانت الأبواب تفتح وتغلق كلما أعاد الناس حاجياتهم ومنقولاتهم التي كانت مخبأة أو مدفونة .

وتمتم « حسنا . هذا رائع »

وسمع الملازم ليفينتسوف الضابط النوبتجي لكتيبته يناديه .

« إشارة لاسلكية »

« هل معك ضوء ؟ »

وأضاء الملازم بطاريته :

وقرأ أكيموف الإشارة وقال : « أهذا كل فى الأمر » ثم دخل الخندق وكان الملازم كوزلوفسكى نائما وهو جالس وفى يده قيثارته . وكان ماتيوخين راقداً فى الركن . وعندما سمع قائد الكتيبة يدخل ، قفز وابتسم ابتسامة رضى . وأومأ إيماءة كبيرة ليشير إلى ماجمعه ليؤثث الخندق . والسجاجيد التى تغطى الجدران . وسأل : «حسنايارفيق القائد إن ذلك فى مثل جودة ماكان يقوم به مايبورودا . أليس كذلك ؟ » .

وأجاب أكيموف : « أظن ذلك » ولم يعرها مجرد نظرة . وأخرج خريطته وبدأ يدرس الطريق الذى ذكر فى الإشارة اللاسلكية . إنه طريق خلال التندورا إلى تانيليف وهو نهر طويل يصب فى خليج تانا . وليس عليه أى مدينة أو قرية .

ولاحظ ماتيوخين أن قائد الكتيبه قد تنهد ولف أوراقه باستسلام وبدأ يجمع حاجياته وسأل أكيموف : « أين مارتينوف ؟ .

وقيل له أن مارتينوف قد ذهب إلى الفصائل ليتأكد من أن الجنود نائمون .

وصاح غاضبا : « نائمون . . لقد نالوا قسطا كبيرا من النوم » .

وقذف ببعض السباب . ودون أن يلتفت حوله ، صاح في ليفينتسوف الذى يقف بالباب ليأمر بالتجمع .

ووقف أ كيموف بلا حراك وأذناه مرهفتان مع صوت خطوات ليفنتسوف وهى تختفى . وكان كوزلوفسكى يغط فى النوم بسلام . وقد كره أن يوقظه . واستمر الصمت دقائق قليـــلة أخرى ثم ترددت الصيحات ودبيب الأقدام ورنين السلاح فى كل مكان . وظل أ كيموف مكانه خمس دقائق أخرى . وسمع أخيرا الصوت ينادى عليهم بالتجمع . ودخل مارتينوف بنفس انتصاب قامته وأناقته وهندامه كالعـادة . ودون أن ينبس بكلمة توجه ناحية المنضدة ثم قرأ الإشارة وجلس . ودخل كوزولوفسكى وهو يرتعش من البرد بعد أن أوقظ وألقى بقيثارته جانبا .

وأنصت أ كيموف بانتباه لبرهة ثم خرج .

وأمر ليفينتسوف : « انتباه » ثم أعلن بصوته الشاب القوى ، المرتفع ، النشيط فى الظلام ، إن الكتيبة قد تجمعت حسب الأوامر . وسار قائد الكتيبة بمحاذاة الصفوف . وقد اتجهت أعين رجاله التى

يعرفها تماما نحو وجهه فى هدوء وثقة . وقد بعث فيه مظهرهم شجاعة وفرحا غامرا .

— ٣ —

وأحاطت أضواء الشفق الضعيفة بالكتيبة من كل ناحية . وكانت أضواء الشمال الباهتة تبدو معلقة فى صمت فوق الرؤوس ، والطيور تتصايح بين الصخور .

طردت الرياح التى كانت تلفح وجوه الجنود النوم عن أعينهم . وأيقظت صيحات الطيور العميقة والجو الغريب شعورا غريبا بالخطر فى نفوس البحارة ، وفى دقائق لم يعد الجمع يرى غير خيال قائد الكتيبة الضخم وهو يسير أمامهم يتبختر فى مشيته وينظر خلفه بين الحين والآخر بحيث يرى وجهه العريض الذى يدل على الهدوء والاستخفاف وكان أحيانا يتكلم فيبتسم الرجال حوله . ثم يبتسم أولئك الذين فى المؤخرة رغم أنهم لم يسمعوا شيئا .

وتمتم يوجوروف موافقا : « هذا هو الواقع » .

وقد أمرت الإشارة الكتيبة أن تضع نفسها مؤقتا تحت إمرة قائد فرقة حملة البنادق التى سيقابلون ممثلها عند تقاطع الطرق جنوبى كركينز بجوار بعض المنازل التى لازالت قائمة . وعندما وصل البحارة ، لم

يجدوا مع ذلك أحدا هناك . وعين أكيموف حراسه وأمر الجنود بأن يريحوا أنفسهم فى المنازل أثناء فترة انتظارهم . ثم أرسل رجلين ليحضرا فصيلة مينيفتس بينما دق هو ومارتينوف وماتيوخين باب المنزل الأول الذى كان يرفرف بجانبه العلم النرويجى .

وكان البيت الصغير ممتلئا بالرجال والنساء والأطفال النرويجيين وبعضهم يرقد على مراتب والبعض يجلس على كراسى والآخرون على الأرض بجوار الجدران وكان البيت أشبه بخان لمبيت القوافل .. وعندما دخل أكيموف تركزت عليه أعين الأطفال من كل اتجاه .. ووقف مرتبكا . وقد قرر فى نفسه ألا أمل فى أن يجد مكانا حيث لا مكان للموجودين بصورة واضحة . ولكن رجلا طويلا رفيعا ذا وجنات مجعدة نهض من فوق المنضدة واتجه نحوه وهو يرمش فى انفعال وبدأ يتكلم وكانت أعين الأطفال تبدو لامعة فى كل أركان الحجرة . بينما ابتسم النساء وقبع الرجال فى وقار .

ولم يلبث أن وضعت ثلاثة كراسى لأكيموف ومرافقيه بجوار منضدة كبيرة يشتعل عليها مصباح كربونى . وانطلق رب المنزل فى الكلام ورغم أن الروس ما كان ليمكنهم أن يفهموه كما يعرف هو جيدا . إلا أن تعبير وجهه كان معبرا فى إشراقه بحيث أن أكيموف ومارتينوف وماتيوخين ابتسموا هم أيضا وأحسوا بحرج موقفهم ولكن غمرهم السرور .

حالة الشيوعيين مؤلمة هناك . وكيف استعبد ملاك مصانع الدفارنجر كل الاقليم وكأنه ملك خاص لهم وكيف تحكمت النقابات الصفراء فى المصانع وقد أخذ وهو عامل المنجم البسيط عددا من العائلات معه من الذين أحرقت منازلهم ولأنه كان شيوعيا فقد وجب عليـــه أن يساعد ضحايا الكارثة ولكن لم يعم شعور الترابط بين الجميع فى النرويج . فقد بقيت عائلات كثيرة تعيش بلا مأوى فى الطرقات .

وأنصت مارتينوف باهتمام وهو يهز رأسه . وقد أدرك ان الاشياء التى يتكلم عنها مضيفهم هامة جدا وقد ثار على نفسه لأنه لا يمكنه أن يفهم مضيفه . وهمس لأكيموف : «صدقنى ، يجب ان نتعلم النرويجية»

وأدارت احدى النساء الجراموفون . وربما كانوا يريدون أن يقوموا برقصة جماعية . ولكن فى تلك اللحظة انفتح البـاب لجأة واندفع منه كولونيل طويل يرتدى قبعة من الفرو الاستراخان ومعطف جلدى . وقد صرت أخشاب الأرض تحت وزنه الثقيل . وكان هو ممثل فرقة البنادق الذى ينتظره أكيموف . ونظر حوله متعجبا الى التجمع المختلف الألوان ولكنه لم يقل شيئا . ثم اتجه نحو أكيموف وقال له كلمة السر بنشاط « تعال » .

وكانت فى عينيه نظره قلقة . وتبعه أكيموف مباشرة نحو الباب . ولكنه تسمر هناك فقـــد ضربت الاسطوانة التى وضعت على وتر فى

وأخذ رب البيت البطاقة الصغيرة بعناية وأراها لزوجته وأطفاله وكل شخص فى المنزل ثم أعادها لمارتينوف . وعندما أخذها مارتينوف احتضنه عامل المنجم على غير انتظار ثم احتضن أكيموف وذهب إلى ماتيوخين مترددا ولكنه توقف وسأل : « شيوعى ؟ » .

وقال ماتيوخين وهو يهز رأسه بارتباك « لا ، اننى غير حزبى » .

وقد اندهش عامل المنجم فقد كان يظن ان كل من فى روسيا شيوعى . ولكن أكيموف انفجر ضاحكا ودفعه نحو ماتيوخين . وضحك النرويجى بدوره واحتضن ماتيوخين أيضا .

وجرت فتاة أسمها انجريد كما أخبرت الروس ، وهى تنحنى الى الغرفة المجاورة وعادت ومعها بعض كعك الطعام يسمى كنيكيبرود ، يأكله الناس هناك بدل الخبز . وبعد تفكير طويل أخرج ماتيوخين من حقيبة معداته زجاجة كان يدخرها . وظهرت الأكواب على المنضدة ووضعت فيها قطرات من الزجاجة . ونهض الجميع . ووضع النرويجيون الأكواب على قلوبهم ، وأعينهم مثبتة على الروس وقالوا « سكال » ثم بدأوا يرتشفون ببطء . وقال الروس « نازدوروفى » ثم شربوا دفعة واحدة .

وكان رب البيت يتكلم أحيانا ويبتسم أحيانا أخرى ويقبض كلتا يديه فى يأس عندما يجد ان أحدا لا يفهمه . وقد أخبرهم كيف كانت

حالة الشيوعيين مؤلمة هناك . وكيف استعبد ملاك مصانع الدفار تجر كل الاقليم وكأنه ملك خاص لهم وكيف تحكمت النقابات الصفراء فى المصانع وقد أخذ وهو عامل المنجم البسيط عددا من العائلات معه من الذين أحرقت منازلهم ولأنه كان شيوعيا فقد وجب عليـــه أن يساعد ضحايا الكارثة ولـكن لم يعم شعور الترابط بين الجميع فى النرويج . فقد بقيت عائلات كثيرة تعيش بلا مأوى فى الطرقات .

وأنصت مارتينوف باهتمام وهو يهز رأسه . وقد أدرك ان الاشياء التى يتكلم عنها مضيفهم هامة جدا وقد ثار على نفسه لأنه لا يمـكنه أن يفهم مضيفه . وهمس لأكيموف : «صدقنى ، يجب ان نتعلم النرويجية»

وأدارت احدى النساء الجراموفون . وربما كانوا يريدون أن يقوموا برقصة جماعية . ولـكن فى تلك اللحظة انفتح البـاب فجأة واندفع منه كولونيل طويل يرتدى قبعة من الفرو الاستراخان ومعطف جـلدى . وقد صرت أخشاب الأرض تحت وزنه الثقيل . وكان هو ممثـل فرقة البنادق الذى ينتظره أكيموف . ونظر حوله متعجبا الى التجمع المختلف الألوان ولـكنه لم يقل شيئا . ثم اتجه نحو أكيموف وقال له كلمة السر بنشاط « تعال » .

وكانت فى عينيه نظره قلقة . وتبعه أكيموف مباشرة نحو الباب . ولـكنه تسمر هناك فقـــد ضربت الاسطوانة التى وضعت على وتر فى

دهنه . وأكثر من هذا . فقد كانت تبدو إلى حد ما جزءا منه . وكم كانت ممتلئة بالذكريات البهية الحبيبة .

وقال « رقصة انيترا الجريح » . وبدت الكلمات وكأنها لم تخرج من شفتيه بل من شفتى أنيشكا . وتصور الخندق بوضوح وقد تزين بأغصان الصفصاف . كما تصور كل شىء صاحب هذه الموسيقى .

وامتلأت الغرفة بفرح ودهشة عندما سمعوا هذه الكلمات المألوفة تخرج من بين شفتى الضابط الروسى وصاحت كل الغرفة فجأة بتحمس : « جا ، جا ، جا »

وقال أكيموف « انتظر مجرد دقيقة » ورغم أن الكولونيل كان عديم الصبر إلا أن أكيموف لم يكن من الممكن أن يتحرك قبل أن تنتهى الأسطوانة . وتعجب كيف تعزف مقطوعة حبيبة إليه فى مثل هذه البلاد البعيدة . وعندما توقفت الموسيقى تذكر أن مؤلفها نرويجى ابن لهذه البلاد ومن المرجح أنه موضع فخر شعبه .

وترك أكيموف المنزل النرويجى الصغير أخيراً وذهب مع الكولونيل فى سيارة أركان الحرب الخضراء المنتظرة عند تقاطع الطريق . وأخرج كلا من الضابطين خرائطهم .

وقال الكولونيل « إن الموقف معقد . فقد بدأ الألمان هجوماً مضاداً فى منطقة بولماك فى التانيليف . ويرجح أنها ضربة مضادة خطيرة . فقد

شوهدت تجمعات كبيرة للأعداء على الضفة الغربية للنهر . وسأعطيك عشرة لوريات لتحمل فيها بعض رجال كتيبتك على الأقل ، ولكن لا يمكنني أن أعطيك الآن اكثر من ذلك . ويجب ان يتجه الآخرون سيراً على الأقدام . ولتبدأ العمل مباشرة » .

وأجاب أكيموف « فهمت . سنقوم بكل شيء » . وصمت لحظة ثم قال مبتسما « عندما تسمع موسيقى تعرفها فكأنك تقابل صديقاً قديماً » .

وقال الكولونيل الذى كان فكره بعيداً عن الموسيقى « إيه ماذا تقول ؟ » .

ولم يجب أكيموف ، واتجه يتبختر نحو كتيبته التى كانت قد اصطفت فى الطريق .

وصعدت الفصيلة الأولى إلى اللوريات التى كانت قد تحركت عندما قفز أكيموف على حافة اللورى الأول وصاح فى السائق القصير الملطخ بالشحم «إلى الأمام . تقدم» وانطلق الطابور فى تقدمه .

وقال أكيموف وهو يتخذ مكانه فى المقعد بجوار السائق « أضىء الأنوار الكبيرة : مم تخاف ؟ لن نسير طويلا فى هذا الطريق . ولكن علينا أن نصل سريعا فإن الألمان يبيتون سوءا »

وأسرعت اللوريات على الطريق الحجرى بين الصخور . وكان أكيموف يسمع باستمرار النغمة اللطيفة الغريبة . ولم تعد تبدو حزينة بل متحدية ساحرة ، ومهددة بالخطر نوعا ما . وأعادت لذاكرته مناظر مألوفة . فالأرض المحيطة به تبدو وقد فقدت خشونتها وأصبحت جذابة . ولم تعد تهزه صيحات الطيور وأضواء الشفق الزرقاء فوقه . ونسى للحظة الحرب تقريبا وتصور أنه يسافر خلال أماكن مشوقة مجهولة سيحكى عنها لأنيشكا قريبا . ويجب أن يحاول ألا ينسى شيئا وأن يتذكر كل التفاصيل — الصيحات المجلجلة للطيور التى تحلق فوق الصخور على طول الطريق والوجوه الممتنة للنرويجيين نساء ورجالا وأطفالا ، والعلم النرويجى الأحمر بصليبه الأزرق وهو يهتز على كل الصوارى كدليل تحرير البلاد ، وأشياء أخرى عديدة .

ولم تلبث أن دوت أصوات انفجار قنابل ، واندلعت النيران عند نقطة فى الأمام وقد أظهر ضوؤها ظل قرية وشقة من غابة ممتدة على مسافة قريبة ، وكانت هى بالضرورة الغـــابة الممتدة على طول وادى التانيليف، كما ظن أكيموف ، فقد أمكنه أن يخمن مكان حافة الصخور وهى تمتد متعرجة خلف الأشجار على طول مجرى النهر .

وكان يمكنهم أن يروا فوق هضبة على يسار الطريق أشباحا مظلمة تمسح الناحية الغربية خلال منظارات . وعند قاع الصخرة كان الرجال يجرون كرات أسلاك التليفون .

وأوقف أكيموف الصف وقفز وصعد الصخرة وقال للضباط « حسنا . ماذا يجرى هنا ؟ إننى أكيموف قادم مع وحدات بحرية ».

وتلفت الكل حولهم وكان السرور باديا عليهم ، وأشار أحدهم ، وهو رئيسهم فى الغالب إلى النار . وقال : « من هنا طريقك يارفيق أكيموف . سنعطيك فصيلة من حملة المورتر ، ثم صاح « هاى مورترز ».

وقدم ملازم المورتر وحيا أكيموف وقال « سأعطيك تقريرا عن الحالة » .

ونزل أكيموف من على الصخرة بعد حديث مع الضابط ، وصاح « سنبدأ من هنا »

ونزل البحارة من اللوريات واصطفوا على الطريق فى ثوان ، ثم بدأوا فى المسير ، وسار أكيموف وكوزلوفسكى وضابط المورتر فى المقدمة ، ونظر أكيموف من طرف عينه إلى ملازم المورتر وقال « لا تطلق مدافع المورتر دون أمر منى . فلا داعى لتحطيم منازل دون سبب »

وانفجرت بعض القنابل الألمانية على مسافة قريبة ، وقد قذفت فى الغالب من الضفة الغربية للنهر .

وقال أكيموف وقد استدار نحو كوزلوفسكى « نظم الجنود صفا واحدا ، وإلى الأمام »

وتسلق البحارة فوق الصخور التي تبرق تحت السماء المضيئة .

وسأل أكيموف ضابط المورتر : « ما اسمك ؟ »

« سليفيرستوف يارفيق الماجور »

« حسنا يارفيق سيليفيرستوف لا تطلق النار . قف بجانبي فإن علينا أن نطرد الألمان من "قرية دون أن نعطيهم الوقت لينسفوا المنازل وإذا سمحنا لك بإطلاق المورتر فإنك ستحطمها أنت نفسك . حتى لو كانت نياتك طيبة . فلا تغضب . »

وقال سيليفرستوف مرتبكا :

« إنى لست غاضباً »

وتقدموا إلى الأمام ببطء وجاء أحد العدائين ليخبرهم أن الألمان يتراجعون غير مسرعين ويشعلون النار فى المنازل . ويهرب السكان إلى الغابات . ويوجد فى البحر أسطول من المنشآت البحرية . وتطلق المدفعية نيرانها من الضفة الغربية .

وصاح أكيموف : « يجب أن تهجموا . لماذا تتباطؤون ؟ هل تنتظرون إلى أن يكملوا عملهم الحقير ويفرون ؟ »

وكان يمكنه أن يرى من فوق الصخرة الكبيرة التي تسلقها الضفة المقابلة ذات الغابات ويرى ومضات المدفعية هنا وهناك .

وتمتم لنفسه : «سأجعلكم تدفعون ثمن باديكين غاليا . سأعلمكم معنى إشعال النار فى المنازل ».

واندفع من فوق الصخرة نحو الغابة ولم يلبث أن وصل إلى الأشجار الأولى ، وكان الظلام مخيما . وأمكنه أن يرى النهر المحيط بالغابة من بين جذوع الأشجار . وعلى مسافة نحو اليسار ، عند انحناءة فى النهر كانت تقف مجموعة من الزوارق البخارية نرويجية فى الغالب . سلبت من النهر كله .

وصاح أكيموف : « إلى الأمام يابحارة » .

وسمع دوى مدافع الماكينة ومدافع التومى والبنادق على طول الضفة . ثم صيحة « هارا » .

وقال أكيموف : « ياسيليفيرستوف . لقد جاء دورك الآن . أصل هذه القوارب نارا . »

وقال سيليفيرستوف كلمات قليلة للجنود الذين يرافقونه ورفع منظاره إلى عينيه واندفعت الطلقات من بين الأشجار . وبدأت موتورات القوارب تدور . وانطلقت إلى أعلى ومضات ملونة جميلة .

وجرى أكيموف فى النهر . ومن حين وآخر كان يحتك بأشجار الموسكى . وكانت خشونة الجذوع تهزه بعنف .

وسأل رجلا يعمل على أحد المدافع : « هل أنت . تلياكوف ؟ »

« نعم يا رفيق القائد » .

« صوب نحوهم . صوب نحوهم . ماذا يفعل هــذا المدعو سليفيرستوف ؟ انه ليس نهرا سيئا . فهو جميل وبه شلالات . ولا يتجمد . فهو نهر جبلي . اتجهوا أكثر إلى اليسار على طول الشاطىء »

واتجه الرجال ببطء على طول الضفة الغربية نحو القرية ، وانفتحت نيران المورتر أخيرا مبعثرة القوارب الألمانية على النهر . وكان كل شيء ينهار ويهتز فى اضطراب وتصفر الطلقات المشئومة بين الأشجار .

« رفيق القائد . رفيق القائد . أين هو ؟ »

« لقد كان هنا فى التو »

« رفيق القائد »

ولم يسمع أى جواب . وفتش ماتيوخين بدقة بين الأشجار باحثاً عن أكيموف .

وصاح ماتيوخين وهو ينحنى فوق المــدفعجى : « تيلياكوف . تيلياكوف أجبنى »

« ماذا ؟ » .

« أين قائد الكتيبة »

وقال تيليا كوف : «أنه هناك» واستدار من على مدفعه ونظر حوله فى دهشة ولم يكن قائد الكتيبة هناك .

ورأى ماتيوخين أكيموف راقدا على حافة النهر وإحدى يديه الكبيرة وقد لوحتها الشمس تتدلى فى الماء وقد كونت أصابعه الأربعة أربعة شلالات صغيرة .

وصاح ماتيوخين كالنساء : «آ آ آه . .» .

وسمع الجميع هذه الصيحة وقد علت على صوت المدافع والموتر ، وخرير الماء وصيحات الألمان واندفعت أشباح تعدو إلى المكان . وكان أول القادمين رجال فينتسوف من اليمين ثم مارتينوف وكوزلوفسكى من اليسار والتقطوا أكيموف وحملوه إلى القرية . وحاول أحدهم أن يبعد ماتيوخين جانبا ولكنه انفجر فيه : «لاتلمسنى أتركنى وحدى . إننى لاأريد أن أعيش» .

وسمع أكيموف صياح ماتيوخين ولكنه ظنه صوت شلالات أو صياح طير ليلى . شىء صادر لامن إنسان بل من الطبيعة . وتمالك حواسه لحظة بينما كانوا يحملونه وظن أن مارتينوف وماتيوخين وشخصاً آخر يجلسون بجوار سريره ليلة بعد أخرى وأراد أن يخبرهم أنه على مايرام وأنهم يجب أن يذهبوا ليناموا لأنهم يحتاجون فعلا للنوم . وقال ذلك كما ظن . وانصرفوا . اختفوا فجأة وهو الآن ظمآن

ولا يجد من يسقيه لأنه أمرهم أن ينصرفوا جميعاً عن سريره . وتصور أنه يرقد فى مقصورته على السفينة وأنها تهتز ويتزايد اهتزازها وأن قلبه العارى يصطدم بشيء حاد ولكنه كليل فى نفس الوقت . وأصبح الاهتزاز حاداً فألقى بقلبه بقوة نحو هذا الشيء الحاد الكليل وازداد الألم وتزايد حتى أصبح من الصعب عليه أن يتحمله وفكر فى نفسه ،إنه لا يمكن أن يستمر الحال على هذه الصورة . ويجب أن يتوقف فلا يمكن أن يترك قلبه يتعذب هكذا ، فلم يكن يحس أنه قلبه هو ، وربما فكر فى هذه اللحظة فى أنيشكا ولم يكن يذكر اسمها أو يتذكر وجهها أو من هى . ولكن كانت فى رأسه بقعة من النور والسعادة اتحد فيها كل ماهو سعيد فى حياته . وكانت هذه البقعة من النور والسعادة هى التى تلف قلبه المرتعش بالألم والصراع .

وارتجف ثم هدأ جسمه .

وقال مارتينوف : «لقد انتهى » وفتح أزرار قميصه كما يفعل البحارة عند ما يبدأون الهجوم .

وحملوا قائد الكتيبة بعناية كأنه حى . فلم يكن لاحد أن يعتقد أن مثل هذا الجسم الضخم القوى ، وهذا القلب الشجاع الذى لا يهدأ ، والذى كان ممتلئا بالحياة منذ لحظات قد توقف عن العمل . وكان من العجيب أن تراه يرقد رقد بلا حراك كأنه كان يرقد دائما بهذا الوضع ولا يرغب فى أى وضع آخر . وقد حمل وراءه رجلان آخران قتلا

أيضا ،وهما بحاران صغيران إيفانوف وجوربوشكين . وكان موتهما قد مزق قلوب من يعرفونهما بالحزن والقنوط ، كما مزق قلوب من يعرفون أكيموف .

وبالقرب من مأوى الاسكيمو ، فى وسط خيمات فقيرة صنعت من جلود الرنة وشدت على أعمدة ، أمر مارتينوف بأن يستريحوا قليلا . وبدأ الثلج يتساقط فى عنف وربط الأسكيمو حيواناتهم فى الزحافات التى وضع عليها القتلى . وكان الأسكيموقوم قصار خائفون تنبعث منهم رائحة كالسمك . ولباس رأسهم قبعة عالية مدببة ذات ألوان عديدة كقبعة المهرج .

وظهرت فرقة الاستطلاع . ولم يفهم أحد من أين أتوا . واندفع ليتياجين الذى كان فى المقدمة وسأل عن مكان القائد أكيموف . وكان الرد الوحيد الذى تلقاه إيماءة نحو الزحافة وشحب لون الندبة الحمراء فى جبهته .

واستمروا فى سيرهم . وسار ليتياجين بجوار الزحافة بصعوبة لأنهم كانوا يمرون بين حين وآخر خلال الثلوج . ولكنه واصل سيره . لأنه كان يبدو له أنه من الضرورى ومن الأهمية بمكان أن ينظر إلى وجه أكيموف تحت السجادة .

وكان كوفاليفسكى قد وجد التفاح فى النهاية وأحضره إلى كركينز

حيث كان ينتظر أكيموف وكان التفاح لايزال سليما — فقد كان من النوع الأنتونوفوكاس الجديد . وعندما سمع بما حدث انزوى وبكى . وعاد والدموع تملأ عينية إلى بيشنجا إلى وحدة طيران فى الأسطول نالت وسام العلم الأحمر وكان يريد أن يكتب عنها مقالة .

وحددت السلطات النرويجية مكانا للمقابر عند سفح نجد هويبتيميون . حيث دفن الروس الذين ساقهم النازيون إلى النرويج وعذبوا حتى الموت . وأحضرت جثث الضباط والجنود من وحدات كركينز وسفها الذين قتلوا فى الأيام الأخيرة من المعركة . وثبت النرويجيون علمهم منكسا . وحضروا وهم يرتدون السواد بالزحافات أو مشيا على الأقدام فى الثلج المتساقط حديثا إلى المقابر الجديدة ، وحضرت أيضاً وحدات سوفيتية من الجيش والأسطول .

وسار ليتياجين ومارتينوف متجاورين صامتين . وكانت الأوامر الحادة تبدو كأن لها صدى غريبا كئيبا حزينا بين الصخور والهضاب . وتساقط الثلج بغزارة وعنف .

وعندما نظر ليتياجين إلى وجوه النرويجيين المتوترة ونسائهم الباكيات ، تعجب متسائلا هل أدركوا أن حوادث الأيام القليلة الماضية قد أخلت لهم مكانا فى التاريخ . وهل عرفوا أن الأسماء جارفجور بوتين واليفينز وبيجور نيفاتن وهويبتيميون والأماكن الأخرى عند حافة

أوروبا وإقليم فينمارك الذى سقته دماء الروس قد أصبحت أسماء تاريخية ولم تعد بجرد حقائق جغرافية .

وتأمل ليتياجين وجوه الجنود الجامدة وفكر فى أن وجود أى جيش أجنبي ولو حليف على أى أرض ، عبء على الجماهير . ولكن الجيش السوفيتي كان أقل الجيوش عبئا على الجماهير . ولم يراع أى جيش كبح جماح نفسه تلقائيا وكان مثلا للنزاهة والصداقة كالجيش السوفيتي .

وعندما امتلأت نفس ليتياجين بهذه الأفكار الحزينة الملهمة فى نفس الوقت . تغلب على نفسه ونظر إلى وجه أكيموف ، وكان هادئا ووسيما ، وأحس ليتياجين وكأن أكيموف سيفتح عينيه ويقول شيئا . ماذا كان يمكن أن يقول ؟ ربما قال صوته العميق المدوى ترافقه ضحكة هازئة « كفى كل هذا لماذا . تطيلون الألم . ادفنونى وانتهوا منى »

وقد دفعت هذه الفكرة السخيفة بالدموع إلى عينى ليتياجين . وضغط شفتيه سويا ونظر جانبا نحو مارتينوف الذى كان يقف هناك شاحباً كورقة بيضاء .

ودق لحن الوداع . وبكت النساء وولولن كما تفعل النساء فى كل أنحاء العالم ، وصاح صياد عجوز بالنرويجية « لن أنساك أبدا » وبكت عاليا فتاتان تتشابهان إلى حد كبير ثم انتهى كل شىء .

وعندما انصرف الجميع ظل ليتياجين ومارتينوف حوالى نصف ساعة بجوار العلامة الخشبية التى تحمل النجمة الحمراء .

وقال ليتياجين « يجب أن ننقله إلى وطنه . فمن الخير أن يدفن فى أرض الوطن » ولكن بعد أن فكر لحظة غير فكرته وقال : « لا . إن النرويجيين أناس طيبون سيحترمون الموتى وسيعتنون بالقبور وينظفون ماعليها من ثلوج »

وانتشر ضباب أبيض فوق خليج فارانجار . وتساقط الثلج كتلا ثقيلة على البحر والبر وكأنه سيغطى البحر والصخر والهضاب ، ولكن الأمواج ابتلعته . وقذفت الرياح بعيدا بالغطاء الأبيض من فوق القمم الصخرية ، ولم يبق الثلج إلا فى الأراضى المنخفضة ذات المستنقعات ، بقى كما هو عميقا لا يتأثر .

الفصل التاسع

حياة الأموات

— ١ —

وعندما أتمت أنا اليكسندروفا بيلوزيوروفا دراستها سنة ١٩٤٩ فى الكلية الطبية فى موسكو وأصبحت دكتورة . استقرت مع ابنتها فى مدينة تيولا حيث أرسلت لتعمل فى إحدى المستشفيات . وكان أحد الأسباب الكثيرة التى أسعدتها هناك هو أن أباها كان يقدم لزيارتها بسيارته كل أحد . وقد استغل المستشفى عادة الأستاذ هذه بوقاحة وقد رضى هو بذلك عن طيب خاطر . فكان يعطى استشاراته ويقوم أحيانا ببعض العمليات الخطيرة تماما .

وكان الأستاذ بيليوزيوروفا قد استسلم منذ زمن بعيد لما حدث لأنيشكا وعندما فكر فى الأمر اقتنع بأنه لو كان قد سمع من أى شخص أن ذلك قد حدث لأناس آخرين لاتهم الأب بغير شك بجمود القلب والغباء . وبمرور الوقت كانت فظاظته تدهشه أكثر فأكثر . وداس على كبريائه واعترف لنفسه بأنه لم يكن أبدا مثالا للفطنة والخلق الأبوى كان يعتبر نفسه من قبل راضيا .

واعترف بذلك بوضوح فى خطاب له لأنيشكا فى خريف ١٩٤٤ وعندما عاد من الجبهة بعد ذلك عمل ما فى وسعه ليمحو جرمه . وقد وجدت فيه كاتيا ابنة أنيشكا جدا محبا .

وقابل فى أحد الأيام صديقه القديم فيرستوفسكى الذى رقى إلى رتبة جنرال وعندما سمع بأنه فى مكتب العلاقات الخارجية فى وزارة القوات المسلحة طلب منه أن يتحرى عن قبر زوج أنيشكا فى النرويج .

وقال «إن اسمه بافل جورد يفتش أكيموف . وكان قائدا فى الأسطول وقد دفن فى . . . . انتظر لحظة . سأبحث عنها . . . فى هوببتيميون فى النرويج . »

وعندما كتب فيرستوفسكى كل ذلك فى مفكرته ، انتفض فجأة وقال « تقول أكيموف ؟ أليس هو قائد الكتيبة ؟ وهو رفيق طويل القامة عنيد طروب وكان فى الأسطول أيضا »

« هل تعرفه ؟ »

« طبعا أعرفه : نعم . هو نفسه . لقد كانت أنيشكا فى نفس الآلاى . لقد قتل ؟ أنه لأمر مؤسف أن يموت مثل هذا الضابط الفذ » .

وكان الأستاذ يعرف أنه ليس من عادة فيرستوفسكى أن يندفع فى الحماس . وقد هزته الفكرة الطيبة التى قالها عن الرجل الذى كان

يعتبره فى الماضى مسئولا عن تعاسة أنيشكا .

ووعد فيرستوفسكى بأن يحصل له على المعلومات المطلوبة ولم يلبث أن دق التليفون للاستاذ ليطلب منه أن يقابله .

وأخبر الأستاذ بيلوزيوروفا : « نعم . إنه نفس الشخص الذى ظننته . وهو ضابط ممتاز تماما. وقد أعيد للأسطول . وأذكر أنه جرت مثل هذه الحادثة أمامى فى ذلك الوقت فى أورشا . ويذكره بحـــارة الأسطول الشمالى تماما . وحقيق أنه من النوع الذى لا يمكنك أن تنساه ببساطة . ويمكن أن يخبرك اللفتانت كوماندر ليتياجين الموجود فى قيادة الأسطول عن ظروف موته بالتفصيل وقد طلبت من ملحقنا العسكرى فى النرويج أن يبحث عن قبره وقد أخبرته أن أكيموف قريب لك ولى وهو زوج أنيشكا ووعد بالتحرى » .

وكانت أنيشكا فى ذلك الوقت فى الثامنة والعشرين من عمرها وفى ذروة جمالها . وقد أصبحت دكتورة موهوبة . كانت محبوبة من كل من المرضى والزملاء لرزانتها وبساطتها مع الجميع .

ولم تلبث أن نقلت بناء على طلب والدها إلى عيادة فى العاصمة . وكان يمكن ان يقدر نجاحها تقديرا أكبر لو لم تكن ابنة أستاذ مشهور. حيث أن براعتها وقدرتها كانت تنسب دائما لحسن توجيه أبيها ، وإلى نوع من الوراثة كأن الهمة ورقة المشاعر وراثية .

ولكنها كانت لا تهتم لذلك لأنها شعرت بأنها قد بدأت تنضج فى مهنتها وأحست بأنها أصبحت تملك أسس المهارة الرائعة ، التى أظهرها والدها والجراحون العظام الآخرون .

وكانت حياتها تبدو هادئة ولا تتدخل فى شئون غيرها ، ومكرسة نفسها للعمل ولابنها . وكان من الصعب أن تقرأ فى ملامحها الهادئة اليأس الذى عذبها مرة والذى يسيطر عليها أحيانا الآن .

ولقد قضت سنتين فى حالة من البؤس لا ينقطع ولا يلين . واستمرت فى دراستها بشكل رائع . وقد مرت سنون دراستها دون أن تؤثر فيها . وكأنها حملت على موجة رفعتها وحملتها إلى الأمام دون مجهود منها ، وهذه الموجة ربما كانت الواجب ، أو الالتزامات ، أو حب وطنها . أو عاطفة الأمومة ، أو شيئا آخر : ولكنها لم تدفع أنيشكا للغرق .

ولكن رغم كل ما كانت تقوم به أنيشكا فقد كانت تفكر دائما : « كيف يمكننى أن أقرأ كتابا بينما هو ميت ؟ كيف آكل وأشرب وهو ليس معى ؟ كيف يمكننى أن أرتدى قفازا وقد حرمت منه ؟ » ومع ذلك فقد كانت تقرأ الكتب وتأكل وتشرب وترتدى قفازها كما كانت العمة نادية تقوم بكل ذلك مع أن ابنها لم يعد من الحرب .

وكان ذلك يثير أنيشكا أحيانا على نفسها فقد كانت تظن نفسها مخلوقا حقيرا عندما تتمسك بالحياة بهذه الصورة التى يرثى لها وكانت لا تريد الحياة لأن أكيموف قد توفى . وكانت تظن أن المرأة الحقيقية

لا يمكن أن تعيش فى مثل هـــذه الظرف ومع ذلك فقد عاشت وقامت بكل ما يجب عليها تجاه نفسها وتجاه كاتيا ، وأبيها والمجتمع الذى تعيش فيه .

وأخذت تقرأ كل شيء عن النرويج ، وقد تعلمت أيضا لغتهم التى لم تكن صعبة عليها لتشابهها مع الألمانية . وعند ما قرأت عن هؤلاء الناس القصار المجتهدين الشرفاء وجدت عزاءها فى كون هؤلاء الناس — قصارا مجتهدين شرفاء — مما يبرر موت باڤل أكيموف من أجلهم .

— ٢ —

وقررت أن تذهب إلى كوفروف لـــترى عائلة باڤل وكان ذلك خلال صيف ١٩٤٦ — وأخذت القطار فى المساء ووصلت فى الصباح التالى . وسارت فى شارع ابيلمان ثم فى شارع بازار بجوار المحلات القديمة الحجرية ثم فوق الجسر ووصلت بذلك إلى زاريشنا ياسلوبودكا ، ورأت هناك منازل صغيرة خشبية مغطاة بالخضرة .

ولم تجد صعوبة فى أن تعرف المنزل الذى كانت تبحث عنه . برغم أنه لا يميزه شيء عن المنازل المجاورة . وكانت تجلس أمامه امرأة عجوز . وقد عرفت فيها أنيشكا فورا والدة باڤل لبعض تشابه ضعيف مع ابنها . وكان يبدو غريبا أن يكون لهذه المرأة القصيرة العجوز المليحة التى يشع منها الحنان ، ابن ضخم مثل باڤل . وكان يبدو غريبا أيضا أن تجلس على هذا المقعد بينما مات ابنها .

وقالت أنيشكا : « كيف حالك يا ماريا كابتونوفونا ؟ انى انا بيلوزيوروفا . وقد كتبت لك خطابا »

فاحتضنتها المرأة العجوز ، بكل عواطفها ، وقادتها إلى المنزل دون أن تنبس بكلمة .

وعندما هدأت مشاعرها قليلا سألت : « لماذا لم تحضرى حفيدتى الصغيرة ؟ أو ربما أحضرتيها ؟ » .

« لا . لم أحضرها . وسأحضرها معى فى المرة القادمة » .

وقالت المرأة العجوز وقـــد ثبتت عينيها الحزينتين على أنيشكا . « حسنا . دعينى أراك جيدا » .

وسمع الجيران بوصول أنيشكا ، وظل الباب مفتوحا ليسمح بالفضوليين بأن يلقوا نظرة على أرملة أكيموف . وكان معظمهم فساجين رجالا ونساء متقدمين فى السن . وقد احضر بعضهم اطفالا معهم . وحيا الجميع أنيشكا باحترام خاص . وكانوا يعرفون انها ابنة الدكتور والجنرال المشهور . ولكن لم يكن ذلك هو سبب فضولهم . فقد كان لبعضهم أبناء جنرالات وفيهم عمال حزبيون ورجال مسئولون . وكانوا يحسون أنهم هم أنفسهم قريبون إلى السلطة وأنهم فى الحقيقة مندمجون فيها تماما فى دولة العمال الفلاحين . ولكن سبب فضولهم

الحقيق هو معرفتهم لبافل أكيموف جيدا وحبهم له . فقد كان واحدا من أقوى وألطف الأولاد فى زاريشنايا سلوبودكا ، ثم عاملا حاذقا مشهورًا ونشيطا .

وكانت بعض النساء العجائز قد عينه زوجا لبناتهن وقد اهتممن أن يرين تلك التى اختارها بافل زوجة له — لأنه كان شابا من الصعب إرضاؤه فى هذه الناحية . وجلسن يتحادثن وتناولن بعض الشاى ومربة الكريز . ثم انصرفن وهم يفكرن فى اختياره الممتاز .

ولم تلبث ان عادت من العمل فاريا أخت أكيموف الصغرى التى لم تكن قد تزوجت بعد . وكانت مدرسة تدرس فى الفصول الصغرى للمدرسة رقم ١ وهى نفس المدرسة التى التحق بها بافل والتى كانت صالة ألعاب من قبل . وكانت تشبه بافل كثيرا بحيث فزعت آنيشكا عندما رأتها واحتضنتها بحرارة كبيرة وانفجرت فاريا باكية .

وعاد أخيرا والد بافل من العمل وهو جوردى بتروفتش الذى لازال يعمل كرئيس عمال فى مصنع النسيج . وكان رجلا طويلا ذا عينين فيهما حيوية ولهما حاجبان كثيفان وخاصة الحاجب الأيمن الذى يقف منتصبا فوق عينه فى انتظام ونخر ودخل وحيا أنيشكا دون أن يعرف من هى .

وقال : « حسنا ها أنا ذا . كيف حالكم ياشباب ؟ وما هذا الجمال الذى أراه هنا ؟ اننى لم أره أبدا فى كوفروف » .

وقد جعله الصمت الذى قوبلت به كلماته يحترس فى كلامه ، ثم رأى صورة بافل على المنضدة وحل تعبير حزين محل الابتسامة فى وجهه .

وقال : « إذن فهذا هو الموضوع . ثم سأل : « وكيف حال حفيدتى ؟ . » .

وأجابت أنيشكا : « طيبة . سأحضرها لتراكم فى مرة قادمة » .

وفى اليوم التالى ذهبت أنيشكا لتلقى نظرة على المدينة . وأرتها فاريا وأبوها مصانع آلات الحفر الكبيرة التى عمل فيها بافل . وقد أخبرها الرجل العجوز بكل مايذكره عنها . أنه لم يزل يذكر الفترة التى كانت فيها مجرد ورشة يقوم فيها كل شىء على العمل البدوى وتضاء بمصباح بترولى . وقال إن الدخان كان يملأ أماكن الحدادة فى ذلك الوقت بحيث كان الإنسان يكاد يختنق . وعندما كان يصل إلى درجة لايستطيع معها احتمال الدخان كان يجرى إلى الخارج وينام على الثلج برهة ثم يعود لعمله .

أما الآن فالمبنى كبير وله نوافذ كبيرة . ورأت أنيشكا فى الفناء آلات حفر كوفروفية جديدة دهنت باللون الأحمر كالترام .

وأراها الرجل العجوز جبل شيرينا . وهو المكان الذى كانت تعد فيه المظاهرات وتعقد الاجتماعات السرية ، وكانت فى الماضى تعقد فيه الملاكمات .

لقد كانت مدينة لعمال المعادن والنساجين . وهى إحدى مدن روسيا الكثيرة التى لم تدخر قوتهـــا أو دمها من أجل الثورة والاشتراكية . وعندما بدأ تمرد الاشتراكيين الثوريين اليساريين أرسلت كوفروف آلاى المشــــاة رقم ٢٥٠ والبلشفيك المحليين يقودهم ابليمان رئيس السوفييت وسكرتير لجنة الحزب الاقليمية لمساعدة عمال موسكو . وقد قتل ابليمان وسميت إحدى بوابات موسكو باسمه . وقد أرسل البولشفيك والعمال فى كوفروف رجالا لقمع ثورة حرس ميورم الأبيض وليضعوا حـــدا لعصيان الكولاك فى اقليم كليشنكوف وبيكوف ، ثم اندفعوا فى العمل بصلابة عظيمة ليجددوا مصانعهم ومؤسساتهم . وقد بنى أول مصنع لآلات الحفر سنة ١٩٣١ ثم بدأ الإنتاج المنتظم بعد ذلك بسنتين .

« وفى الحرب الوطنية الكبرى . . » وصمت الرجل العجوز ثم أضاف فى صوت حزين : « ضحى رجال كوفروف بكل ما فى مقدورهم »

(٣)

وكان يمكن ان تنتهى قصة بافل أكيموف هنا ونواصل كلامنا

عن المباهج والمآسى التى لاقاها الناس الذين عاشوا بعده . وكنا نود حقيقة ان نكتب خاتمة القصة ونلقى بقلمنا . رغم أننا سنترك بطلنا ونحن آسفون ونتجه إلى أفكار جديدة .

ولكن من المؤسف أننا لا نستطيع أن نفعل .

ففى أغسطس سنة ١٩٥١ تقدم رجال يحملون المعاول والجواريف والمفجرات وماكينات التسوية نحو المقابر العسكرية الروسية فى النرويج ففتحوا القبور نسفا ومزقوا جثث الرجال الذين لو كانوا أحيـــاء لجعلوا عددا أكبر من هؤلاء المدنسين يفر أمامهم . وسووا الأرض بماكينات ثقيلة وكنسوا الزهور التى وضعتها على القبور أيدى السكان المحليين الأتقياء وألقوا بها فى التراب .

وكان أحد المدافن التى استبيحت هو ذلك المدفن فى فينمارك حيث يرقد جسد أكيموف . وعلى هضبة الجبل بدأوا فى إقامة مطار لتتحرك منه قاذفات القنابل لتهاجم البلاد التى كانت أول من أرسل وحدات لتحرير النرويج وأول من سحبت جيوشها بعد التحرير .

فقد أراد الرجال الذين يعيشون من عمل الآخرين أن يعدوا لحرب ضد الشعوب . ولأن ذكرى الحوادث القريبة كانت تقف عائقا لخططهم فقد قرروا أن يطمسوها من الأرض . لقد كان الأموات يقفون فى طريقهم فقرروا أن يقتلوهم مرة ثانية .

ولم تنشر أخبار هذه الجرائم مباشرة ، فقد فحصت مرارا بطرق دبلوماسية وطرق أخرى لتتأكد من صحتها . فقد كان من الصعب تصديق أن مثل هذه الأشياء المفجعة يمكن أن تحدث .

وعند ما أبلغ الملحق العسكرى فى النرويج الجنرال فيرستوفسكى بما حدث ترنح وصعق . وكان أكثر ما أثر فيه أن جسد أكيموف قد دفن هناك .

وذهب ليرى الأستاذ بيلوزيوروفا وأخبره فى مكتبه بما سمع . وشحب وجه الأستاذ من الصدمة وجلس الرجلان فى الظلام الحالك دون أن يتمكنا من أن يقررا هل يخبرا أنيشكا أم لا . وسمعا من الغرفة المجاورة رنين ضحكة الطفولة وأصوات هادئة .

وقال فيروستوفسكى : « أنها ستسمع بالموضوع بطريقة ما فسينتشر الخبر قريبا . »

« ماذا سنفعل إذن ؟ هل نخبرها ؟

« إنها ستتزوج ثانية »

« إنها لا ترغب فى ذلك »

وعند ما سيطر الظلام تماما دقت أنيشكا الباب وسألت فى صوت خفيض : « أبى ، هل نمت ؟ »

ولم يجد أحد الجنرالين عنده من الشجاعة ليجيب . وعادت أنيشكا لحجرتها .

وقال فيرستوفسكى فى حزن : « حتى الموتى يقفون فى طريقهم . »

وأمسك الأستاذ بشاربه الأشيب وقد أربكه وأحزنه أن تحدث مثل هذه الأشياء على أرضنا . وكان تعبير وجهه متجهما جامدا . وبدأ يفكر فى نفسه أنه من السهل أن توقف كل الساعات على الأرض ولكن ذلك لن يوقف الوقت عن التقدم . وأن تحطيم قبور الأبطال بعيدا فى أقصى شمال أوروبا هو كمحاولة إيقاف ساعات صغيرة تدق بهدوء فى الليالى القطبية بأمل تخيف فى أن يؤدى ذلك لإيقاف الزمن .

وقال فجأة : « يجب أن نخبرها » . ثم نادى أنيشكا .

واستمعت أنيشكا لفيروستوفسكى ثم وقفت بلا حراك . فقد امتلأت بالدهشة والفزع والإهانة . وأحست بثقتها فى الإنسانية تتلاشى . وفى لحظة بدت دهرا من الرعب سألت مناجية أكيموف : « لماذا ذهبت هناك ؟ لماذا ضحيت بحياتك ؟ من أجل من ضحيت بأفكارك النبيلة وشجاعتك وحبك ؟ »

ولكن من حسن الحظ أنها لم تبق طويلا فى هـــذه الحالة . فقد أحست بأن الإهانة لم تلحق بها وحدها فقد كانت إساءة لكل الإنسانية . وفهمت أنيشكا أن الجنس البشرى نبيل حتى إنه لا يمكن أن نخلطه

بالوحش البشع الذى يفتك به ، ولم تلبث أن تغلبت على عواطفها وقالت بصوت هادىء تقريبا « لقد بعث فى الأعداء بفزع يشبه ذلك الذى كان يبعثه فيهم عند ما كان حيا » وفكرت فى أن مصيره كان شاذا فى أن يعيش بعد الوفاة .

وألقت أنيشكا على أبيها والجنرال تحية المساء ثم اتجهت إلى غرفتها .

وكان اليوم التالى بداية السنة الدراسية . وكانت كاتيا الصغيره ابنة بافل أكيموف قد بلغت السابعة من عمرها . وكان هذا هو أول يوم لها فى المدرسة . وكوت أنيشكا لطفلتها رداء مدرستها الأبيض . ولم يكن هناك داع لأن ترش عليه الماء . فقد ابتل ابتلالا كافيا بالدموع الكبيرة كقطرات المطر التى تساقطت من أعين وقلب الأم .



٥ شارع غيط النوبى تليفون ٤٩٣١٨



المؤلف

ايمانويل كازاكفتش من أدباء روسيا المعاصرين، ولد سنة ١٩١٣ بناحية كرمنشوج بأوكرانيا ودرس في كلية الفنون وبعد تخرجه قضى بضعة أعوام بالشرق الأقصى . ولما عاد الى موسكو سنة ١٩٣٨ اشتغل بالصحافة وكتابة القصة ، وفي سنة ١٩٤١ تطوع في الجيش و[illegible] معركة موسكو كما عمل في قسم المخابرات بالقيادة ال[illegible] بعدة أوسمة عسكرية ، ولما انتهت الحرب استأنف كتاب[illegible]

ومن أشهر أعماله « النجم » و « الربيع » و « قل[illegible]

وهي قصة انسانية ذات أسلوب شاعري ، تمجد أسمى [illegible] كما تصور فظاعة الحروب وما تجلبه من فرقة ودمار و[illegible]